ديبلوبيا..!

حين أرى ما لا تراه ..!

obeikandl.com

ديبلوبيا
رواية
شريف شاذلي
الطبعة الأولي .. يناير ٢٠١٣
الطبعة الثانية .. نوفمبر ٢٠١٣

الغلاف : أسامة علام
اخراج داخلي : الحلم للدعاية والاعلان

رقم الإيداع : ٢٠١٣/٢٢٣٢٧
الترقيم الدولي : 978-977-6412-45-3

إن دار الحلم للنشر والتوزيع، غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف، ولا تعبر بالضرورة عن آراء الدار .

الحلم للنشر والتوزيع
٤ شارع الأشراف من شارع مؤسسة الزكاة - المرج
محمول : 01141824562
dar_el7elm@hotmail.com

obeikandl.com

ديلوبيا..!

رواية

د/ شريف شاذلي

obeikandl.com

obeikandl.com

إهداء

إلى أبي العظيم.. هذا الرجل الذي إليه أنتمي.. وأشعر وأفكر.. وأدين له بكل شيء بعد الله - سبحانه وتعالى.

إلى أمي.. روحي وظلي وسبب الحياة.. أصدق وأخلص من في هذا الوجود..

إلى أخي الأكبر «طارق».. العقل الذي طالما علَّمني والقلب الذي طالما روى روحي..

إلى زوجتي المخلصة.. الحبيبة إلى الأبد.. ولكل لحظات صعبة عشناها معا يرضينا فقط أننا نعيش تلك اللحظات متجاورين..

إلى «يوسف».. صديقي الصغير.. ذلك الحلم الغالي الذي أرسمه في خيالي وبين ضلوعي عسى أن يصير حلمي الصادق حقيقة يوما..

إلى كل الأعزاء في حياتي.. أصدقائي الأوفياء.. وزملاء الأيام الصعبة.. لكم مني تقدير أعظم من هذا العمل المتواضع..

د. شريف شاذلي
يوليو ٢٠١٢

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة

لم أعتَد يوما كتابة المقدمات.. كنت دائما ما أرى فيها وصاية على فكر القارئ وبثا مباشرا لمضمون روايتي كيفما أراها.. وحين قررت هذه المرة أن أبدأ روايتي بمقدمة لم ألبث أن واجهت نفسي بأن سر هذه العادة المبتدَعة على كتابتي هذه المرة هو القلق.. القلق من أن تنحصر نظرة المستقبِل على القشور دون المعنى.. من ثم وجدت أن في ذلك إهانة لذكاء القارئ.. وقررت أنني ربما أخطأت التقدير.. لا أحتاج سوى أن أترك الأمر كما هو وأترك التقدير لشركائي في العمل.. وهم من يقرأ هذه الرواية المتواضعة الآن..

فقط أقول: إنها «ديبلوبيا» Diplopia..

ليست تلك الظاهرة التي يعرفها الأطباء، لكنها تشبهها كثيرا.. يعرفها أطباء العيون كوصف للصورة المزدوجة.. تلك الصورة المشوَّشة غير المنطقية حين تقرر العين اليسرى ألا ترى ما تراه اليمنى بالتطابق ذاته.. حين تتفرق العينان فترى كل واحدة المشهد ذاته بمنظور مختلف يستحيل أن يحدد العقل معه، أيهما الأصح.. ساعتها يتوقف العقل عن استقبال الصورة المثالية الواحدة ويعجز عن ترجمة هذا الاختلاف فيرضى بصورة مزدوجة متداخلة لا تحوي الحقيقة.. هذه هي «ديبلوبيا» كما يفهمها الأطباء.. وهي الظاهرة ذاتها التي تجعلنا لا نرى.. ولا نفهم.. ونعجز عن تفسير الأشياء حين لا تتطابق الصورتان.. وحين يجد العقل شكلين مختلفين للحقيقة.. لينتهي الأمر إلى العجز وضياع الاتزان..

إنها ليست «ديبلوبيا» واحدة.. إنها أعداد لا تنتهي.. ومواقف تعشق

obeikandl.com

التكرار.. وعقول تقبل الصور المفصولة للمشهد ذاته على علتها.. لتصنع منها كل ما هو مشوَّش مهزوز.. وغير حقيقي.. إنه الكذب.. أو الجهل.. أو الأنانية.. إنها أشياء عدة لكنها تؤدي للنتيجة ذاتها..

لذا رأيت ما رأيت.. وقررت أن أمنح المنظار ذاته للقارئ كي يرى أيضا..

ثم نتساءل معا بينما نحاول أن نطابق الحقائق ونضع المشاهد جنبا إلى جنب كي نفهم أكثر:

هل بالفعل هي ديبلوبيا؟!

د. شريف شاذلي
أغسطس ٢٠١٣

obeikandl.com

الفصل الأول

تقول وثيقة ما من الماضي.. ضاعت ولم يعثر عليها أحد:
«أنا قبطي.. أعيش في بلدي مصر لحظات لا أتمناها.. الروم قوم حرب لا يعرفون الملة وقد عانينا الكثير.. لم يعد احتلالا، بل صار للإبادة أقرب.. أهو اختلاف العقيدة أم هي الحرب؟ في النهاية لا تحتاج دماؤنا إلى تفسير وقد سال منها ما يكفي.. عرفنا أن جيشا تحرك من جزيرة العرب بدين يزعمون أنه قد جاء من السماء وأنهم قادمون من الشرق لقتال الروم.. لا أستطيع أن أجزم، لكن الناس لم تتوقف عن الحديث.. بعضهم يمنِّي نفسه بخلاص مقبل من الروم وهزيمة تشفي صدور المعذبين بلا جريرة.. والبعض يخشى المجهول ويرى فيه الصور كلها.. هل هو نجدة الرب، أم هي جيوش المحتل؟ وهل هي قادمة فعلا؟ الناس تتكلم لكنني واثق من أمر واحد.. هذا شعب طيب مخلص.. والرب حتما سيحمي أبناءه المخلصين..»..

حوار بين مجموعة من الشباب على صفحة منتدى قبطي «القديس الشهيد ديسقورس»

موضوع: حرقه الغزاة المسلمون حيا لأنه أسلم كي يتحاشى البطش ثم عاد إلى صوابه.. هل تعرفونه؟ إنه القديس ديسقورس.. هذا الرجل قد نتف شعر لحيته ندما حين أفاق من غفلته على كلمات موجعة كتبتها له أخته.. قرر أن يعود إلى دينه.. في هذا الوقت كان المسلمون يفرضون علينا أن نرتدي أثوابا تهين رجولة الرجال وتجرح عفة النساء إمعانا في الإذلال، فرضي ذلك على نفسه.. ارتداها وخرج حاملا الصليب.. حاولوا أن يقهروه وعرضوا عليه أموالا طائلة كي يرجع فأبى.. طعنوه بالسكين وألقوه في النار.. لكنهم لم يعرفوا أنهم قد منحوه الفردوس الذي يريد.

تعليق أول: فليبارك الرب كل من ضحى من أجله فكتب اسمه في سفر الحياة.. هؤلاء هم النور الذي لا يفارق قلوبنا..

تعليق ثانٍ: هذا هو تاريخ القتلة.. الدموية والعنف وإراقة الدماء.. لكن الذي يرى النور لا يخاف الموت..

تعليق ثالث: أتمنى أن تستمروا في نشر تلك القصص وأن تكشفوا عن زيف افترائهم على أجدادنا بزعمهم أنهم قد رحَّبوا بهذا الغزو وبضياع مصر وخيرها.. قد جاءوا بالدم والهدم.. لكنهم يغسلون أدمغة صغارنا في المدارس بالأكاذيب وعلينا ألا نسمح بذلك وأن نعي ما ينطوي عليه من خطورة.. شكرا.

«١»

الوقت متأخر.. الليل.. لا حركة في الحي الراقي الغارق في الظلمة سوى من أنوار كشافات الطريق التي بالكاد تضيء لنفسها.. لا صوت سوى صوت خطواته الخافتة البطيئة وهو يهبط من سيارته ويتحرك نحو الرصيف.. أنفاسه ذاتها كأنفاس السجائر التي يطلقها من بين شفتيه.. غاضبة تسعى لالتهام الكون.. أفكاره لا تتوقف.. لكنها أفكار مشوشة من فرط الانفعال.. يبلغ الرصيف فيتخذ لنفسه جلسة عليه..
يواصل أنفاس الدخان في شراهة وقد قرر أمرا..

* * *

«وسيم».. تعرفه؟
النهار في ساحة الجامعة.. أرواح شابة تدور في كل مكان فتلتف وتتجمع ثم تتفرق من جديد كفقاقيع الصابون.. ضحكات وأصوات وكلمات تميزها ولا تميزها ووجوه تتغير في كل لحظة كأنها أوراق اللعب في دور محموم.. في وسط هذا كله يصير سؤال «أحمد» عن «وسيم» غريبا لا يفهمه أحد.. هو - «أحمد» - شاب مبهرج من طبقة تسكن قمة المجتمع وهو قطعا لا يعرف سوى قوم من جلدته.. لكنه اليوم يبدو جادا في بحثه عن «وسيم».. يدور بين الوجوه ولا يسأل سوى عن هذا الفتى المجهول..
يقول:

obeikandl.com

- «وسيم».. ذلك الشاب النحيل.. تذكره؟ نعم كاد يفقد امتحانه الأسبوع الماضي حين أتى متأخرا.. تذكرون تلك القصة؟

لكن المعظم لا يعرفه.. قلة يمكن أن تتذكر هذا الوجه الفقير البائس، لكنها لا تعرف أين دفنه الزحام.. كما أنهم لا يجدون رابطا ما بين هذا الشاب الغارق في الحياة وذاك الفتى النكرة الذي يبحث عنه.. «وسيم»؟! نظرات متعجبة بلهاء ثم إشارات مبهمة.. أخيرا يهز أحدهم رأسه ثم يدير إصبعه إلى باب الكلية المقيد بأفراد الأمن..

يقترب الشاب - «أحمد» - أكثر من هناك فيراه بالفعل..

كان واقفا ينتظر حافلة ما تخرجه من دائرة الأحلام في الجامعة إلى واقع بيته المدفون في رمال العاصمة..

* * *

حينها بدا لـ«وسيم» وكأنه يوم آخر لا شمس له..

كان «وسيم» شابا بلا جديد.. تراه ألف مرة فلا تتذكر - حتى - أنه قد مرَّ بجوارك.. ذائبا في شلال عرقه متسترا بقميصه الأوحد وببنطال رخيص ينساب كي يستر ما استطاع من حذائه المترهل.. وجهه مطموس في الشمس، وملامحه المنقوشة قد جفَّت في وضع العبوس من حرارتها.. نظراته العاجزة كارهة بلا تجميل وهو يتأمل الشاب المنعَّم في مواجهته.. يحك كفه بكتبه التي ذابت في ملح العرق وقد انتابه شعور بأنها لحظة من تلك التي تباغتك فلا تدري ماذا عليك أن تفعل.. لحظة سخيفة تحتاج لأيام من التفكير كي تتخذ قرارا مناسبا، لكن هذا الآخر الذي يواجهك لا يمنحك تلك اللحظات الثمينة للتفكير فيما يحاول أن يورطك فيه..

obeikandl.com

لهذا كان حانقا.. ولهذا أدار رأسه كمن لم يسمع..

«وسيم؟».

يرفع رأسه لمحدثه مجددا وقد قرر أن يتنازل عن أيام الفكر التي لن يمتلكها ويرضى بما يمليه عليه عقله المكدود في تلك اللحظة بالذات.. يعاود النظر في وجه «أحمد» الوسيم المتنعم في الجاه ثم تتحرك شفتاه الجافتان لتتكلما في جفاء.. خرج الصوت خشنا ربما بأكثر مما أراد ليحمل عنه بعض كراهية لموقف لا يدري ماذا يفعل فيه.. قال:

- «لا أفهم».

أجابه في تهذيب:

- «أعلم قطعا أنه مطلب غارق في الوقاحة.. لكنني أطمع في كرمك».

ضاقت عينا «وسيم» أكثر.. يرد:

- «لكن.. لماذا أنا تحديدا؟ اسمح لي، نحن لم نكن قط صديقين مقربين.. كما أن أصدقاءك كثيرون في الجامعة.. هم أولى باستضافتك».

بدا الشاب أكثر تحرجا.. لكنه كذلك كان على قدر تحرجه شديد التصميم:

- «لنقل إنني لا أرغب في الإقامة ببيت أحد الأصدقاء هذه الأيام.. أعاني بعض المشكلات العائلية ولا أرغب لأحد أن يعرف مكاني».

تنهد «وسيم» من جديد.. أخرج كل سواد مشاعره في أنفاسه كي يجعل الإجابة أيسر للشاب الثري.. كان النهار قد انتصف وقد صار على «وسيم» أن يكافح كي يجد وسيلة تنقله من مدخل الجامعة إلى سكنه حين قرر الشاب المترف أن يضيق الخناق عليه.. لم يكن الأخير ينوي التنازل ولم يُعِر لأنفاس «وسيم» الرافضة اهتماما.. فقط نظرات سخيفة تنتظر الإجابة.. نظرات تعلم جيدا أنه - «وسيم» - لا يستطيع أن يقول لا.. كانت أيام قليلة سابقة حين أصبح «وسيم» المنغلق في صومعته مدينا لهذا الشاب

obeikandl.com

الذي بالكاد يعرف اسمه بجميل كبير يمنعه من الرفض..
يعتصر «وسيم» روحه سخطا كلما تذكر.. كان امتحانا كاد يفقده.. توسل كثيرا.. لكن تدخل الشاب المجهول المالك للنفوذ أصلح كل شيء ومكَّنه من حضور الامتحان.. لم يكن «وسيم» يعرف عن هذا الذي ساعده سوى اسمه القصير، لكنه في كل حال صار مكللا بجميل لا يمكن تبخيسه.. تصور أن الأمر قد انتهى بكلمة شكر لم يعتدها، لكن ظنه الأسوأ تحقق الآن.. كان «وسيم» شابا شديد المراس لكن الموقف باغته.. والشاب مصرّ بلا حياء.. حاول «وسيم» أن يحسم أمره، لكن يد الشاب الوسيم أمسكت برسغه:
- «أعدك.. ثلاثة أيام حتى أدبر حالي».
نظر إليه «وسيم».. لا يدري كيف انفلتت أفكاره على لسانه فلم يدركها زمام عقله، لكنه في النهاية همس في توتر:
- «أمن دولة؟».
- «ماذا؟».
نطقها فلم يعد هناك بد من المواصلة.. عاود السؤال:
- «أنت؟ من أمن الدولة؟».
رفع الشاب حاجبه في دهشة ثم أنزله وابتسم:
- «أمن دولة؟ لماذا؟ يبدو أنني لا أعرف عنك الكثير يا وسيم».
زفر الأخير إعصارا من الحنق وقال:
- «فقط أطمئن».
«لا تخشَ شيئا.. لا شأن لي بهذا الحمق.. تعرف أنني من نسل ثري.. قضيت معظم عمري بالخارج ولا أبدو كالشخص الأنسب كي أتجسس على زملائي».

- «فقط كنت...»..

قاطعه الصوت في هدوء:

- «أنا لا أعرف الكثيرين هنا.. أصدقائي معروفون لكل فرد بأسرتي.. أحتاج لمهلة كي أتدبر أمري وقد وعدتك».

ثم مال عليه وأردف في صوت مهذب:

- «ثلاثة أيام لا أكثر».

ابتلع «وسيم» ريقه وأشاح بوجهه لزحام السيارات من أمامه، بينما الأصوات المتناثرة في عقله تغلبه..

موقف كريه - كان يعلم - لكنه كان الطرف الأضعف..

* * *

نعم.. كان يعرف «أحمد النادي»..

يريح «وسيم» جسده النحيل المبتل على المقعد الفاخر بينما يتولى الأول القيادة في سلاسة.. يبدو الأمر كدعابة بلا معنى.. ذلك الثري الغارق في الجاه والنفوذ يبحث عن مأوى في جحر زميل دراسته المعدم بلا رتوش.. كان الهاجس المخيف عن ألاعيب أمن الدولة يسيل على جدران عقله، لكن صورة الفتى وهيئته كانتا بعيدتين عن هذا الملعب.. لا يبدو كمخبر ولا يحتاج لهؤلاء من أجل خدمات أو نفوذ..

تبقى قصته ضعيفة وغير مقنعة..

خلافات أسرية وأشياء لها الرائحة ذاتها، لكنها لا تبرر مطلبه الغريب.. قصة تنقصها الكثير من التفاصيل كي تبدو منطقية.. لكنه كان يعرف أن تلك التفاصيل سوف تكون ملكه يوما ما إن كانت القصة حقيقية..

obeikandl.com

لكن انقباض قلبه بقى بلا انبساط.. ما زالت استضافة هذا المجهول تزعجه..

عاد ذهنه إلى خزانة المخاوف.. ضرب أرقامها السرية فانفتحت له فكرة جعلته ينتفض.. أدار بصره في حذر للوجه المتنعم وبدأت الفكرة المخيفة تذوب تدريجيا في شكل ملامحه وثيابه المبهرجة وهيئته الغربية الفجة.. لم تكن هيئة «أحمد» الغارقة في طباع الغرب توحي بانتمائه لأي جماعة دينية.. كان إلى الاستهداف أقرب له من الانتماء.. لكن الفكرة المرعبة كانت كافية كي يقرر «وسيم» أن يحذر.. والد «أحمد» رجل شديد التعصب معروف بانتماءاته الدينية السابقة قبل أن تحتويه سوق المال فيبدي بعض التنازلات.. لا مال بلا سياسة، وهو أمر مسلَّم به..

- الفتى رقيع بلا شك..

يقول المنطق في عقل «وسيم»..

- «سيجارة؟».

انتفض «وسيم» بنفَس هواء أخرجه من أعماق أفكاره لتقابله كف «أحمد» الممدودة بعلبة سجائر دون أن تترك عيناه عارضة الطريق..

- «سيجارة؟».

رددها «وسيم» كمن لا يعرفه.. ثم هز رأسه مكفهرا أن لا.. هكذا قرر «أحمد» ألا يكون لحوحا هذه المرة.. ألقف فمه واحدة ثم أشعلها وعاود القيادة.. لم يُبدِ «وسيم» رد فعل وقد قرر «أحمد» أن يتكلم أولا فلو بقي لدهورٍ ما تكلم أحد..

«أشكرك وسيم.. لا تعرف قدر الخدمة التي قدمت لي.. تعلم أنني قد قضيت مدة طويلة بالخارج في ضيافة عمي.. لا أعرف الكثير عن مصر.. عائلتي من الصعيد لم تبرحه ولا أعرف عنهم شيئا تقريبا.. أصدقائي

محددون ومعظمهم أبناء أصدقاء أبي المقربين.. فقط أنت من أرسلتك الصدفة إليَّ».

هز «وسيم» رأسه بلا معنى.. همس بجفاء:

- «أتشرف بوجودك».

- «أشكرك».

- «بيد أنني ما زلت لا أفهم.. أعلم أنك ثري بما يكفي.. يمكنك أن تحتمي بأي فندق شئت.. وهي جميعا أكثر فخامة من منزلي».

- «أبي قادر على العثور عليَّ فيهم جميعا».

- «تبالغ؟».

قالها «وسيم» وقد زادت الريبة في لكنته.. كما زادت نفسه نفورا من الأمر برمته..

- «لا أبالغ».

- «تتحدث وكأنك تحتمي من حكم قضائي.. لا يبدو هذا كخلاف أسري عادي».

هز «أحمد» رأسه هزة لا تجيب.. فقط صمت فاهتزت أفكار «وسيم» بمزيد من الشك.. قرر أن يكون أكثر حزما.. أصابعه تدق على النافذة في توتر..

- «أحمد.. لا يبدو هذا مريحا.. هل أنت هارب من حكم ما؟ هل فعلت شيئا...».

قاطعه «أحمد».. وكان صوته شديد الحزم:

- «لا ترهق نفسك بالتفكير يا وسيم.. أنا لا أخدعك.. الأمر كما وصفته لك».

obeikandl.com

- «حقا؟».

- «حقا».

ازداد الطرق على نافذة السيارة.. تتابع عنيف.. كلمات محبوسة قررت أن تريح صدر صاحبها.. يقولها ثم يندم مجددا على عدم تحصنه بالحذر:

- «وهل لاحتمائك بي علاقة بديني؟».

رفع «أحمد» حاجبيه لوهلة كمن لم يتوقع.. لكنه لم يرفع عينيه عن الطريق.. أدار سيارته إلى شارع جانبي وأجاب في هدوء:

- «بالكاد أتذكر الآن كونك مسيحيا يا وسيم.. لا أفهم، بظنك ما العلاقة؟».

- «فقط أسأل».

قالها «وسيم» وقد بدا الجفاء في صوته..

- «وسيم.. أعلم يقينا أنك غير مسرور بإقامتي معك وأنك تقبلها محرجا من خدمة سابقة قدمتها لك.. واثق من ذلك، لكنني مضطر للتعامل بلا لياقة.. فقط أتمنى ألا يكون جفاؤك هذا لسبب الدين تحديدا».

مطَّ «وسيم» شفتيه بلا معنى.. قال بصوت لا يسعى إلى الإقناع:

- «لا.. فقط أسأل».

قرر «أحمد» أن يكون أكثر ذكاءً وأسرع إلى حديث آخر قبل أن ينخرط زميله في المزيد من الأفكار الحارقة:

- «هل تريد أن نتوقف للشراء؟ ربما ينقص البيت شيء».

- «لا».

قالها وقد زاد وجه «وسيم» اكفرارا.. لم يكن يميل إلى هذا القدر من المصارحة فيما قال «أحمد».. الأفكار المستترة تبدو دائما مستساغة قابلة للتداول، بينما العبارات المكشوفة قبيحة الرائحة يكرهها الناس.. فكر

obeikandl.com

«وسيم» بأن الأيام المقبلة ستكون كريهة صعبة البلع..
قال «أحمد»:
- «هل تمانع في دقائق أمام هذه البقالة؟ أعشق المنبهات وأحتاج لمؤن كافية منها طوال فترة الإقامة».
أخفى «وسيم» ابتسامة كادت تنحفر على وجهه:
- «تفضل».
أوقف «أحمد» سيارته في ثقة وغادرها.. طريقة إيقاف مستهترة، لكن «وسيم» أحب هدنة صغيرة يتركه فيها الفتى منفردا..
عيناه ما زالتا تفكران.. يرفع رأسه وقد راودته فكرة ما فألقى نظرة على أبعاد السيارة.. وكما بدت ملاحظته الأولى زائغة لكنها صارت أكثر دقة ببعض التدقيق.. بالفعل لم يكن بأركان سيارته أي رمز ديني: مسبحة.. مصحف.. جزء من قرآن.. لا شيء كهذا أو كذاك..
لكنه أصر ألا ينخدع بطمأنينة زائفة:
- «لا يفعلون شيئا من أجل الرب.. لا يعرفون شيئا من تعاليم الدين سوى القهر.. كلهم في ذلك سواء».
كان ذلك حين تعالى صوت مقبض الباب فأجفل.. كان «أحمد» وقد عاد بحقيبة ممتلئة واعتدل ليدفع جسده الرشيق بمقعده.. كانت ثانية واحدة رأى فيها «أحمد» بثيابه وبهرجته وبدعه الغريبة في كل شيء وقرر - كي يستريح - أن هذا الفتى الأحمق لا خوف منه..
من ثم ينسى الأفكار.. ويعاملها كزيارة سخيفة تنتهي يوما..

* * *

«ماري»..

«ماري» هو اسم قصير خفيف النطق سهل الاحتواء بين ثنايا القلب.. «ماري» كان اسمها.. وكذلك كانت هي..

«ماري» ما زالت طفلة.. أن تكون طفلا في العشرين هو شيء تراه في «ماري» ولا أحد سواها.. كان والدها - الأستاذ «جورج» - رجلا شديد التدين، وهو شخص متحفظ منغلق.. في النهاية كان رجلا ويرى ما يراه الرجال.. إنها فتاة شديدة الجمال.. طفرة لا تعرفه ولم تغترف من جينات أمها الشمطاء شيئا.. «ماري» جميلة.. وشديدة السذاجة.. هذه حقيقة مفزعة للأب دائم القلق..

لكن «ماري» الغريرة لن تدفع الثمن.. نطق لسان عقله بأنها ابنته الوحيدة وقد رأى ألا يعاقبها بجمالها الأخَّاذ.. قرر أن يرعاها في حذر ويراقبها من بعيد.. ويطمئن لأفعالها دون أن يُشعرها بالشك..

كانت «ماري» دائما بريئة.. وكانت دائما مطيعة..

ولأنه كان رجلا شديد الورع فقد خطط لأن يحفظ ابنته في حرملة الرب.. كان الأستاذ «جورج» موظفا معدوم الدخل، لكنه كذلك لم يسعَ يوما لعمل ليلي.. كانت حياته في صلواته وكانت متعته في البقاء بالكنسية والحديث مع القس.. وقد حرص «جورج» أن يمنح ابنته شمعة من النور كي تصير إلى ما هو إليه..

وكما كان الرجل صارت ابنته..

لم تكن «ماري» تعرف شيئا عن الحياة سوى رفقاء المدرسة وجيران الحارة الفقيرة.. كانت روحها الخجول وطباعها المختلفة قد جعلتها وحيدة منطوية، لكنها لم تتألم لهذا، وبدا لها وكأن الحياة بلا خيارات أخرى.. تعلمت الفتاة طريق الكنيسة من أبيها.. أحبتها وصارت بالنسبة لها ملاذ

الحياة الوحيد.. كانت كالنزهة تعد لها الأيام كي تأتي.. كبرت «ماري» واستشعر قلبها خوف والدها عليها.. تكبر يوما فيزداد الخوف أعواما.. في النهاية تأتي ليلة الكنيسة لتغسل المخاوف والأفكار وتعطيهما روحا أخرى بلا هموم..

لم يكن لـ«ماري» طموح آخر سوى رضا الرب وسكينة والديها فكانت تبدو لرفيقات سنها كالمخبولة.. كيف لزهرة ذابت قلوبهن في الحقد عليها أن تكون شديدة الخنوع هكذا؟! لا جموح ولا أطماع.. لا شيء من حياة..

لكن والدها - على خوفه - كان دائم الفخر بها كفخر فنان بلوحة يعلم أنه لن يرسم مثلها أبدا.. كذا أهلها جميعا.. هي فتاة مريحة في كل شيء.. قطعا.. ولا لوم عليها فيما وهبها ربها إياه.. هي مؤمنة وهي تستحق تلك الهبة ما دامت لن تهدرها فيما يغضبه..

كانت جالسة في ركن غرفتها.. تستغل لحظات من الهدوء تقضيها الأم في المطبخ ويقضي فيها الرجل العجوز أوقاتا عصيبة في العمل لكي تنزوي في ركنها الخاص.. تمسك كراستها الصغيرة وتتناول قلمها الرصاصي لتستغرق في الرسم.. تستدير من حين لآخر كي تتأكد أن أحدا لا يراها.. تخشى أن تسمع سخرية أمها من رسومات تنتمي لزمن الطفولة، لكنها ما زالت تحبها.. والدها أيضا يجد ما ترسمه غريبا على سنها.. هو لا يهتم برسمها كثيرا، لكنه لا ينكر سعادة حين ترسم أناملها صورة العذراء في براعة.. كانت تجيد الرسم، وكانت ترسمها له من حين لآخر لتسعده.. ثم تعود لرسومات الطفولة من جديد..

يمر الوقت.. تمل فتترك قلمها ودفترها الصغير في صندوق الأشياء ثم تخفيه تحت فراشها.. تسير إلى المرآة لتقضي لحظات تبهجها وهي تمشط شعرها المنساب في حياء..

obeikandl.com

«ماري»..

تمشط شعرها الناعم أمام صفحة المرآة المتسخة في استمتاع بريء حين تعالى صوت أمها المشروخ.. صوت مزعج غارق في العشوائية لكن الفتاة كانت تحبه.. تهرول حافية القدمين لتبلغ باب المطبخ الذي بالكاد يسعى جسد والدتها الضخم:

- «أناديك منذ ساعة.. أين أنتِ؟».

ابتسمت «ماري» ولم ترد.. لكن الأخيرة كانت تعرف إلى أين تنظر.. دائما تنساها ابنتها الصغيرة في يدها..

«فرشاة شعر!! ماري.. لا تفعلين شيئا سوى الزينة والرسم.. لست طفلة.. هناك أشياء أخرى ينبغي أن تشغل عقلك».

رفعت الفتاة رأسها وابتسمت في خجل:

- «ليس لهذا الحد.. أمشط شعري أحيانا.. هذا كل ما في الأمر».

- «لعل مهمتك المقدسة قد انتهت وربما يسمح وقتك بأن تساعديني في تحضير الطعام.. والدك البائس قد أوشك على الوصول».

- «أمي.. دقيقة».

- «ماري!!».

تنصاع الفتاة بلا غضاضة:

- «أمرك أماه».

تبتسم السيدة المنهكة بلا إرادة.. تهمس من بين أنفاس لاهثة من فرط الحرارة:

- «هكذا أحب أن أسمع دائما».

لم تكن «ماري» تكره ذلك.. تعلمت أن تحب والديها بجنون ولم تكن طاعتهما عبئا عليها.. كانت تسعد كثيرا حين تجيب تصرفاتها طموحهما فيها..

obeikandl.com

الصوت المتكرر كمواء القطط من خلف أسوار غرفتها المطلة على الشارع ينادي بنغمة تعرفها جيدا.. إنها «تريزا» - ابنة خالتها - تناديها من خلف الشرفة كي تدعوها للنزول إلى الشارع.. لكن الفتاة كانت تعرف أن الأم في انتظارها.. «تريزا» لا تعرف مثل هذه الأشياء وهي دائما تمتعض من «ماري» الخجول، لكن «ماري» كانت تملك شيئا من الحزم حين يتعلق الأمر بثوابتها..

أشارت لها أن لا.. ثم إشارة بالانصراف، فهزت «تريزا» رأسها وتمتمت بكلمات ما لا بد أن فيها كلمة «بلهاء».. ثم أشاحت بكفها وانصرفت عنها:

- «أيها الأولاد، أطيعوا والديكم في الرب؛ لأن هذا حق»..

- «قادمة يا أمي».

ثم تترك الفرشاة لمكان ستنساه..

* * *

وقف «مصطفى» حاملا كتبه..

وقف للحظة كي يجفف العرق الذي أغرق وجهه كقطرات المطر ثم انحنى ليتمم على رباط نعله.. من خلفه تنسحب الجموع مغادرةً أبواب المسجد بعد تمام الصلاة.. يصافح من الجموع واحدا أو اثنين ثم يستدير من حيث أتى..

المكتبة في نهاية الحي الفقير.. بجوار المسجد الذي فيه يصلي..

يضع كتبه على الأرض ثم ينحني ليرفع حصنها الحديدي.. يرتفع فينطق المكان بضوء الشمس.. النور والزحام وأصوات المارة المشروخة.. صباح ككل صباح.. يعاود الشاب المرهق فتح المكتبة ثم يتخذ لذاته المكدودة

obeikandl.com

جلسة خلف لوحها الخشبي..
- «ألن تفكر ببعض المنطق وتجعل منها محلا للبقالة؟!».
دائما يفكر.. عبارة ترددت كثيرا منذ رحل والده، لكنه لم يجرؤ يوما أن يجعلها حقيقة.. مكتبة والده العتيقة أمر لم ينجح يوما في تقبله..
لكن الواقع يتكلم.. بل ويثرثر..
الواقع يقول: أمك مريضة.. الواقع يقول: ما زلت تدرس.. بانتظارك عامان على الأقل قبل أن تصير حاملا لشهادة.. الواقع يقول: هذا المكان هو مستقرك وحبل الرزق الوحيد بين كفيك الواهنتين.. الواقع يقول ولا يتوقف..
«مصطفى» دائما مثقل بالأفكار والهموم.. حين تنضح الأفكار من ثنايا العقل كي تغمر الملامح وتعمي البصر.. يسير فيبدو كالمعتوه.. تائه ككل عالمه.. دائما يبحث عن مخرج.. أي مخرج..
لكن قلبه الشاب لم يخضع أبدا لسلطان اليأس.. كانت أوقات الصلاة مهربه.. يسمع الصوت العذب فيغلق ستار الدنيا من خلفه ويعدو طالبا

للرحمة.. لم يكن المسجد الصغير مزدحما بالناس دائما؛ لأن الحي كان مسكونا في معظمه بالأقباط..
كان «مصطفى» شابا غارقا في الفكر.. مشبعا بالأمل.. متمسكا بنور ربه؛ لهذا لم تلتهمه نيران اليأس يوما.. قرر أن الأبواب الموصدة ستنفرج حين ينهي دراسته وأن والدته يوما ستتماثل للشفاء.. حتى الموت هو رحمة خلقها الله كي ينهي معاناة الإنسان.. لا حزن فيما قضاه الله..
يمد يده فيتناول كتابا أول.. يخرج القلم البالي من جيب قميصه ثم يشرع في القراءة..

يبلل شفتيه ثم يبسمل.. يتأمل الأوراق.. لكن اللحظة لا تمهله.. يدنو الظل الضخم منه مصحوبا بزحف العصاة المثقلة بوزن صاحبها على الأرض فيرفع رأسه وقد رآه قبل أن يبصره.. كان «وليم» عجوزا غارقا في الهِرم مكدسا في دهونه التي أكلت مفاصل ساقيه فسار سيره إلى الزحف أقرب.. لا ترى في وجهه المجعد سوى شبح ابتسامة، أو هما شفتان تهتزان قبل أن تسقطا إلى العبوس مجددا.. يقف له «مصطفى» وقد امتلأ وجهه بالبشر ويتقدم كي يقرب له المقعد داعيا إياه للجلوس:

- «عم وليم.. كيف حالك؟ لم أرَك منذ أيام».

ثم مد يده يُجلسه، بينما الأخير يقول بحروف تتزاحم بسعاله:

- «نشكر الرب يا بني.. المرض كما تعرف».

- «متَّعك الله بالعافية يا عمي».

ثم مد يده إلى جيب بنطاله فابتسم «وليم»:

- «ماذا بك يا مصطفى؟ تستعجل دفع إيجار المكتبة وكأنك تسألني الرحيل».

ربت «مصطفى» على كتفه.. لم يعد ينزعج؛ فقد اعتاد دعابات العجوز..

- «قطعا تمزح.. قد اشتقت لجلستك».

ثم ناوله المال وسحب كرسيا ليجالسه.. قال والرجل يتناول ماله:

- «أعرف أنك قد ضقت بأمري يا عم وليم.. مبلغ بخس هو ما أدفعه.. لو أنك بعته أو أجَّرته كما تقتضي القوانين الآن لحصلت على مبلغ أفضل».

ضحك العجوز حتى سعل.. نظر إليه فأدرك أنه جاد لا يمزح فتوقف عن الضحك:

- «هل جننت يا مصطفى؟ والدك - رحمه الله - كان أكثر من شقيق، وقد

obeikandl.com

أوصاني عليك.. أنت ابني يا أحمق، ولولا كرامتك التي لا تنفك ترهقك ما قبلت الأجر من الأساس».

- «إنه الحق يا عماه.. إما أن أجدد هذا العقد وإما أن أتنازل لك عن المتجر».

نظر إليه الرجل بنظرات عاتبة.. أراد أن يستجمع زمام كلماته ورد بصوت مشقوق:

- «لن أغضب منك».

ثم مال عليه واستدرك:

- «هل قابلت ابني صادق؟».

ابنه الذي لم يعد أبدا كما كان.. جار «مصطفى» وصديقه الذي لم يعد كذلك أيضا منذ سنين..

فضَّل الشاب ألا يتكلم، لكن فهم الرجل قد أراحه في الأحوال كلها.. لن ينكر ويلعب دور الفارس؛ فقد أرهقه كلام «صادق» بالفعل..

- «دعك منه يا ولدي.. تعلم أن خبالا قد أصابه.. لم يعد وديعا كما كان.. صار عصبيا كثير الاعتراض.. فليفعل ما يشاء على كل حال، لكنه لا يملك شيئا من داري تلك.. أنا فقط من يقرر هذه الأمور».

هز «مصطفى» رأسه ممتنا:

- «فقط لا تخبره أنني قد تحدثت بهذا الشأن».

هز «وليم» رأس عصاه غير راضٍ ومال برأسه ليقول:

- «لولا كلمتك هذه لحطمت جمجمته».

انحنى «مصطفى» ليقبِّل رأسه فابتسم الرجل وقد راوده الشعور الأثير بالأبوة.. نظر إلى الشاب وأراد أن يمنحه نظرة تعطيه دفئا مماثلا.. هو عمر

obeikandl.com

يجري ولن تعود الأمور لسابق عهدها، لكنه حتما متمسك برأيه قادر على الدفاع عنه.. ويحب أن يمنح الشاب شعورا كأن شيئا لم يكن..
يقول الرجل إن عليه أن يرحل، لكن «مصطفى» يتمسك به.. يطلب له كوبا من الشاي ويقرر أن يعطيه وقت بضع صفحات من المذاكرة..
كان يحب الرجل ويرى فيه من روح أبيه.. كان الرجل يستحق..

* * *

اسمه «رأفت»..
ينساب الشاب اليافع خارجا من ساحة الكنيسة مع دقات منتصف الليل.. يلقي بنور عينيه ليكشف الطريق المظلم يمنة ويسرة بملامح أعياها القلق.. آمن؟ يلتقط أعصابه ثم يتحرك عبر الطريق الخالي وعيناه تدوران في الأرجاء وكأنه يراها للمرة الأولى أو ربما أقل..
برهة من الأفكار.. تبدو أعمدة الإنارة على الجانبين وكأنها عيون قاسية ترقبه.. تعد عليه أنفاسه.. يتشرب صدره الهواء البارد وكأنه سائل يغرق رئتيه.. لحظات قليلة في أحضان المكان الذي يحب، قبل أن توقع الدنيا الصاخبة إيصالا بتسلمه.. يتساءل.. هل صار عليه لزاما أن يفعل الشيء الصحيح ثم يستتر.. هل علينا أن نخشى حين نفعل ما ينبغي علينا أن نفعله.. يهز رأسه حتى لا يسقط في فخ الحيرة مجددا..
- «رأفت؟».
ينساب صوت صاحبه الهامس من خلفه.. كان عاليا من صمت الطريق وكان صاحبه يحاول أن يلحقه..
- «رأفت.. ألن تتوقف عن إشعاري بأنني قد سرقت مصرفا للتو؟».

obeikandl.com

ابتسم «رأفت»..

كان الشاب - «رأفت» - جميل المحيا.. وجهه كنقشة غربية نحتها فنان شرقي يعشق الأصالة.. نحتة صنعت الجمال لكنها لم تصنع الكثير من البهجة.. كان شابا، لكن نظراته الرمادية كانت طاعنة في السن مسجونة في غرفة وحيدة من الأفكار.. يسمع صوت رفيقه فيتذكر بغتة أنه لم يكن وحيدا في الكنيسة.. يتعجب.. يشعر وكأن أفكاره ستقوده يوما للخبال وقد رأى في نظرات صاحبه أن تلك اللحظة تتعجله بشدة..

يستدير.. يقول لصاحبه في خفوت:

- «أنت تعلم يا جون أنني أشعر بسخافة هذا الذي أفعله.. أرفض أن يحتكر أحدهم حريتي، لكنني - أيضا - ألتمس العذر لوالدي.. قد خضت التجربة بنفسي وأيقنت أن أبي يفهم الناس ها هنا بالفعل.. في البداية لم أكن أصدقه، لكنني - يوما بعد يوم - صرت على استعداد لتصديق أي شيء.. هذا وضع مريب محتقن».

قال «جون»:

- «سمعت بما قاله الأنبا بيشوي في مؤتمر الفيوم؟».

مطَّ «رأفت» شفتيه بلا جواب، لكن «جون» أدرك الإجابة أن نعم.. قرأ في عينيه نظرات غير راضية فابتسم له ابتسامة مشجعة وقرر ألا يحدثه في أمر لا يروقه.. كان «جون» يعرف جيدا أفكار صاحبه وقد قرر ألا يفرغ بكلماته وعاءً من الحبر الأسود في عقله فصمت.. قال بينما يعبران الطريق:

- «فقط عامان لك في مصر.. اصبر يا رأفت، فهناك الكثير من المفاجآت في بلد العجائب».

هز «رأفت» رأسه ولم يرد.. رفع رأسه إلى السماء.. ثم دس كفيه في جيبي بنطاله وفضَّل أن يصمت قليلا.. صمت ما لا يقال..

obeikandl.com

قال «جون» وهو يسير بجواره:

- «ألن تتركوا ذلك الحي؟ يمكنكم أن تجدوا محل إقامة أفضل.. في أماكن أخرى لن يعرفكم فيها أحد يمكنكم أن تكونوا على طبيعتكم أكثر.. نحن نتكتل في أماكن بعينها».

«لا أدري.. أبي يرفض الخروج عن حضن العائلة.. الجيرة والصحبة وأشياء أخرى.. والدي رجل يُشعره الأهل بالحماية، وقد قرر أن يتمسك بالحي الفقير ولا يتركه تحت أي ظرف.. في كل الأحوال فإن الحمق موجود في كل مكان.. ليس هذا هو الشيء الوحيد الذي أعانيه».

- «لا تبدو سعيدا هنا.. لماذا لم تقرر العودة إلى الولايات؟».

داعب «رأفت» طرف أنفه بأصابعه ورد بلا اكتراث:

- «أرض الأحلام.. نعم.. لكن حتى الأحلام لها ثمن.. ثمن باهظ.. وكلما ارتفع الحلم ارتفعت قيمته.. بعض الأثمان تكون غالية بقدر».

- «لكننا هنا ندفع الأثمان بلا مقابل».

- «لا يبدو لي أننا ندفع الكثير كما تظن.. نحن - تقريبا - بلا عمل.. ما زلنا في هذا العمر تحت ظل آباء يدفعون مصروفات حياتنا عن طيب خاطر.. وحين تجلس على مكتب خشبي في وظيفة ما فإنك تؤدي أسوأ ما عندك بقدر ما يمنحونك من راتب وربما أقل.. قد تجد الفُتات في نهاية كل شهر، لكن الاطمئنان بأن أحدا لن يطردك منه ولن يقطع عيشك حتى يشيب شعرك هو شعور لا تجده هناك.. الحياة هنا على قسوتها متساهلة رحيمة.. لكن العقول هنا فاسدة».

يضحك «جون» ضحكة مريرة.. يدنو منه ويتأمل وجهه كمن يتعرفه.. يقول ساخرا:

- «لا أصدق.. هل ترى ذلك أمرا طيبا بالفعل.. تكره الولايات؟».

obeikandl.com

- «ليس كما تظن.. لقد قضيت ستة أعوام هناك.. كل شيء مبهر.. منظم وذكي.. لا مجال للمجاملات.. العقول هناك تتقبل كل شيء.. ربما لدرجة تثير الغضب.. لكن أبي عانى كثيرا في التأقلم مع حياتهم القاسية والشعور المتواصل بالتهديد وعدم الأمان.. تعلم.. كانت مخاوفه بشأننا تقتله.. تيارات الإلحاد والعبث.. أبي شديد التدين كما تعرفه وقد كانت نشأتنا ترهقه».

لم يبدُ «جون» على استعداد لقبول ما يقال، لكنه اعتاد ألا يجادل صديقه كثيرا.. هي أشياء لا تُشترى إن صح التعبير..

- «على كل حال.. أهلا بك في بلدك.. تذوَّق حلاوته بنفسك!!».

ابتسم «رأفت» ولم يعلق.. كانا قد بلغا مدخل بيت الأول، فكان على الأخير أن يصافحه.. ودعه سريعا ثم استدار إلى الطريق ليبحث عن سيارة ضالة.. تحمله أقدامه النحيلة وأفكاره المشتتة إلى ناصية الشارع ثم يلوح بيده في الفراغ فيوقف سيارة تقله..

الشعور ذاته بأن السائق يعرفه وأن أمره قد انكشف.. أوهام لا منطق لها.. لكنه سئمها.. لم تعد تؤرقه..

تدق الساعة معلنة منتصف الليل..

* * *

الفصل الثاني

يقول القائل - لكن أحدا لم يحفظ كلماته في هذا العهد البعيد -:

- «أنا عربي من اليمن.. شاء ربي أن أكون في جيش المسلمين الفاتحين لمصر.. وقد صرت بعدها من بين المختارين من العارفين بالدين والحافظين لكتاب الله كي أستقر بها وأعلِّم أهلها ما تيسر من العلم.. كانت مصر بلدا غريبا لا كبلاد العرب.. وعلى الرغم من ذلك فقد أحببت العيش فيه.. كنت غريبا تتلقفني ريبة الناس وقدر من رهبة أو قلق.. لكن الحواز سرعان ما تسقط إن أظهرت قدرا من المودة.. هؤلاء قوم يملكون أرواحا جميلة.. وطبيعة ودود راضية.. قد صرت منهم سريعا واتخذت لنفسي بيتا وزوجة.. هي بلد طيب كريم ينبغي أن يصان».

obeikandl.com

حوار بين مجموعة من الشباب على صفحة منتدى إسلامي «تحليس النصارى وحقيقة الفتح الإسلامي العظيم»..

الموضوع: كثرت الأكاذيب حول حقيقة الفتح الإسلامي لمصر؛ فالنصارى يدعون ويروجون لأفكار كثيرة تحتاج إلى الرد المفحم والقوي والقاطع؛ إذ إنهم يتعمدون سرد تفاصيل كاذبة اعتمادا على رواية رجل واحد هو «يوحنا النقوسي»، وعلى الرغم من أن كتابات الرجل لا تمثل أهمية بقدر فإن المصادر الغربية استغلت روايته التي تحمل الكثير من الكراهية للمسلمين، حتى إن كل ما يسردونه من مجازر كاذبة يستند إلى تأريخ ألفريد بتلر فيما كتبه عن فتح مصر، وهو في الأصل من وحي هذا الرجل - «يوحنا النقوسي» - الذي يحمل في قلبه كل الغل للمسلمين.. وقد آن الأوان كي نذكر النصارى بفضل الإسلام عليهم وسرد الحقائق الصادقة المفصلة عمَّا حدث، وسوف ننشر الكثير من التفاصيل تباعا حتى لا ينسى هؤلاء فضل الإسلام عليهم.

التعليق الأول: جزاك الله خيرا وبارك لك في مجهودك.. أرجو أن يتضمن طرحك للموضوع مقالا عن جرائم النصارى ضد المسلمين عبر التاريخ كجرائمهم في أوروبا والأندلس على وجه الخصوص.. حتى يعرفوا الفرق بيننا وبينهم.. أكرر شكري.

التعليق الثاني: والله لقد رفعنا عنهم الظلم وحفظنا دمهم وعرضهم وما يملكون وعلمناهم الاحتشام في الزي بعد أن كان الروم يفرضون عليهم ثيابا مهينة تكشف عورتهم، لكنهم يكذبون لأنهم يكرهون دين الإسلام ولا يريدون الاعتراف بفضله.. ويشهد البابا بنيامين، الذي فر من قهر الروم ولم يعد إلى الإسكندرية إلا حين دخلها عمرو بن العاص وأمنه.. هذا هو الإسلام.

التعليق الثالث: نحن في وقتنا هذا بحاجة إلى مثل هذه الموضوعات القيِّمة التي تكشف كذب الكاذبين وتفضح هؤلاء الذين اختاروا الأمريكان حلفاء لهم.. زادك الله من علمه.

التعليق الرابع: «يوحنا النقوسي» كان ظالما كارها للإسلام، وهذا مبرر شهادته المضللة للتاريخ.

obeikandl.com

«٢»

كانت التفاصيل كلها تختلف.. صورة سينمائية لفيلم من زمن السبعينات حين يشاء مخرجها أن ينقل لك شكل الأحياء الشعبية في مصر كما تتوقعها وكما صار عرفا عليه أن يفعل.. حارة ضيقة وأرض زاخرة بالمنحنيات.. زحام لا مبرر له وثمة مقهى ومحل للحلاقة وصبي يعدو بملابس مكواة.. بائع على كل ناصية صنعته الصياح.. بضاعته الرخيصة في حوزته وصوته المشروخ بين شفتيه.. ما بين صيحات من أسفل تنادي على الرزق وصيحات من أعلى تقايض ما يملكون من خيرات.. الأصوات المتداخلة لا تتوقف وكأنه مصنع للحرب وحين يبدو وكأن الصخب يجعل الأضواء أكثر سطوعا..

- «اللمووووووووون».

نار الشمس تلفح كل الألوان في منتصف النهار.. تصبغ كل شيء بالأصفر.. تنويعات على نفس اللون المائع.. فقط يعطيك الداكنة كي تبدو لوحة الظل بدرجة أجمل.. هي كذلك لولا أيدي البشر العابثة كالطفل.. شوهت كل شيء..

هكذا.. فكر «أحمد»..

أشار له «وسيم» فتبعه وعيناه تلتهمان كل التفاصيل.. فكَّر في أن بعض المعاناة قد تنتظره في تلك الأيام وهو يتقدم صعودا وهبوطا كالجمل، لكنه طرد الفكرة سريعا وقرر ألا ينهزم؛ فما زالت الأجواء ساحرة على الرغم

من الوحل الذي لطخ كل شيء.. سار خلف زميله حتى باب منزله العتيق وقد لاحظ أن رفيقه لم يكن كثير الكلام حتى بين قومه.. فقط تحية واحدة أو اثنتان كبخار الماء ثم يواصل الطريق مطرقا متوجسا كمن يصبح فتاة ماجنة لداره في وضح النهار.. شعر بنظرات المحدقين فيه كذلك تثقله.. تتحسسه عيونهم النهمة في فضول جشع فيتظاهر بالغباء ولا يبادلهم نظرات أخرى.. يستطيع أن يفهم كيف يبدو مظهره الغربي بالنسبة لهؤلاء القابعين تحت الأقدام..

ثوانٍ مرت كالأيام قبل أن يبلغا باب المنزل.. يصعدان الدرج بلا كلام ثم يتعالى أزيز الباب الخشبي ليفتح له المسرح:

- «تفضل».

لم تكن نبرة «وسيم» توحي بشيء من ترحاب، لكن «أحمد» أصر أن يقبل للنهاية.. تقدم إلى الشقة الضيقة وعيناه تتأملان التفاصيل دون أن تهتز ملامحه بأي انطباع.. كانت كئيبة كرسمة بالقلم الرصاص وقد انتابه اليقين بأن شيئا في هذا المكان لن يروق له.. لم يكن الأمر كما تصوره الأفلام عن الشخص المترف عندما تبهره أصالة أحياء الفقراء.. كان كل شيء في المكان يوحي بالإهمال والبؤس، وقد صار مستحيلا أن ترى جمالا في شيء من تفاصيله ولو رأيته بألف عين.. لكنه لم يكن ينتظر أكثر..

- «هل راق لك المنزل؟».

كانت نبرة «وسيم» غارقة في السخرية، لكن «أحمد» لم يكترث.. تقدم أكثر وقال دون أن يمنح زميله ملامح وجهه:

- «قطعا».

ثم تقدم تاركا حقيبته السوداء على الأرض.. تأمل في الأيقونات والصور التي أخفت لون الجدران باهتمام، وكذا التماثيل الموضوعة على كل ما هو

خشبي.. كلها نظيفة ومعتنَى بها ربما من دون ما تبقى من أجزاء الشقة.. لم يكن هناك ما يلفت الأنظار سوى ذاك الشيء..

لاحظ «وسيم» نظرات ضيفه فازداد وجهه عبوسا.. اقترب منه أكثر وحدَّق فيه بنظرات رافضة، لكن الأخير لم يجبه بشيء..

- «زحام شديد.. ما كل هذا يا وسيم؟».

عقد «وسيم» حاجبيه؛ إذ لم يتوقع من الشاب أن يتكلم بهذا القدر من الأريحية.. حدق فيه للحظة قبل أن ينتابه تحفز قلق.. قال:

- «عَمَّ تتحدث؟».

استدار إليه:

- «أيقونات وتماثيل في كل ركن.. تبدو ككهنة المعابد».

اكفهر وجه «وسيم» غير مصدق.. رد غاضبا:

- «أحمد.. هذه معتقداتي وقد قررت أن تكون ضيفي؛ لذا صار لزاما عليك أن تحترمها ما دمت في هذا البيت بصرف النظر عما تعتقد.. هل تفهمني؟».

رد عليه «أحمد» بنظرة تتأرجح بين الدهشة والسخرية.. كتم شفتيه عن كلمات قرر ألا يتداولها الآن.. اكتفى بهز رأسه أن نعم، ثم صمت بلا انفعال..

- «يمكنك أن تستريح بتلك الغرفة».

ثم أشار إليه فتحرك «أحمد» بلا تعليق.. تناول حقيبته ثم توجه إلى الغرفة مكتفيا بهزة رأس أن شكرا لك.. هز «وسيم» رأسه غير راضٍ وانصرف ليغلق باب شقته حين التقاه شخص ما فانتظر..

بدت وكأنها محادثة قصيرة على عتبة المنزل المنقرض.. هكذا سمع «أحمد» فاتجه إلى باب غرفته ليختلس نظرة من يراقب دورة حياة هذا الكائن

المجهول.. رأى «وسيم» واقفا أمام مدخل شقته يتحدث في مودَّة عجيبة بدلت ملامحه فبدا كشخص آخر لا يعرفه.. ثوانٍ ثم عاد حاملا أطباق الطعام التي أدرك أنها قد أتت من تلك الزيارة.. يلمح من بين ثنيات الباب صورة فاتنة لكنه لم يتيقن.. انتابه الشعور بأن المسافة تخدعه قبل أن يختفي المشهد.. يترك «وسيم» حمله على المنضدة ثم يهتف في جفاء:

- «الطعام يا أحمد».

قالها مرة ولم يكررها.. تجاهل «أحمد» النداء وشرع في تغيير ملابسه وفي رأسه أن الطعام أيضا سينتمي إلى هذا المكان..

فكر فيه لوهلة ثم ابتسم مستخفا وهو يفرغ حقيبته.. شاب وحيد غريب الأطوار يعيش خلف أسوار تحميه وتعزله عن كل شيء في الحياة..

ذلك الشاب - «وسيم» - هو أيضا شاب.. ينتمي إلى هذا المكان..

* * *

- «أستاذ جورج».

جاءه النداء الصاخب من خلفه فتوقف قبل أن يبلغ مكتبه..

لم يكن «جورج» رجلا يحب عمله، وهو الأمر الذي لم ينكره يوما.. يكرهه لكنه يردد في إلحاح أن التفاني فيه أمر آخر.. لقد خُلق الإنسان لعمل ما يتفق مع صفاته، فإن اضطرته الظروف إلى عمل غيره صار ككل الناس لا يميزه شيء.. ما فرصة أن توفَّق إلى هذا العمل الذي يتكامل مع عقلك وطاقاتك في بلد كهذا؟ وإن وصلت إليه فمن سيتركك كي تصير ما تريد؟ إذًا وجب عليك أن ترضى، فليس هناك ما هو أفضل.. يردد: الجميع هكذا.. لن أغير الكون..

obeikandl.com

كان وقت الصباح هو الأسوأ.. يسير إلى مكتبه وقد أرهقه انقباض قلبه،

ومقلتاه الغائرتان تتفقدان المكان يمنة ويسرة.. صار الجسد النحيف على بُعد خطوات من باب مكتبه حين أوقفه النداء.. لم تكن المرة الأولى.. يمسح رأسه الأصلع ثم يستدير بلا حماس.. لم تكن نظراته ودودا، لكنه لم يتكلم..

- «المدير يريدك في مكتبه».

يطلق «جورج» تنهيدة حارة أطفأت شموع تخمينه، لكنه لم يشأ أن يبدو مهزوما.. يستدير مغادرا وكأن شيئا لم يكن ولا يقدم ردا..

بالفعل لم يحب الأستاذ «جورج» عمله قط ولم يجد فيه يوما شيئا يمتعه.. كذلك الزملاء في المكتب لا تربطه بهم صلة أقوى من كلمات المجاملة.. لكنه كذلك كان مخلصا متفانيا ولم يكن من اليسير أن تحاربه بأخطائه.. متفان حتى الثمالة ربما لأنه على يقين من أن أخطاءه لن تُغتفر.. شعور كريه لم تخففه السنوات الطوال من العمل داخل الدائرة ذاتها.. أن تعلو أكثر فتصير أقوى ويصير الكثيرون تحت يدك.. لكنه - للأسف - لن يصير الأعلى في هذا المكان على عمره الكبير..

يسير عبر الممر الصغير ليصل إلى مكتب مديره وقد تظاهر بالتماسك.. يلمح ساعي مكتبه البدين قادما بقدح ما فيشير إليه.. «صموئيل» - الساعي - هو الأقرب إليه في هذا المكان، وهو من دينه وابن كنيسته على فارق ما بينهما في سلم الحياة.. رآه الشاب فاستجاب له مهرولا قدر استطاعته قبل أن يصل إلى باب المكتب وقد أدرك ما جاء له..

- «عم «جورج».

«كيف حالك يا «صموئيل؟».

ثم مال عليه وأردف:

obeikandl.com

- «ماذا يريد هذا الوغد؟».

تنهد الشاب ثم أدار رأسه من حوله ومال عليه.. همس:

- «تعرفه.. سيحدثك عن التأخير».

- «هي نصف ساعة لا أكثر.. ماذا يريد هذا المجنون؟».

هز «صموئيل» رأسه آسفا:

- «شخص متعصب.. ألا ترى لحيته؟ لا يكف عن تصيد الأخطاء منذ جاء إلى الإدارة منذ شهر أو يزيد.. يكرهك بشكل خاص ويتربص بي أيضا بلا أسباب.. لا أجد تفسيرا أوضح».

رد «جورج» بانفعال لم يظهره:

- «ولن تجد.. هم جميعا سواء فيما يفعلون».

ثم أشار له بالانصراف وعدَّل من ملامحه ثم مد يده طارقا الباب.. أراد أن يفرط عقد تلك اللحظات السخيفة سريعا فاستجاب فور أن أجابه الصوت من خلف الباب:

- «تفضل».

انساب جسد «جورج» من فرج الباب وتقدم بلا حماس ليقابل مديره الجاثي فوق الأوراق.. الشعور ذاته كلما رأى الترف المنشور في كل أرجاء المكتب ثم الأوراق القليلة التي لا يستغرق إنجازها دقائق ثم الوجه السمج وسط كل هذا اللاشيء يرفع رأسه إليه كي يستمتع بالقوة:

- «أستاذ جورج؟».

كان يكرهه.. لم يكن مستعدا للهزيمة.. قال بصوت مبحوح:

- «أفندم».

دار الرجل بكرسيه في تأنٍّ يمنة ويسرة.. انساب كلامه بلا مشاعر وعيناه تتأملان الرجل العجوز دون أن تقول شيئا:

- «أستاذ جورج.. أعلم يقينا أنك من أقدم الموظفين في الهيئة.. دائما أحترم المخضرمين من أمثالك، بل ولا أجد غضاضة في أن أتعلم منهم.. هي خبرة

على الجميع أن يقدرها وأن يقدر أصحابها».

لم يُبدِ «جورج» جزءا من الحوار.. مقدمة يمكنك ألا تقرأها وأن تتخطاها إلى الفصل الأول.. الفصل الكريه..

- «لكن الأقدمية مسئولية كبرى.. أنت قدوة يا أستاذ جورج.. الشباب هنا لا يتعلمون العمل في المدارس لكنهم يتخذون من أفعالكم خطوطا عريضة لما عليهم أن يقوموا به».

- «وهل صدر منى ما يخالف ذلك؟».

هز المدير رأسه وقال:

- «جميعنا لا ينكر إخلاصك في العمل.. لكن تأخرك المتكرر أمر لا أحب أن يتعلمه الموظفون هنا».

حاول «جورج» أن يبدو هادئا.. لن يترك المزيد من الأخطاء للصياد الماهر وسيصمت مجددا.. لكن الصمت الممزوج بنظرات الأستاذ الغاضب من تلميذه الرقيع جعله يرتجف.. رجفة غاضبة مكتومة انسابت في حلقه.. قال:

- «هو أمر لا أكرره كثيرا.. فقط في ظروف قهرية».

ثم قال وقد سالت من شفتيه كلمات لم يستطع أن يكتمها:

- «وهو أمر لا يقتصر عليَّ.. الأستاذ مصطفى والأستاذ حسن يتأخران بصورة مستمرة.. بيد أنهما لم يأتيا مكتبك قط».

حدق فيه الرجل وقال في لهجة محتدة:

- «ماذا تقصد؟».

obeikandi.com

- «لا شيء.. مجرد ملحوظة».

احتد صوت الرجل أكثر وقال بين أنفاسه المتلاحقة:

- «بل تقصد.. أحذرك يا جورج.. لا تستخدم تلك الفكرة في ابتزازي.. أنا رجل شريف أبحث عن مصلحة الهيئة.. لا تخفِ تقصيرك خلف ستائر لن تشفع لك ولا تعزف على تلك النغمة مجددا.. رأسي سليم بلا ندوب ولن أنصاع أبدا لهذا الأسلوب».

أخذ «جورج» نفسا عميقا:

- «لا ألجأ للأساليب.. فقط أوضح أمرا قد خفي عليك».

لكن نظراته قالت الكثير.. النظرات ذاتها التي يعرفها رئيسه.. من ثم صار عليه أن يقطع رأس الأمر سريعا فلا تصير الأمور إلى طرف الشلال.. خفت صوته لكنه بقي صارما كما كان بينما يبعد بصره عن الواقف أمامه:

- «احتراما لسنك وعمرك الذي أفنيت فقد قررت ألا أتخذ إجراء ما.. لكنها حتما ستكون مرتي الأخيرة».

بقيت ملامح «جورج» جامدة بلا معنى.. خرجت الكلمات باردة من شفتيه لكنها أوفت بالغرض:

- «أشكرك».

ثم استدار دون أن ينتظر إذنا بذلك.. على الباب كان «صموئيل» وقد ارتشحت ملامحه بقلق مهووس، لكن «جورج» لم يشرح شيئا وقرر أن يسير كظيما كعادته..

لم يمنح الفتى المذعور سوى إشارة ساخطة بلا معنى وشفتاه ترددان ما لم يميزه أحد..

تنتابه الهواجس.. وقدر من الكراهية لا يعرف أين يلقي به..

* * *

obeikandi.com

- «حسين».. على عتبة الحي الفقير..

يغادر مدخل منزله الضيق ليبرز على أعتاب الشارع.. يحك لحيته الحليقة ويدير وجهه الممتلئ إلى الحياة بنظرات من لا يرى شيئا.. يلقي نظرة قصيرة على الزحام، لكنه لا يهتم بتفاصيله المقيتة.. ثم بلا تحية تقريبا ينصرف إلى صدر الطريق بخطوات ثابتة تلطم الأرض..

إلى المسجد..

يلمح من بين الأجساد ظل «مصطفى» الشاب النحيل وهو يغلق باب مكتبته فتنبثق ملامحه الصلبة عن ابتسامة راضية بقيت طويلا.. كان «حسين» يحب تفاصيل هذا الشاب - «مصطفى» - على انغلاقه ويحترم فيه التزام أخلاقه وطريقته.. ربما بقدر ما يكره في ذاته ضيق معيشته الذي أحوجه على السكنى بين ضلوع تلك الحارة المظلمة..

والعجيب أن «حسين» لم يكن أبدا ضيفا على تلك الأرض.. كان عتيقا في حضن تلك البيوت، حتى إن أحدا من سكانها لم يعرف متى جاء وأهله إليها.. ابن أكبر لهذا الحي، لكنه لم يحبه يوما ولم يعتقد أن عليه أن يفعل.. تنتابه لحظات يتمنى فيها أن تنطبق جدرانه على الجميع فتسحقهم.. لا يبالي إن قُدر له أن يهلك بينهم أو لم يقدَّر.. لكن شيئا من ملامح «مصطفى» وقليلين من أمثاله يريح صدره ويجعله يتدسر بالأمل.. وكأن عقله ينهى الجدران المتحفزة أن تسحق العظام وتدعوها لتتمهل فربما تتبدل الأشياء..

متعصب؟ متشدد؟ يسهل أن يقولوا هذا عنه، لكنه لم يفهم لماذا صار عليهم أن يظنوه كذلك بقانون هذا الزمان.. يصمت.. ينزوي.. ثم - مع الأيام - لا يكترث لتلك النظرة المبتورة.. ولماذا يفعل؟ لم يكن ذلك سوى انقلاب في موازين العقل كما انقلب كل شيء.. قوة وحيدة متسلطة عميلة

هي من يصنع الحدود.. قوة تقول إن هذا عظيم وهذا حقير وهذا معتدل وهذا متطرف.. يحمل البوق الوحيد ويخاطب الناس من كل الزوايا حتى تصير الأكاذيب حقيقة ويصير الدهماء أبواقا جديدة.. هو مجرد مسلم آخر.. ملتزم.. يغار على دينه ولا يملك من أمره شيئا في قلب حي يسكن الأقباط سواده الأعظم.. لن يدافع عن نفسه فليس متهما، بل على الآخرين - حقا - أن يدافعوا عن أنفسهم فيما كذبوا..

يتذكر..

حكى له والده كثيرا عن هذا الحي قبل أن يموت.. لم يكن الحي يوما كما صار الآن وقد كان والده يصفه دائما بالزحف.. يأتون من كل صوب.. يستأجرون المحال ويشترون البيوت شيئا فشيئا حتى صاروا السواد الأعظم من سكان الحي..

- «من أين يجلبون المال لهذا الزحف؟»..

يجيب الأب دائما في صرامة:

- «إنها الكنيسة يا ولدي.. أموال لا حدود لها.. يدعمونهم من أجل الانتشار والامتلاك والسيطرة.. تماما كم فعل اليهود في فلسطين».

هكذا انزوى والده أكثر مع استمرار الانتشار.. فارقه الكثير من جيرانه المقربين لتأتيه وجوه أخرى لا يعرفها ولا يفهمها، من ثَمَّ فضل أن يبتعد.. انزوى الرجل وولده بعيدا عن صحبة السكان الجدد ثم فارق الرجل الحياة وترك الابن في غربته تلك داخل الحي الفقير..

لم يحبه - الحي - قط..

ومنذ أن وُلدت تلك اللحظة لا تتركه الأفكار.. يفكر في الرحيل فتمنعه الحاجة.. ثم تتدفق في عقله دماء العند فيرفض أن يكون جزءا من هذا الزحف.. دائما ما يمني النفس بيوم يحظى فيه بالثراء ويستعيد الحي

ببيوته ومتاجره.. كثيرا ما يصل الأمر إلى حد التخطيط ورسم التفاصيل.. يفكر كيف يدير هذا الزحف المضاد ويخطط في أوراقه: هذا شخص سيستأجره.. وهذا شخص سيستقطبه.. وهذا آخر يعلم بحاجته ولسوف يبدأ به.. خطط كثيرة تؤرقه كل ليلة قبل أن يعييه الفكر فينام كالحجر بلا حراك..

«حسين» شخص لا يعرف له في الدنيا سوى حب المسجد.. يقضي فيه أوقاتا تفوق أوقات العبادة.. يستمع للمشايخ تارة ويتعبد تارة ويتأمل تارة.. كان المسجد هو الملجأ والملاذ.. فما إن يخرج من بابه الخشبي العتيق حتى تتلقفه الدنيا بكل ما هو مؤلم قاتم.. لم يكن يرى خارج هذا الباب شيئا يغريه بالبقاء.. لكنها الحياة..

كانت سنته الأخيرة بالجامعة.. تعهد لنفسه بعدها بأنه هناك الكثير من الأمل..

يفيق مجددا على صوت الإقامة.. يلتقط أنفاسا عميقة تعينه على العودة للحياة من جديد.. ينزع نعليه ثم يحك لحيته ويتقدم إلى الداخل وعلى شفتيه ابتسامة راضية..

يحمد الله الذي أبقى على عقله ببعض الأمل..

* * *

ينساب الضوء القادم من شق الباب بين جفنيه فيذيب ما تبقى من أحلامه ويفتحهما عنوة.. «أحمد».. يمسح وجهه ببطن كفيه كي يبعث في عقله بعض الدماء، ثم يحك جسده الذي نهشه البعوض متأففا.. يسمع صوت الحياة في الصالة فيدرك أنه - «وسيم» - هناك يفتعل شيئا.. يمد يده إلى علبة سجائره ويدسها في جيب بنطاله ثم يقرر أن ينهض في لقطة بطيئة التتابع..

يهتز الفراش بحركته.. صوت خرير الماء القادم من لا مكان..

يفتح الباب فيغشى الضوء الساطع عينيه.. في نهاية الصالة يرى ظل «وسيم» المنكب على شيء ما.. يسمع الأخير الصوت القادم من خلفه فيجفل وكأنما التقفته الشياطين ثم يستدير إلى الوراء.. وينبعث صوته غير راض:

- «أحمد؟ لماذا استيقظت؟».

يتأمله «أحمد» في دهشة.. يهز كتفيه بلا إجابة ويقول:

- «قاطعتك؟».

هز «وسيم» رأسه في عصبية أن لا.. بدا لأحمد وكأنه يصلي، لكنه لم يعقِّب واتخذ لنفسه مقعدا بعيدا قبل أن تحوم عيناه في كل اتجاه.. مرة أو مرتين ثم قال:

- «لا تلفاز؟».

- «لا».

قال «وسيم» في برود فتناول «أحمد» علبة سجائره من جيب بنطاله ووضع واحدة في فمه:

- «لا أرى وسيلة لتمضية الوقت هنا.. هل تملك أوراقا للعب.. شطرنج.. أشياء من هذا القبيل؟».

obeikandl.com

- «لا».

مط «أحمد» شفتيه بلا رضا.. ثم أخرج منديلا صنع منه حاملة لرماد سجائره كيفما اتفق.. تأمل «وسيم» الذي لم يبدُ متحمسا لاستكمال ما كان يفعل:

- «يمكنك أن تكمل صلاتك.. أرى أنني قد قاطعتك».

- «لم أكن أفعل».

ثم تناول «وسيم» كتابا واتخذ لنفسه جانبا أقصى.. كتاب دراسي يبدو عليه القدم.. رفع رأسه لـ«أحمد» ثم فكر للحظة وهو يتأمل الدخان المتصاعد قبل أن يحسم أمرا.. قال:

- «رجاء».

رفع «أحمد» رأسه مستفهما..

- «لا أحب التدخين في منزلي.. أرجو أن تتوقف».

قلَّب «أحمد» وجهه في ضجر مكتوم.. تأمل «وسيم» بنظرة ذات مغزى ثم اعتدل في حزم وقرر أن يكون صريحا:

- «وسيم.. لن أكرر ما قلت عن عدم ارتياحك لوجودي مجددا.. لكنك وحيد بين جدران هذا البيت.. يبدو منطقيا في تلك الظروف أن تحاول معرفتي أكثر.. نتحدث.. نناقش أمور الحياة.. في العمر نفسه وندرس الشيء ذاته.. هذا ينبغي أن يزيح عنك وحدتك لا أن يزعجك».

- «لا انزعاج!».

رد «وسيم».. كان مرتبكا من رد زميله الذي أرهقه بأحاديثه المباشرة، لكن ارتباكه في حد ذاته كان يحنقه من نفسه أكثر.. قرر أن يتماسك.. كان ساخطا كمن هزمه خصمه في معركة الكلام.. يقول:

- «فقط لا أحب الدخان.. هذا كل شيء».

obeikandl.com

- «لا أتحدث عن الدخان».
- «تعلم أنني لا أعرفك جيدا.. ربما حين أعرفك أكثر.. هذا كل شيء».
تأمله «أحمد» ولم يجب.. لم يكن مقتنعا لكنه أطفأ سيجارته..
- «معي حاسوب نقال.. يمكنني أن أقضي بعض الوقت بغرفتي.. سأترك لك الصالة كي تستذكر في هدوء.. ربما أنام مجددا بعدها».
قالها فلم يعلق «وسيم».. انتظر حتى اختفى ظل «أحمد» ثم ترك الكتاب في يده على الصفحة نفسها..
استدار مجددا إلى ركن صالته وتلفَّت حوله حتى تأكد أن «أحمد» قد بلغ غرفته ثم عاود الصلاة.. كان «أحمد» هناك يُخرج محتويات حقيبته.. تأمل «وسيم» قبل أن يغلق باب غرفته.. فقط ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتيه وتجاهل ما رأى..
حمل الشاب حاسوبه واتخذ لنفسه ركنا في الفراش ثم قام بتشغيله.. التقطت عيناه شيئا على شاشته فانتفض.. وضع زوج السماعات على أذنيه متعجلا وشرع في الكلام مع محدثه الذي عثر عليه أخيرا..
يقول في حماس:
- «علاء، أيها اللعين.. أين أنت؟».
كلمات قليلة تصله عبر السماعات ثم يجيب في حماس:
- «أعدك أن تفهم كل شيء.. فقط حين أراك».
يأتيه الرد المقتضب فيقول:
- «لن أضيع المزيد من وقتك.. فقط أخبرني.. متى تصل؟».
تنهيدة بطعم الارتياح ثم نظرة جانبية إلى الباب المقفول على استحياء.. أحلام شتى تتناثر حول وعيه، لكنها - جميعا - بطعمه المفضل بعد تلك المحادثة القصيرة.. يلقي كلمة وداع عابرة ثم يغلق النافذة عن محدثه

وشفتيه تنطقان بكلمات راضية لم تصل بعيدا..
بالخارج يتعالى صوت «وسيم» الغارق في الرضوخ ببعض التمتمات..

* * *

لم يكن «مصطفى» يحب تلك الزيارة كثيرا.. يعلم ضمنيا ما سوف يُقال كلما جاء جاره «حسين» ليزوره في مكتبته، لكنه لم يكن يقوى على إظهار امتعاض.. لم يكن الأخير يفعل شيئا محددا يستحق الامتعاض على كل حال، لكن «مصطفى» لم يكن يحب كلامه وجلسته كثيرا..
خلف المنضدة الخشبية بمكتبته.. يغلق كتابه العتيق ليستقبل «حسين» الذي بدا كمن يمر صدفة على باب الحارة.. زيارة اعتادها «مصطفى» كثيرا، لكنه لم يكن في حاجة لمزيد من الضغط.. كانت دراسته وحمول حياته تكفيه وتنضح..
- «السلام عليكم».
تتعالى تحيته بينما ينساب جسده القوي من بين ألسنة الشمس وجزئيات الحياة المرسومة على خيوطها فيبدو كجزء من الخيال.. يرفع «مصطفى» رأسه في بطء وعقله يدور كي يعد عبارات الحوار المنتظر..
- «وعليك السلام ورحمة الله وبركاته».
يرد «مصطفى» سلامه ويرسم ابتسامة معتادة.. يعلم في قرارة نفسه أن «حسين» يميل إليه.. يتعاطف مع معطيات حياته أو ربما يرى شيئا مشتركا يجمعهما.. لكن «مصطفى» لم يكن ذلك الشخص الذي ينخرط في أوساط الناس.. دمث الخلق نعم.. مهذب ودود.. لكنه يفضل أن ينهي العلاقة عند هذا الحد.. ولم يكن «حسين» استثناءً بالنسبة له.. يجده - «مصطفى»

- شخصا صالحا لا شك، لكنه يحب أن يكتفي بالسلام وربما ببعض كلمات المودة ثم يتركه للحياة تتلقفه بلا علاقات شخصية..

كما أن «حسين» كان من النوع اللحوح..

يتخذ مقعدا لنفسه بينما يوشك «مصطفى» على الانصراف.. تظاهر بالرضا وجلس وعلى وجهه الابتسامة ذاتها.. ينادي فتى المقهى المقابل، لكن «حسين» يشكره فلا يقطع كلمته.. يقول:

- «أشكرك.. هذا واجبي يا أخي».

ثم يميل عليه ويقول:

- «وكيف حال دراستك؟ هل أوشكت على الامتحانات؟».

- «مطلع الشهر المقبل.. وأنتظر منك الكثير من الدعاء يا حسين».

- «حتما سأفعل.. موفَّق إن شاء الله يا مصطفى.. فتى صالح أنت».

ثم عاود السؤال الودود.. الكريه طوال الوقت:

- «ينقصك شيء؟ لا تخجل من شقيق أكبر».

- «أشكرك.. إن احتجت شيئا فلن أفكر بسواك».

يبتسم «حسين» راضيا ثم يحك لحيته:

- «هل أخبرك أحد؟».

- «بماذا؟».

- «الشيخ سيد واصل.. سيلقي خطبة بمسجدنا غدا.. بعد صلاة العشاء».

صمت «مصطفى» للحظة وقد قيَّده الخجل من السؤال وكذا الخوف من مزيد من خنادق الحديث إذا سأل.. لم يكن «حسين» غبيا فأجاب بلا سؤال:

- «الشيخ سيد من كبار الدعاة.. عالم كبير.. وكشأن العلماء الكبار لا تسمعه سوى خلسة في بعض المساجد أو في كتب وتسجيلات تحظرها الحكومة».

obeikandl.com

توتر «مصطفى»، لكنه لم يُرِد أن يظهر شيئا لضيفه.. سأله بلا حماس:
- «في مسجدنا هذا؟».
- «تمزح؟ لا.. في المسجد الكبير بالحي المجاور.. لقد دعوتك كثيرا، لكنك تأبى أن تأتيه معنا.. لماذا يا مصطفى؟ يعجبني التزامك وتدينك، فلماذا - يا أخي - لا تعرف أكثر وتتفقه أكثر؟ فإن لم يجد الكلام طريقا لقلبك فهذا شأنك.. لكن لا تبخل على نفسك بالعلم يا أخي».
يدرك «مصطفى» أن الحديث قد صار إلى الشيء ذاته.. رأى «حسين» ملامح وجه الفتى التي لم يُجِد إخفاءها هذه المرة، لكنه كان مصرّا..
- «أنت لا تفهم يا مصطفى.. نحن في منعطف خطير.. من يصدق أننا ببلد مسلم؟! انظر حولك.. نحن في حي يملؤه النصارى.. هناك - في هذا الشارع فقط - كنيستان بينما لا يوجد سوى مسجد واحد.. هل يرضيك هذا؟ هو زحف مرعب.. إنهم يتكاتفون.. أنت لا تعرف شيئا عمَّا يجري في كنائسهم.. تنظيم سياسي وعسكري متكامل يحركهم جميعا.. يتحركون مأمورين لتنفيذ المخطط.. شأنهم شأن اليهود حين كانوا بيننا.. بينما نحن في شتات.. منا مسلم يبرأ منه الإسلام ومنا مسلم ضعيف أو متخاذل أو جبان أو جاهل مغيب.. ننزوي ونتفرق بينما يتحركون بمنتهى الخبث والتنظيم».
قال «مصطفى» بصوت مبحوح:
- «لا أفهم.. هل تريد أن نرفع عليهم السلاح؟».
- «لم أقل ذلك يا مصطفى.. فقط أقول نتحد.. نوحد الكلمة والموقف.. نعود إلى قواعد الدين ونعرفه حتى لا يلعب العابثون بجهلنا.. اليوم ترى التخاذل في عيني كل مسلم.. الكل ذائب في الفساد.. لا يتخيل حياته بلا سينما ولا تلفاز ولا اختلاط ولا انفلات.. يمتلك الفكر الغربي الدسيس عقله

حتى صار لا يعرف شيئا عن الحق من دينه.. ويتهم الصحيح من سيرة الرسول والسلف الصالح بالتشدد.. أي تطاول؟ وأي حمق؟».

يبتلع «مصطفى» ريقه بصعوبة.. لا ينكر أن كلام «حسين» يحرك شيئا من الغيرة في صدره.. يكمل الفتى الذي علا صوته:

- «ترى هذا؟».

ثم يخرج من جيب بنطاله ورقة مطوية.. يتأملها «مصطفى» ويد «حسين» تفتحها في انفعال:

- «هل تعرفها؟».

صورة مشوشة لا يميزها في وسط مقال كبير.. يكمل «حسين» وقد عرف أنه لا يملك الجواب:

- «نورما ديفيد».. فتاة في عمر الزهور.. في العشرين من العمر.. أشهرت إسلامها وصارت «فاطمة».. تزوجت شابا مسلما وفرَّت معه خوفا من عقاب الكنيسة.. لكنهم عثروا عليها.. قتلوا زوجها واختطفوها حيث لا نعرف.. الحكومة حوَّلت مقتل زوجها لحادث سير وأعلنت أن الفتاة قد عادت راضية إلى أهلها وأنها لم تشهر إسلامها.. قالوا إنه مجرد خلاف مع أسرتها.. هل يروقك هذا؟ هذه الفتاة الغريرة قد تكون معذبة أو مقتولة وحكومة بلدك المسلمة تتكتم الأمر تحت ضغط الكنيسة.. هل يروقك هذا يا «مصطفى؟».

- «قطعا لا».

قالها «مصطفى» وعضلات جسده ترتعش.. لم يكن يحب الانغماس في هذا.. يكفيه ما تحمله حياته من التفاصيل، لكنها اللحظة التي تفكر فيها مجبرا.. أنا أم نحن.. يصمت فيقرر «حسين» أن يترك عقله للتفكير.. ربت على كتفه وصار صوته ليّنا ثم ناوله الورقة وابتسم له:

obeikandl.com

- «أنا واثق من نقاء ضميرك في وقت ماتت فيه الضمائر يا أخي.. وأحب أن أراك في المسجد الكبير غدا».

ثم تحرك منصرفا وترك أول نفَس من هواء لصدر «مصطفى» ليلتقطه كلص فرَّ بأعجوبة.. صمت للحظة ثم نظر للورقة القابعة في يده متحيرا.. وضعها في جيب قميصه ثم عاود الجلوس..

وفضَّل ألا يفكر..

* * *

نهار الحارة المزدحم..

في وقت ينقسم فيه البشر الجاثم في أحضانها إلى نصفين: قوم يتحركون في كل اتجاه ما بين قادم ومنصرف، وقوم مستقَرّ يذبحون الزمن على طاولات المقهى حيث الحديث المباح.. حديث في كل شيء.. يتعالى صوت الزجاج الصارخ من طرقات المعدن وتجري المياه الساخنة في أمواج كي تلتهم حمولتها من السكر في شراهة.. وجوه لا تتغير تقريبا.. ولا تتحرك أيضا.. هي الألفة لا الشغف.. والفراغ لا حب اللحظة.. تسير الوجوه حول الجالسين فيكون السلام تارة ونظرات تحمل الكثير تارة.. كان وجه «وليم» العجوز أحد تلك الوجوه دائما وقد صار في المقهى ككبير.. «صاحب مكان» كما يقولون.. هو ذلك الشخص الشمسي الذي تجتمع حول مائدته عقول الناس.. لكنه اليوم لم يكن رفيق أحد.. فقط يستند على عصاه ويرتشف القهوة ثم يتأمل اللاشيء بلا اهتمام.. يفكر قبل أن يدرك أن التفكير لم يعد يجدي كثيرا..

ذلك حين رأى «صادق» - ابنه - يهرول حاملا حفنة من الكتب كي يلحق

obeikandl.com

بموعد محاضرة ما.. يتلقى سلامه فيقرر ألا ينتظر.. ترتفع عقيرته:
- «صادق.. تعالَ».
يُقبل الشاب في فتور وقد أوجس خيفة، لكنه لم يُظهر.. فقط يجيب والده بخطوات واسعة ثم برد مقتضب:
- «خيرا يا أبي؟».
يهز «وليم» رأسه ثم يحك عصاه قرب موضع أقدامه.. يقول بصوت جاف:
- «صادق.. ألم أنهك يوما عن أن تتحدث في أمور لا تخصك؟ لا تتعدَّ عظم أبيك ما دام حيا».
يرفع «صادق» حاجبيه.. يتظاهر بالجهل:
- «عمَّ تتحدث يا أبي؟».
- «لا تتلاعب».
ثم يرفع صوته بقدر ما استطاع.. لكن الصوت يبقى وهنًا كما كان:
- «ألم أنهك عن أن تحدث مصطفى عن أمر المتجر؟».
- «قال لك؟».
يمصمص شفتيه غير راض:
- «لا أفهم.. لماذا تصر على مضايقته؟».
يهز «صادق» رأسه وقد أخرجه الحديث من قيد المجاملة.. قرر أن يكون صريحا وألا يتحرج وكان حادا:
- «ولماذا يفعل؟ ولماذا يشتكي؟ هذا حق.. وما دام هذا الرجل يسير بين الناس عابدا متقربا لربه فالأولى له أن يسدي حقوق الناس».
عقد «وليم» حاجبيه وقد زاوله الغضب.. صاح:
- «ماذا أصابك يا صادق؟ مصطفى هو أخوك.. وقد حمَّلني والده الأمانة قبل أن يرحل.. ثم حقا.. ألم يكن مصطفى في يوم من الأيام صديقك

الأقرب؟».

هز «صادق» رأسه مجددا.. لم يكن راضيا:

- «كنا أطفالا حين ذاك.. لم أكن أعي شيئا».

- «تعي؟».

ثم أردف بصوت حشرجه الحنق:

- «لستُ أحمقَ يا بني.. الأمر لا يتعلق بالحقوق.. هي صداقتك بالأرعن المدعو وسيم.. هذا الفتى الأبله.. الفاشل المتشدق بالكنيسة».

- «أبي!».

قالها «صادق» بصوت خرج حادا بلا مقصد:

- «لا يليق أن تتحدث عن شاب فاضل متدين بهذا الشكل.. وإني لأعجز عن الفهم حين تتحدث عن ابن كنيستك بهذه الطريقة بينما تُبقي الكلام المعسول لشخص غريب.. ألا تخجل؟».

حدق فيه والده غاضبا ثم قرر أن ينهض.. أخرج ناره في كلمات خرجت من بين أنفاسه المتقطعة عاجزة واهنة على الرغم من ذلك:

- «هذا الذي تتحدث عنه شاب مجنون.. انظر إلى نفسك.. كنت شابا عاقلا دمث الخلق.. انظر الآن كيف صرت منذ أن صار صديقك.. لقد اصطحبك معه إلى بئر الجنون».

احتقن وجه الشاب، لكنه لم يجد ما يقول.. لم يعرف متى ظهر الظل المحبب مقبلا فوق دراجته، لكن العم «جورج» بجسده العجوز النحيل قد صار بينهما بالفعل.. كان قد أرخى دراجته بجوار المقهى وتحرك إلى حيث يقفان فبدأ كالمنقذ المنتظر:

- «مهلا.. مهلا».

ثم انحنى على «وليم» ليُجلسه في رفق:

obeikandl.com

- «ماذا أصابكما؟ لا يليق أن يرى الناس ما عليكما أن تخفياه بين جدران البيوت».

ثم نظر إلى «صادق» ويده ما زالت تمسك بكف «وليم».. كانت ترتجف من فرط الغضب بينما يرد بصوت مبحوح:

- «كما ترى يا جورج.. ابن وقح».

- «اهدأ يا عم وليم.. صادق ولد صالح يحب والده.. حتما لم يعنِ شيئا مما قال وأغضبك».

وعاود النظر إلى «صادق».. كان «جورج» قد اعتاد الحوار الدائر بين الشاب المخلص متلهب الدماء ووالده الكبير المدفون خلف جدران الزمن الآخر وكان يعرف - من باب الاعتياد - ما ينبغي عمله.. هكذا شكل ملامح وجهه وتظاهر بالخشونة بينما تغمز عينه في خفة للشاب الغاضب كي يهدأ:

- «وأنت يا صادق.. دائما لا تنتقي الكلمات.. هذا والدك.. هل جننت؟».

ثم أشار له بالانصراف فانصاع «صادق» غير مقتنع.. تمتم بكلمات اعتذار غير مفهومة لكن والده لم يرد.. بالأحرى كان محتقنا وقد ضاقت عيناه الرماديتان بطاعة ابنه لغيره.. شيء أدركه «جورج» فقرر أن يتداركه..

- «صادق.. اذهب إلى جامعتك فقد تأخرت.. ولنا حديث في المساء».

أدرك «صادق» أن قارب النجاة قد أُلقي إليه فتلقفه سريعا.. ألقى سلاما سريعا دون أن ينظر، ثم انصرف بخطوات سريعة، في حين تلقف «جورج» مقعدا بجوار العجوز الغاضب:

- «مهلا يا عم وليم.. ماذا أصابك؟».

رد «وليم» بصوت غليظ:

- «بل قل ماذا أصابه يا أبا ماري.. هي تلك الصداقة المشئومة بهذا الفتى

obeikandl.com

الأحمق الذي تراعيه أنت وتعتبره ابنا لك».

- «وسيم؟».

ثم أردف:

- «وسيم ولد صالح.. صدقني.. لكنك لا تفهمه ولا تعرف عنه الكثير».

- «فليكُن ما يكون.. لكن صادق قد صار كالمأفون منذ عرفه.. هذا ما يعنيني.. أفكاره الحمقاء لوثت حياة ابني.. لم أعد أعرفه».

هنا قرر «جورج» أن يصمت لوهلة وألا يقول أكثر.. كان واثقا من أن العجوز حاله بلا علاج وأن الجدال معه خسارة للحياة.. من ثم منحه ابتسامة وربت على كتفه، لكن العجوز كان حانقا بلا نهاية..

- «لا أدري ماذا يريد هذا الفتى! هو شاب بلا أصدقاء تقريبا.. ربما لا أحد سواك يدخل بيته.. واليوم يصطحب شابا غريب الهيئة ليُسكنه في داره.. شخص لا يمكن قطعا أن يكون صديقا له.. لماذا يخطط هذا الفتى الأرعن؟».

كان «جورج» شاردا بينما العجوز يثرثر، لكن الكلمة الأخيرة قد اصطدمت برأسه فانتبه.. شاب يسكن في دار «وسيم»؟

رفع رأسه لـ«وليم».. سأله:

- «تقول: شاب في ضيافته؟».

- «تريد أن تقول إنك لا تعرف؟ أنت أبوه الروحي وقد أعلمك بذلك قطعا.. ربما أنت من طلب منه أن يصطحب هذا الشاب المريب معه إلى مسكنه».

لم يرُق الحديث لـ«جورج»، لكنه لم يكن ينوي الانسياق.. كان «وسيم» بالفعل ابنه الذي لم ينجبه، وقد تعجب أن أخفى هذا الأمر عنه.. في مثل هذا الحي لا تختفي تلك الأمور ولا يسترها أحد..

obeikandl.com

من جديد يعاود العجوز ثرثرته.. لكن «جورج» شرد في أمر آخر هذه المرة.. ينتظره حتى يفرغ من كلامه ثم يهز رأسه كي يسمع المزيد ويواصل الشرود..

لكنه قرر أن ينتظر «وسيم» ليسأله عن كنه هذا الشخص الذي يؤويه..

«وسيم» لا يخفي عنه أمرا..

ثمة شيء لم يحبه - قطعا - في هذا الأمر..

* * *

لم يكن «وسيم» بالمنزل حين أفاق «أحمد» من غيبوبته مجددا..

الأصوات المتشابكة من جديد.. صوت خرير الماء وطرقات لا مصدر لها..

ثم تأتي خيوط الشمس القاطعة من بين أضلاع النافذة فتحرق ملامحه..

يستيقظ الفتى مرغما وقد احترقت عيناه..

يسير مثقلا إلى حوض المياه.. وحين ألقى «أحمد» حفنة من الماء على وجهه أدرك أن المنزل الآن بلا بشر..

رجَّح أن «وسيم» قد غادر للجامعة.. لم يكن عبقريا لكنه يجتهد.. اجتهاد غير مترجم لتقدير دراسي كما عرف من بعض زملاء الجامعة، وهو الأمر الذي يراه في كثيرين ويدعو إلى الإحباط..

قرر أن يحمل حاسوبه إلى الصالة ليقضي بعض الوقت.. لا يجد أنفاسا في الحر المهلك فيبحث عن مصدر للهواء.. ثمة شيء مترهل يشبه المروحة، لكنه لم يكن يفعل الشيء ذاته.. كانت شديدة القِدم ككل شيء في حياة الشاب الوحيد..

obeikandl.com

- «لا أعرف كيف يحتمل».

فكر «أحمد».. ثم قرر أن يبحث عن شيء يفعله بعد أن أنهى توصيل جهازه النقال.. فتَّش في ثلاجته القابعة في الصالة.. تحرك نحو المطبخ وألقى نظرة.. ثم أدرك أن كل هذا بلا جدوى.. لا شيء.. قرر أن يصنع لنفسه كوبا يحوى شيئا من المنبهات..

يشعل الموقد ثم يتركه ليلقي نظرة بين جدران المنزل الذي يؤويه.. شأنه شأن سائح يبدو له كل شيء مختلفا.. وقد كان كذلك..

كان قد رأى التيمات الدينية على الجدران من قبلُ، لكنه حين عاود النظر أدرك مجددا مدى اعتناء زميله بها.. تبدو ناصعة مشرقة، بينما يحيط التراب بكل ما حولها ككابوس جاثم.. لا صور سوى تلك التيمات ولا شيء سواها..

ثم تلك الصور الصغيرة..

إطار واحد يجمع صورتين أو ثلاثا.. صور قديمة متفرقة وحيدة اللون لأشخاص في منتصف العمر أو أقرب للكهولة.. أقرباؤه؟ كلهم من الرجال وبالعمر ذاته تقريبا؟ ما المشكلة بخصوصهم؟

لا مشكلة..

حاول أن يفتح الأدراج الخشبية، لكنها كانت جميعا موصدة.. لا يوصد أحد أدراجه إلا إن كانت تحوي أشياء ثمينة أو أغراضا شخصية لا يريد أن يطلع عليها أحد.. ولأنه لا يبدو من ذوي الأشياء الثمينة فقد بدت نظرة الأشياء الخاصة أقرب.. ولأنه يسكن وحيدا فقد عرف أنه المقصود.. أن «وسيم» لا يثق به مطلقا، قد صار أمرا لا جدال فيه..

قرر «أحمد» أن يترك الركن الغامض إلى غرفة الشاب المنغلق..

يسير عبر الباب المفتوح.. لا شيء سوى غرفة تملؤها الفوضى.. ومزيد من

الرموز الدينية في كل مكان.. كتاب وحيد عرف أنه الإنجيل بجوار فراشه.. ثم خزانة الملابس المتهالكة وثياب متعفنة ملقاة في كل مكان..

حياة بائسة لشخص وحيد..

يتحرك «أحمد» ليأخذ نظرة أكثر تفصيلا ويحاول أن يعرف.. شخص تربَّى في كنف لا يعرف الفقر.. وربما لم يدخل يوما بيتَ مسيحيٍّ في حي شعبي كذلك.. أشياء تبدو له وكأنها سر الأسرار، وربما استدعت أن تُكتب يوما في سطور مذكراته..

تأمل الغرفة محاولا قراءة ما بين السطور.. رأى جهاز حاسوب شخصي في ركن أبعد فرفع حاجبيه في دهشة.. جهاز راقٍ معتنى به، وهو ما لم يبد جزءا من اهتمامات الشاب.. تذكر أشياء لكن الوقت لم يمهله ودق جرس الباب..

تأمل ساعته.. كانت قد تجاوزت الثانية ظهرا.. من المفترض أن يكون «وسيم» في المنزل الآن..

يظن أنه هو.. ينسحب إلى الباب مسرعا قبل أن يقرر زميله أن الوقت قد حان لاستخدام المفتاح.. يعرف طبيعة «وسيم» العدائية فينسحب من الغرفة مسرعا كي لا يسمع من رفيقه أشياء بلا معنى..

الطرق الملح يعاود من جديد.. بدا وكأنه - ربما - شخص آخر.. يدنو من الباب الخشبي ويفتحه في تؤدة..

لم يكن «وسيم».. بالأحرى كانت سيدة مسنة وابنتها..

ابنتها!!

لم يكن مستعدا لشيء كهذا.. متراخيا ينتظر طلة زميله العصبي حين فاجأته طلَّة السيدة وابنتها من خلف الباب.. هكذا طفا على سطح غفلته واستفاق.. في لحظة واحدة.. ثم جاءت لحظته التالية ليرى بوضوح.. وقت

أن أدرك أن تلك الفتاة مبهرة.. لا شيء كهذا على الأرض.. يهتز كيانه بالذهول قبل الانبهار وقد أدرك فجأة أنه لم يرَ كل شيء في الحياة.. يرمقها أكثر فيدرك أنه حقا لم يرَ أي شيء..

لكنه لم يكن وحيدا.. كانت لطلته صدمة مماثلة للزائرتين.. تنظران في حيرة وترتعد الفتاة تحت نظراته اللحوح ثم تطرق بصرها.. كانت جميلة، لكنها كانت أيضا ساذجة.. تحتاج للكثير من الوقت قبل أن تفهم أنها جميلة وأن تلك النظرات هي رحيق الانبهار بها.. أيقظه رد فعلها فأدرك أنه قد أطال النظر.. كذا نظرات أمها غير الراضية..

يتدارك نفسه.. يدير بصره للسيدة العجوز بينما ابنتها تنسحب خلفها في توتر.. ترفع نظراتها في حذر للرجل الغريب وتحاول أن تطمئن..

- «تحت أمرك».

تهز السيدة رأسها بلا فهم:

- «شقة وسيم؟».

- «قطعا».

تقول بصوت قاتم:

- «أين هو؟ وعفوا.. من أنت؟».

كانت لهجتها خالية من الود.. يفهم شأن الأحياء الصغيرة؛ حيث لا تبدو الوجوه الجديدة أمرا مألوفا.. قطعا يعرفون كل شيء عن «وسيم».. يعرفون ألا أحد بهذه الهيئة قد يمت له بصلة..

- «في الجامعة.. أنا صديق دراسة.. أقيم معه حتى أوفر سكنا خاصا لي».

تتبادل الأم النظرات مع ابنتها المذعورة.. تعرفان «وسيم» بلا شك.. لهذا تبدو القصة عجيبة وغير مقنعة..

قررت الفتاة أن تتأمله بلا خوف هذه المرة.. كانت غارقة في جهل ساذج..

obeikandl.com

حاول «أحمد» ألا يلقي أنظارا عليها كي لا تلحظه السيدة العجوز ثانية، لكن نظرات الحيرة في عينيها كانت ساحرة..

- «حسنا يا ولدي».

قالتها السيدة وقررت أن تلين.. وأن تصدق.. رفعت حقيبة فائحة الرائحة وناولته إياها.. قالت:

- «طعام الغداء.. أرجوك أن توصله له».

- «كما تأمرين».

- «لم أكن أعلم أن لديه ضيوفا فلم أعد كميةً تكفي.. اعذرني».

- «البركة في القليل.. أشكرك يا سيدتي».

هزت رأسها ثم عادت تتأمله بعين فاحصة.. «ابن ناس».. لكنها هيئته الغريبة.. شعره ولحيته وتفاصيل ثيابه كانت منفرة.. تلمح وشما على ذراعه فلا تتداركه وفكرت أنه ربما لرمز ديني.. قررت ألا تتعجل في الحكم وأنها قريبا ستعرف كل شيء:

- «أستأذنك».

- «تفضلي».

تنسحب وابنتها فتترك له لحظات كي يحدق في الأخيرة دون أن تراه.. يفكر.. أي سحر غبي هذا؟ هذا الجمال بهذا الجحر!

يخرج من جيبه سيجارة أخرى.. ويقرر أن يعود لكوبه وألا يفكر..

لكن مَن الأحمق الذي لن يفكر أكثر؟

* * *

obeikandl.com

كانت الرهبة لا الخوف.. ومودة جارفة للقس الجالس أمامه..
لم يكن «وسيم» يعشق مكانا قدر عشقه لجدران كنيسته.. ولم يكن يمني نفسه بلحظات أنقى من لحظات يقضيها مع القس «حنا» بعيدا عن صخب العالم وصراخ الناس.. شعور جارف بالسكينة.. ورغبة في الاحتماء بحضن من يحب.. كانت كعالم رائع تحرسه الأبواب..
يقول القس:
- «أنت إنسان جميل يا وسيم».
فهنا فقط يمكن أن تكون جميلا بوجه نحيل وأنف ضخم وعينين غائرتين.. هنا فقط يرى الناس روحك فتصير جميلا.. وهنا يسمعك الناس فيحبون ما تقول.. تصير شيئا نقيا ينجذبون إليه.. هنا فقط لا يشعر بالفقر أو الحاجة.. ولا تلمسه المعاناة..
يقول القس:
- «لا أحد مثلك يا وسيم».
يحمرّ الوجه الخنوع بالخجل.. يطرق وقد أعجزته الكلمات عن النطق.. فقط تسيل البسمة الراضية على شفتيه وينظر للقس كي يسمع منه المزيد:
- «أنت شاب طيب.. مخلص للرب وللكنيسة.. شاب نادر الوجود في زمن الشهوة والمادة.. وما تفعله أنت وزملاؤك من المخلصين للكنيسة من أجل الرب هو شيء عظيم».
يرد «وسيم»:
- «أشكرك يا أبتِ.. أنت هو المرشد والمعين.. الفضل لك».
يبتسم القس ابتسامة حانية ويقول:
- «بل هو إخلاصك الفريد.. إخلاص أوشك على الاندثار.. لم يعد الشباب بهذا العزم وهذا الوعي يا وسيم».

تنهَّد «وسيم».. رفع رأسه وكأنما استيقظ من حلم جميل ثم قال بصوت خافت:

- «هذا ما يؤلمني يا أبتِ.. ليت الأمر يقتصر على غير المسيحيين.. بل صار علينا أيضا أن نعيد الشاب المسيحي إلى بيته.. إلى الكنيسة.. كثيرون من الشباب صاروا كشباب الغرب بلا هويّة.. صار الدين عندهم عنوانا بلا معنى.. منهم من لم يعرف أبدا طريق الكنيسة.. هذا يؤلمني يا أبتِ».

هزَّ القس رأسه في بطء أن نعم.. ثم أجابه بصوت هادئ:

- «ما أخشاه أن تضيع الوحدة يا وسيم.. أن يفقد شبابنا بالفعل هويته.. نحن أقلية في بلد يعج بالآخر.. يملكون أبواق الإعلام وأقلامه ويملكون الجامعات وكثيرا من المدارس.. أبواق ترسم الأكاذيب وتتحدث عن تسامح ووحدة زائفة تحمي الوطن.. وحدة تطالبنا - نحن فقط - بالتضحية بكل شيء من أجل أن تسير السفينة على حساب أرواحنا.. لو غاب الشباب عن الكنيسة لغابت عنهم الحقيقة.. سيسمعون أكاذيب الآخر أو ربما لا يسمعون شيئا على الإطلاق».

- «سيغيب عنهم ما يحاك ضدنا».

- «بالضبط».

ثم أشار له وقال:

- «تعالَ يا وسيم».

قام الشاب ملهوفا فابتسم القس وأشار له أن يتبعه.. سار حتى بلغ الحائط المقابل ثم توقف أمام ورقة قديمة معلقة عليه وقال:

- «ترى؟».

يتأمل الشاب الصورة القديمة في اهتمام.. عرف أنها خريطة قديمة لمصر ورأى فيها علامات تميز مناطق بعينها.. شعور مبهم بالرهبة وكأنه قد عاد

obeikandl.com

إلى الماضي ونظرة حائرة للقس تريد - صدقا - أن تعرف المزيد..
يتكلم القس وعيناه لا تفارقان الصورة:
- «لأنهم يملكون كل الأبواق فقد فرقوا الأكاذيب في كل مكان.. جعلوها حقيقة في كتب يدرسها أولادنا.. لو تفرقنا لخدعتنا تلك الأكاذيب التي نسمعها ليل نهار».
ثم أشار بإصبعه لأماكن متفرقة وأردف:
- «إخنا، رشيد، البرلس، خيس، بلهيب، سخا، سلطيس، فرطسا، تنيس، شطا.. كلها مدن مصرية حماها الأقباط وقاومت الغزو الإسلامي في بسالة.. من يعرف مينا وقزمان ومَن معهما؟ هؤلاء أبطال أنكرهم تاريخ المسلمين، وقد قاوموا الجحافل المتوحشة كرجال حتى النهاية.. ليس هذه فقط.. لقد أرهق آباؤنا العرب طويلا في برمون حتى سقطت.. انتقام العرب كان ضاريا يومها وقد قتلوا وهدموا الكنائس فيها انتقاما منا».
ثم واصل في الهدوء ذاته:
- «حتى الصعيد.. فرَّ أقباطه إلى الإسكندرية بعد أن بلغتهم أنباء القتل والسلب والتخريب من الجيش الغاشم.. قال عنه يوحنا النقيوسي إنه قد حدث ذعر في جميع بلاد مصر؛ إذ كان الأهالي يفرون إلى الإسكندرية تاركين ممتلكاتهم ومواشيهم.. كانت لحظات وحشية».
تنهد «وسيم» مؤيدا:
- «نعم يا أبتِ».
استدار إليه القس وهز رأسه:
- «مجازر.. سبي وقتل وتدمير.. اقرأ ما كتب ألفريد بتلر عن غزو مصر.. عن الجرائم التي ارتكبوها في حقنا.. نحمد الرب أن هناك من أرَّخ لذلك فلم يضِع وسط الأكاذيب.. يزعمون علينا أننا رحَّبنا بهم.. أيدناهم كي

ينقذونا من بطش الروم، بل إن البعض بالغ إلى حد الزعم بأننا قد استنجدنا بهم.. لكنهم والروم كانوا في أعيننا سواء.. غزاة طامعين.. وقد قاومناهم في بسالة ودفعنا ثمن ذلك غاليا من تخريب ونهب».

قال «وسيم»:

- «أخشى أن تضيع الحقيقة يا أبتِ.. علينا جميعا أن نذكر وأن نتذكر».

سار القس في تؤدة وخلفه «وسيم» حتى بلغ كرسيه مجددا فجلس.. قال وعلى وجهه أمارات ارتياح:

- «ما تفعله أنت وأمثالك من أبناء الرب يؤتي ثمارا.. يكفي ما تقومون به عبر الإنترنت وما تنشرونه من مواد تنويرية».

هز «وسيم» رأسه مؤيدا.. وأكمل القس:

- «لقد حققنا الكثير يا وسيم ولا نريد أن نخسر ما وصلنا إليه.. ما زال أمامنا الكثير لكي نستعيد حقنا في مصر، فلا ينبغي أن ننخدع».

- «حقا».

- «علينا ألا ننسى القمص الشهيد مكسيموس.. ولا ننسى كل الشهداء الذين ماتوا من أجل الرب بلا ثمن.. اليوم صرنا أقوى وأقدر على حماية دمائنا، وهم - حتما - يعلمون ذلك.. فإن تفككنا وغفلنا فإننا سنعود كما كنا.. علينا ألا نسمح لما حدث في الزاوية الحمراء أو في الخانكة أن يحدث ثانية.. علينا أن نفهم ونعي ونكون أقوى.. هي أشياء لم تعِشها يا وسيم، لكنها كانت أشياء مرعبة».

ثم أخرج أوراقا ناولها لـ«وسيم»:

- «خذ هذه يا وسيم.. هي أوراق ومراجع تحكي عن غزو مصر.. وبعض أحداث وجرائم ارتُكبت ضدنا.. راجعها جيدا ثم استخرج منها ما تراه مناسبا للنشر».

obeikandl.com

هز «وسيم» رأسه شاردا.. كان قد انفصل للحظة عن حديث القس وقد عاوده تأنيب ضميره.. تذكر «أحمد» القابع بالمنزل وشعر وكأنه جُرم عليه أن يعترف به للقس.. ربما صار عليه - على الأقل - أن يحكي ويطلب النصيحة..

كانت ثانية دار فيها رأس «وسيم»، لكن القس رأى ذلك واضحا.. كان «وسيم» شفافا كالزجاج:

- «ماذا بك يا وسيم؟».

ألقى «وسيم» نظرات بعيدة وقال:

- «لا شيء يا أبتِ».

ثم ابتلع ريقه وقد دفعه شيء ما إلى الصمت فقال:

- «سأفعل ما تأمرني به بأمر يسوع».

ثم إنه قد قام ورأسه مكبل بالأفكار.. وانحنى يقبل يد القس ويده تحمل الأوراق..

شاب جميل.. هكذا يقول القس..

وهكذا كان يرى نفسه.. هنا فقط لا بين غابات الدنيا القاسية..

* * *

obeikandl.com

يمسك أوراق اللعب.. يبعثرها.. يتأملها بلا معنى..
كان «رأفت» دائم الجلوس بمقهى الحي العتيق.. يتخذ لنفسه مقعدا في الصباح مع من يصادفه من شباب الحي ويطلب أوراق اللعب.. يتأملها متظاهرا بالتفكير ويجعلها قضيته الفارقة لهذا الوقت القصير دون سواها.. يطلب كوبا من الشاي ويتبعه بآخر وهو يتظاهر بالاندماج والانتشاء.. ثم يأتي المساء أو يمل فينصرف بلا مقدمات.. ربما اعتذر يوما عن مقهاه ليبحث عن وظيفة لن يدركها، لكنه يعود مجددا في اليوم التالي وكأن شيئا لم يكن.. يعود فيبعثر أوراق اللعب..
المزيد من الأوراق..
يقول رفيقه وهو يؤرجح أوراق اللعب بين كفيه:
- «ماذا بك؟».
يرفع «رأفت» بصره إليه متسائلا فيسأله:
- «ألن تفرق الورق؟».
- «حتما».
ثم جمع الأوراق بين كفيه وعاود ترتيبها وبصره يتسلى بمراقبة المارة.. يطالعه وجه «حسين» العابس من بعيد فيدرك أنه حتما وقت صلاة لم ينتبه لأذانها.. يدير بصره بعيدا فيرى أطفال الحي الغارقين في الوحل.. يبتسم.. ثم يوزع الأوراق بينه وبين زميله..
- «تبدو كالمعتوه.. لا تتوقف عن الشرود أبدا يا رأفت».
- «لا أحتاج للكثير من التركيز يا ديفيد.. ربما لا أحتاجه إطلاقا».
يمد «ديفيد» ورقة على المنضدة:
- «لا أفهمك يا رأفت.. تقريبا لم أفهمك يوما منذ جئت من الولايات.. ولم أفهم والدك الذي لم يفكر في الهروب من سجن الحي الصغير.. هل صارت

الولايات فقيرة إلى هذا الحد؟».

لم يكن «ديفيد» بالنسبة لـ«رأفت» سوى رفيق مقهى يجده دائما حين يحتاج لحرق بعض العمر في لعب الورق.. لكنه لم يكن يحب كثيرا ثرثرته وأسئلته وتعليقاته.. لا يريد منه سوى أن يلقي الأوراق ويخسر أو يربح.. لا أكثر.. لكن «ديفيد» لم يكن يلتزم أبدا بهذه القواعد ويظن دائما أن الحديث جزء من اللعبة وأن ما يقوله مهم..

يجيب «رأفت» بلا حماس:

- «قلت لك.. شخص يعشق الانغماس في الجذور».

- «وأنت؟».

يقولها ثم يجمع الأوراق من المنضدة بورقة مرسومة.. يقول «ديفيد»:

- «لم أرَ كائنا يعود من الولايات على حالتك.. ربما لأنني لم أرَ أحدا يعود من الولايات من قبلُ.. لكن نظرتك للأمور هي الأمر الأعجب.. لم تحب أمريكا وها أنت اليوم في أضيق بقاع مصر.. ولا تبدو راضيا أيضا.. فماذا تريد؟ هل اشتقت إلى الولايات مجددا؟».

- «بلد جميل.. مبهر.. لكن لا».

- «إذًا؟».

- «ديفيد.. ليس لغزا».

يلعب ورقة جديدة بلا تركيز:

- «عشقت الولايات في اللحظات الأولى.. مرحلة الانبهار.. لكنني لم أحبها جدا حين أتت مرحلة التأقلم.. أكره أن ألتزم فأكون غريبا أو مضحكا في نظر البعض.. كما لم أحب اندفاع الحياة هناك.. تفهم؟ يفعلون كل شيء.. يتطاولون على أي شيء.. حرية مضطربة لا تُشعرك بالأمان».

- «لكنك حر في دائرة حياتك».

obeikandl.com

أجاب «رأفت»:

- «بالتأكيد.. لا أحد ينتهك حياتك ما دمت تختبئ خلف أسوارها.. فما إن تدنو من المجتمع بأفكارك حتى يراك الناس كأحمق قادم من صحراء الشرق.. تحدثهم عن الرب فيحدثونك عن الفتيات.. تحدثهم عن الكنيسة فيسخرون منك قليلا قبل أن يملوا وينصرفوا عنك.. لا تجد بينهم سوى واحد أو اثنين من المخلصين.. غالبا ينسحبون بعيدا عن الحياة مثلك.. إنه المرح.. المال والعلاقات المباحة.. إنها الحياة، فمن أين يأتيهم نور الرب؟!».

هكذا ابتسم «ديفيد» ساخرا.. جمع المزيد من الأوراق وقال:

- «وهنا يا صديقي.. هل رأيت نور الرب؟ هذا بلد غارق في الظلم».

- «إنها الظلمة في عقل الجهلاء يا صديقي.. لكنهم يوما سيفهمون.. نحن أبناء تلك الأرض.. عشنا أوفياء للرب سنين طوالا.. بالمحبة والسلام.. وإن قابلونا بالعنف والإذلال فإننا سنقابلهم أيضا بالمودة حتى يؤمنوا لسمو ديننا.. إنه دين يحميه الرب.. ومودة تخلق في قلب العدو مودة».

يهز «ديفيد» رأسه كمن ينفي عن عقله أفكارا لا وزن لها.. يرد في حزم:

- «رأفت.. هذا تخاذل.. لن نظل تحت القمع إلى الأبد.. نحن أبناء الرب وأحباؤه وأصحاب تلك الأرض الطاهرة.. فممن نخاف؟».

- «وهل كان يسوع متخاذلا؟».

قال «ديفيد»:

- «يسوع جاء بالتضحية الكبرى وغفران الخطيئة لكل البشر.. قد علمنا أن نحب أعداءنا، لكنه لم يعطنا الغفران كي يعاني أبناؤه من جديد.. ما دام نور الحق في يدك فلماذا تختبئ؟ ولماذا ترضى؟».

قال «رأفت» وهو يعيد ترتيب أوراقه:

- «علينا ألا نترك أنفسنا لمعنى الكراهية.. هي داء يلتهم كل شيء..

اليوم تكره العدو ثم غدا لا تجد من تكره ويدور رأسك لأخيك أو صاحبك.. هكذا الدنيا».

- «نحن قوم مسالمون يا رأفت.. الغير هو - دائما - القادم بالكراهية».

لم يجد «رأفت» ردا سوى أن نظر لأوراقه وقرر أن يصمت قليلا.. لم يكن يتوقع جدلا مختلفا حين تحدث إلى صديقه..

تنهد.. شرد من جديد ثم قرر أن الوقت قد انتهى..

يترك أوراقه بلا مقدمات.. ينهض ثم يقول:

- «ادفع حسابي رجاءً.. أراك في الغد».

ثم قام منصرفا وكأنه لم يكن جالسا منذ لحظة فأطلق صديقه ضحكة قصيرة وهو يجمع الأوراق.. لم تعد تلك الأشياء تغضبه من زمن وقد اعتاد من صديقه غرابة أطواره..

يعبر الفتى الشارد الشارع بين دراجات وأقدام تائهة كي يصل إلى باب منزله المقابل للمقهى.. يلمح «وسيم» قادما إلى المدخل هو الآخر.. مبعثر الثياب منهكا في حمل كتبه كعادته.. فكَّر لوهلة في تحية يلقيها عليه، لكن نظرة «وسيم» الحادة والتلويح برأسه إلى اللامكان قد أوصلا رسالة الكراهية لـ«رأفت» كما اعتادها بلا مجاملة..

كان «رأفت» يعلم ذلك.. لم يكن يحبه بالمثل..

هكذا تقدم إلى المنزل خلف «وسيم».. وتظاهر أن شيئا لم يكن..

* * *

كان «وسيم»..

عابسا كعادته وقد زاده لقاء «رأفت» على مدخل منزله عبوسا.. يصعد درجات السلم حتى يبلغ باب شقته.. يفتحه فتتكدس ملامحه أكثر بضيفه الثقيل المتربع في الصالة كصاحب البيت، ثم يضع كتبه جانبا ويغلق الباب خلفه دون كلمة.. في حلقه ذلك الشعور المقبض بأنه يحيا حياة شخص آخر لا يعرفه..

كان «أحمد» يجلس القرفصاء بجوار المنضدة.. يبدو كصورة مركبة بزيه المنزلي الأنيق على خلفية الحصير البالي والحوائط الصارخة بالقِدم والإهمال.. يتناول قطعا من لعبة الميكانو.. أعدادا مهولة منها ليضعها هنا وهناك.. توقف «وسيم» لحظة فقد فيها الكثير من وقاره وترك عينيه تتسعان من فرط الانبهار..

كان «أحمد» قد أنهى شكلا شديد التعقيد بتلك القطع.. شيء أشبه بسفن الفضاء كما تصورها الأفلام الغربية.. يضيف القطع تلو الأخرى بينما يحدق «وسيم» فيه وفيما يصنع كي يرى أكثر.. شيء شديد الجمال والإتقان..

- «إذًا وصلت!».

كان «أحمد» قد تنبه أخيرا..

- «ما هذا؟».

سأل «وسيم».. يحرك إصبعه نحو الشيء المهول ويخرج عن ملامحه الجامدة:

- «سفينة فضاء.. أول سفينة فضاء مصرية.. وضعت تصميمها من مخيلتي».

هز «وسيم» رأسه وقد عرف.. من ثَمَّ عادت السخرية إلى أوتار حنجرته:

- «خيال جامح.. هذه أشياء تصنعها الأمم الكبيرة».

obeikandl.com

- «لا تعجبك إذًا؟».

ضرب كفيه في القطع المحكمة ففرقها كالفتات.. ينتفض «وسيم» ويقول في ذعر أخرجه من برود ملامحه:

- «ماذا تفعل؟».

- «لا تنخلع رعبا هكذا.. هذه هي لعبة عمري.. أستطيع أن أعيدها لك في عشر دقائق.. دعك منها.. هناك طعام يوشك على التجمد».

- «طعام؟».

تنزعج ملامح الفتى أكثر.. يسأل:

- «من جلبه؟».

- «سيدة مسنة وفتاة رائعة الجمال.. أظنها ابنتها».

- «ماذا تقول؟».

قالها غاضبا، بينما يلم «أحمد» قطع الميكانو فيرد عليه بلا انفعال:

- «ماذا بك؟ هو وصف لا أكثر.. لا أعرف اسم إحداهما فكيف بعقلك ستعرف عمن أتحدث؟».

يمط «وسيم» شفتيه غير راضٍ.. تمتم بأنها أم «ماري» - زوجة العم «جورج» - لكنه لم يجب «أحمد».. أدار الحوار إلى جهة أخرى واتجه إلى المائدة قائلا:

- «انهض.. سوف نتناول الغداء الآن».

- «وسيم».

- «ماذا؟».

ينهض «أحمد» تاركا لعبته خلفه.. يمسح العرق عن جبينه الأبيض ويقول:

- «وسيم.. ألم تفكر بعدُ فيما قلته لك؟ ألن نتحدث قليلا على الأقل؟ ربما لا أكون بهذا القدر من الإملال الذي تحسبه».

obeikandl.com

حدَّق فيه «وسيم» وتوترت ملامحه وقد أعياه الإلحاح فأشاح بوجهه.. للحظة خشي أن يلين.. شخص وحيد محبوس خلف الجدران.. وعرض بصداقة لم يرغب أحد يوما - من خارج الكنيسة - أن يحظى بها.. كما أنه لم يجد من الفتى شيئا يكرهه سوى بعض الشك فيه.. أفكار مؤلمة، لكنه لم يلبث أن عاد لنفسه وتذكر أشياء في نفسه اعتاد أن يذكرها فتراجع وقرر أن يهزم هذه الأفكار وأن يعود لنفسه مجددا.. يخرج صوته خفيضا لكنه على قدر من الصلابة:

- «لا شيء من هذا.. لا موقف شخصي منك.. أنا شخص منغلق بطبعي».

- «يمكنك أن تثق بي.. لماذا لا تجرب؟ يمكنني أن أسمعك.. نتناقش.. وربما أعطيك آراء تروقك».

- «لا شك».

يقولها «وسيم» وقد شمله غيظ أخفاه.. شخص لزج لا يتوقف عن الكلام ولا يبحث لكلامه عن أغلفة أنيقة.. لكنه لن ينخدع وهو يعرف حتما كيف يتنصل..

قال: «لكننا نتحدث اليوم عن وجبة غداء».

ثم استدار إلى المائدة مجددا.. فتح حقيبة الطعام في حين انصرف «أحمد» بخطوات شاحبة إلى ركنه الخاص وقد أدرك عبث ما يفعل.. يحرك «وسيم» عينيه بعصبية كنملة ضلت الطريق ما بين ما يفعله على المائدة وبين ضيفه الذي انتبذ الركن البعيد لا يدري عمَّا يبحث.. يحاول ألا يشغل ذهنه به لكنه لم يستطع.. يصمت لكن الغضب المكتوم بداخله يستعر..

قال «أحمد»:

- «ما هذه الصور؟».

استدار «وسيم» فرآه - «أحمد» - ممسكا بالصورة الموضوعة في الإطار -

تلك التي تحمل الكثير من الوجوه - دون أن ينظر خلفه.. كانت شعرة أفقدت «وسيم» ما تبقى من اتزانه فاستدار إليه وصاح في غضب:

- «اتركها».

- «ماذا بك؟ لن أحرقها بين كفي».

- «قلت لك اتركها».

ثم اندفع نحوه في غضب حتى صار في مواجهته.. كان «أحمد» قد ترك الإطار واستدار له..

- «ماذا تريد؟ سمحت لك أن تبقى.. تريدني صديقا؟ لديك جيوش منهم.. تحاول أن تتبادل حديثا معي؟ حتما ليس هذا أفضل الطرق ولن يفيدك حديثي في كل الأحوال».

- «لا أجد مبررا لانفعالك».

- «ستجد حتما.. تريد أن تعرف هذه الصورة.. إليك هذه الصورة».

ثم أمسك الإطار.. نظر إليه وأكمل غاضبا:

- «هؤلاء هم الشهداء.. سالت دماؤهم بلا ذريعة.. خطيئتهم الوحيدة أنهم قد آمنوا بالرب وسلموا قلوبهم له.. هؤلاء من قتلتهم أيدي السفاحين المسلمين».

كان كمن يفرغ النيران من قلبه.. كمن يبحث عن الراحة ولو للحظات يسرقها..

قال «أحمد» بلا انفعال:

- «لا أفهم».

- «لأنك آمن على حياتك.. لأنك لم تذُق يوما طعم الجنازير ولم يُرفع السلاح في وجهك فقط لأنك تقول إن الرب يسوع.. هؤلاء هم ضحايا القمع يا أستاذ.. من ذُبحوا بلا جُرم.. منهم من احترق حيا ومنهم من ذاق

obeikandl.com

وبالا حتى فاضت روحه الطاهرة.. منهم...».

ثم انسالت الكلمات من شفتيه رغما عنه.. غاضبة ضد إرادته ولم يكن يريد أن يفصح بالمزيد:

- «هذه هي صورة القمص مكسيموس.. شهيد الزاوية الحمراء.. رفض أن ينطق بالشهادة فذبحوه.. لن تعرف هذا الكلام قطعا لأن حكومتك تنكره».

ثم تناول صورة أخرى وأردف ثائرا:

- «وهذا حبيب صليب.. احترق منزله ومات بداخله.. وهذا كامل مرزوق.. أحرقوا زوجته وأولاده وراحوا يحتفلون كالهمج.. وهذا وهذا... كلهم شهداء الحادثة الأليمة.. كلهم قُتلوا بلا ذريعة بينما يحاصر الأمن ويراقب ما يحدث.. ربما يحمي المأجورين لقتلنا كذلك.. كانت جريمة مدبَّرة لإرهابنا.. تريد أن ترى صور شهداء قنا؟ إنهم معي جميعا.. هل ستتحمل؟ ها؟ هل ستتحمل؟».

حدق فيه «أحمد» حائرا وبدا وكأنه لم يفهم جيدا.. أشياء لا يعرف عنها شيئا، لكنها سوداء بغيضة.. كذلك الأنفاس الحانقة من صدر «وسيم».. كان وجه الأخير محتقنا بلون الدم وكانت أنفاسه تتصارع كالثور يوشك على الانقضاض:

- «متى حدث هذا كله؟».

- «حدث ويحدث.. لكنكم تتظاهرون بالجهل».

- «أهلك؟».

- «كل أبناء كنيستي هم أهلي.. كل أحباء يسوع هم أسرتي».

- «تبدو صورا قديمة».

يحدجه «وسيم» بنظرة محمومة ويقول:

- «لكننا لن ننسى.. هي دماء الشهداء الطاهرة».
- «لا أفهم.. لستَ أول من أعرف من المسيحيين.. كلهم أصدقاء.. لم أسمع كلاما كهذا من قبل».
ينتفض «وسيم» غاضبا:
- «لا تحدثني عن بعض هؤلاء المترفين من حولك.. ينصرفون عن قداس الأحد ليقضوا ليلتهم في صالات الرقص ويصادقوا أمثالك.. هم لا يعرفون مما أقول شيئا.. هم غارقون في اللذات.. وربما لا يعنيهم كثيرا ما أقول».
تنهد «أحمد».. ترك «وسيم» لأنفاس يلتقطها ثم مال عليه وقال في حزم:
- «أقدر مشاعرك على كل حال.. فقط أريد أن أفهم».
- «تفهم ماذا؟».
- «لهذا لا ترحِّب بوجودي؟».
- «ما رأيك؟».
يقول بعد قليل من الصمت:
- «ولو أنني لم أكن مسلما.. هل كان الأمر سيختلف؟».
يتمالك «وسيم» كلماته بصعوبة ويجيب:
- «لا وجود لـ(لو).. أنت مسلم.. ولا يمكن أن تكون غير ذلك.. ذابت أفكارك في الدم والكراهية.. هذا أمر لا تغيره كلمة في البطاقة».
مال عليه «أحمد» وتغيرت نبرات صوته.. نظر إلى عينيه فبدا لـ«وسيم» وكأنها المرة الأولى التي يراه فيها وقال بصوت عميق:
- «حسنا.. لو لم أكن مسلما ولو لم تكن أنت مسيحيا.. هل كان هذا سيجعل الأمور أفضل؟».
صمت «وسيم».. أربكته كلمات الشاب وفقد الكثير من ثورته واهتزت مقلتاه في حيرة وتردد:

- «ماذا تعني؟».

كرر «أحمد» السؤال بلهجة ساخرة:

- «هل كان سيجعل الأمور أفضل؟».

- «لا شيء كهذا».

يقول «وسيم» وقد عاود الانفعال:

- «أنت مسلم وأنا مسيحي.. لا شيء مما تقول».

- «حسنا.. سأعتبر هذا إجابتك».

وأمسك الصورة من يده.. أعادها لموضعها وقال ضاحكا:

- «يمكننا أن نبدأ في تناول الطعام المثلج هذا.. انسَ ما حدث».

ثم ترك «وسيم» وانصرف إلى المائدة واتخذ لنفسه مقعدا وكأن شيئا لم يكُن.. علا صوت زئير الخشب المترنح من تحته بينما يلقي «وسيم» عليه نظرة مضطربة.. شعر بأنه قد فقد المزيد من أعصابه وأن لسانه قد أفلت بعفوية حمقاء لم يعهدها في نفسه.. لم يحب انجرافه في الحديث وقد زاده ذلك حنقا وكأن ضيفه قد أوقعه في فخ يقصده.. «ما كان عليه أن يقول ما قال لمسلم بهذا القدر من المصارحة».. هذا ما دار في ذهنه وأحرق ما تبقى من أعصابه..

هذا شخص كريه لا منطق له.. وحين انصرف إلى غرفته حانقا تمنى أن تنتهي تلك الأيام المرهقة سريعا..

* * *

obeikandl.com

الفصل الثالث

كتب في ورقة ضاعت مع ما ضاع من ورقه:

- «أنا مسيحي من مصر.. شاب ممن أسعدهم الحظ بأن يعيشوا ثورة تعيد إيمانهم بالغد القادم بعد سنين طويلة ضاع فيها الوطن.. فعلها الجيش وقام بأحلام الناس.. وعد بالحرية والإصلاح وقطع رقاب المفسدين.. كان الهاجس الوحيد هو خلفيات عبد الناصر ومن معه.. لم يكن هناك ما يوحي بسعيه للتميز الديني وكان موقفه من جماعة الإخوان واضحا مما أرضانا جميعا.. كنت - وشباب الجامعة من زملائي - نترقب في تفاؤل.. ننتظر المزيد.. حين خرجت علينا أصوات تدعو لدولة مسيحية.. ولعودة اللغة القبطية.. أفكار قابلت رضا البعض، لكننا لم نُخدع.. كانت مصر على شفا مرحلة مصيرية.. العدو الصهيوني ومعه أطماع الإنجليز.. هكذا صرنا على يقين.. هي وسيلة لإضعاف الجبهة ومؤامرة تسعى لاستخدامنا.. مصر على خط النار وقد قررنا ألا ننخدع.. لكل مقام مقال».

obeikandl.com

حوار بين مجموعة من الشباب على صفحة منتدى قبطي «مذبحة الزاوية الحمراء»..

الموضوع: نظرا لكل ما يشاع كذبا عن مذبحة الزاوية الحمراء، وجدت أنه من الضروري أن أسرد لكم بعض الحقائق عن هذه الأيام السوداء؛ إذ إن شباب هذا الجيل لم يعاصر هذه الحادثة ولا يعرفون عنها أكثر من مجرد اسمها.. أو ربما أكاذيب أنور السادات التي خلَّدها أحمد زكي في فيلمه حين وصف الحادثة بأنها مجرد مشاجرة بين عائلتين بسبب «منشر غسيل».. وحتى لا تضيع الحقائق وحتى يعرف أبناء الكنيسة ما عاناه وما زال يعانيه أبناء الرب في مصر، فقد قررت أن أكتب هذا الموضوع لنذكِّر نفسنا بمن نالوا إكليل الشهادة.. فحادثة الزاوية الحمراء كانت بسبب قطعة أرض اعتزم بعض الأقباط أن يبنوا كنيسة عليها فتنازع عليها بعض جيرانهم المسلمين ثم تطور الأمر من شجار عادي إلى معركة مسلحة؛ حيث كان الصبية ينادون الناس في كل الأحياء المجاورة لمحاربة الأقباط، حتى إنهم كانوا يضعون علامات على بيوتنا لتكون دليلا لهم.. قامت الشرطة بأوامر مباشرة من السادات إلى النبوي إسماعيل كي يقوم بمحاصرة الحي ثلاثة أيام كاملة دون أن يتدخل كي يوقف أعمال التخريب والسلب والنهب ضد الأقباط.. كانوا يقومون بحماية البلطجية بينما يقومون بعملهم ضد الأقباط.. كان هذا هو مقصد السادات؛ إذ أراد في هذا الوقت أن يوجه ضربة منذرة للأقباط وللكنيسة.. وادعى وقتها بعد انتهاء الأحداث أن عدد القتلى لم يتجاوز تسعة أفراد، بينما بلغ العدد الحقيقي واحدا وثمانين قتيلا..

obeikandi.com

معظمهم مات محروقا في منزله أو متجره ومنهم الشهيد القس مكسيموس الذي رفض أن يشهر إسلامه والسكين على رقبته فذبحوه.. هذا سرد لبعض الحقائق التي لا يعرفها بعض أبناء الرب الأعزاء.. أرجو من مدير المنتدى أن يتم التثبيت حتى تعم الفائدة.

التعليق الأول: أنا من سكان الزاوية الحمراء وأشهد على أن هذا بالفعل ما حدث.. وهذا ما عرفته من سكان الحي الذين عاصروا تلك الحادثة.. المجد لكل شهيد مات من أجل الرب.

التعليق الثاني: جدير بالذكر ولا يخفى عليكم أن هذه المأساة حدثت قبل اغتيال السادات بشهور قليلة.. لا تيأسوا فانتقام الرب قادم.. هو يحمينا.

التعليق الثالث: أرجو نشر تلك القصة في أكبر عدد من الصفحات، فكثير من أصدقائي لا يعرفون شيئا عن حادثة الزاوية الحمراء..وأرجو أن تمدنا بالمزيد من التفاصيل إن أمكن حتى يتسنى لنا نشرها

صمدير المنتدى: بوركت..تم التثبيت

obeikandl.com

«٣»

- «إيفون».. الأم..

لا تدري لماذا لم تدخل غرفتها مباشرة.. لا تدري لماذا قررت «إيفون» أن تستدير إلى غرفة ابنتها «ماري» وأن تدنو منها ثم تختلس النظر.. كانت الساعة قد جاوزت العاشرة مساءً وقد أوت الفتاة إلى فراشها منذ فترة وقد صارت - حتما - في حكم الحالمة.. لكن شيئا في قلب والدتها جعلها تزيح الباب في رفق وتدنو من فراش ابنتها الصغيرة على الرغم من الظلمة كي تسرق نظرة حب لوجهها البريء..

تجلس على طرف الفراش.. تبتسم.. تزيح شعر «ماري» الثائر عن وجهها فتبدو أجمل.. ثم تتنهد وقد أخذتها الأفكار..

كانت ابنتها الوحيدة..

انتظرت كثيرا حتى صارت لها ابنة وقد شاء الرب أن تأتي وحيدة.. فتاة جميلة طيبة وقد عوَّضتها كل شيء.. كانت «ماري» واحدة تكفي ربما الحي بأكمله.. من يحتاج أطفالا بعد «ماري»؟!

لم تكن هذه مرتها الأولى..

قد اعتادت «إيفون» أن تقضي وقتا بجوار ابنتها النائمة.. تتأملها وتقتبس من روحها المضيئة فرحتها.. ثم تأتي لحظات من الفكر فترتجف وتقرر أن

obeikandl.com

تنصرف حتى لا تذبحها الأفكار..
كانت تخشى على «ماري».. تخشى على الفتاة الغريرة من كل شيء.. تطلب لها حماية الرب في السماء وقد صارت ووالدها كهلين تناديهما أصوات الديمومة.. هي لحظة تنشق فيها الأرض وينتهي كل شيء.. لن تعلم أبدا أنها قد تركت ابنتها وحيدة تتعذب إلا بعد فوات الأوان..
ربما قدَّر الرب لها زوجا صالحا.. هو اختيار أوحد عليهما أن يسارعا به.. وألا يتعجلا كذلك.. فهو إنسان واحد ستكون له إلى الأبد..
هي فتاة طاهرة.. لن تحسن الاختيار بمفردها.. وسوف تحدد كلمتها وكلمة والدها مصير الفتاة إلى الأبد.. قد تمنحها كل شيء أو تسجنها إلى الأبد..
يدق قلبها أكثر.. تتأمل الوجه الرقيق وتقدر أنها - حتما - لا تستحق شيئا كهذا..
- «أمي؟».
تخرج الكلمة الرقيقة من شفتيها ويرتعش جفناها من ألسنة النور الحارقة.. تقولها غير فاهمة فتبتسم لها أمها وتربت على خدها الأبيض في حنو.. تهمس:
- «لا شيء يا حبيبتي.. لا شيء».
هكذا عادت الفتاة لنومها وكأن شيئا لم يكن.. بينما قررت الأم أن تؤجل عذاب الليلة إلى الغد..
تتساءل.. لربما كان الغد أجمل..

* * *

يقرر «مصطفى» أن يلتقط أنفاسه.. يغادر المسجد ويتجه نحو سبيل المياه ليرتوي بالماء البارد.. الضوء الأخضر الحنون على المعدن المتسخ وصوت الخرير الثائر في الظلمة بينما تتبعثر أشلاؤه في كل مكان حين تصطدم بالسطح البرَّاق.. يمسك بالكوب المعدني ثم يملؤه لنفسه.. ما زال الصوت القوي يعلو من داخل المسجد لينسكب في الفراغ فيغرقه.. لم تنتهِ خطبة الشيخ «سيد واصل» إلى الآن، لكنه فضَّل الانصراف.. لا مكبرات صوت فلا سبيل لها في هذا الركن المختبئ، لكن حنجرة الرجل كانت تكفي كي يسمعه.. تأخر الوقت فلا صوت في الشارع الضيق كذلك.. إضاءة خافتة.. يبتلع الماء في لهفة فيكفي ظمأه.. يقرر أن ينصرف قبل أن تنتهي الخطبة ويبدأ الحشد في الخروج لكن القدر لم يمهله..

- «مصطفى».

الصوت الحازم ينادي من خلفه.. تعرّف «مصطفى» الصوت بوضوح ولم يبدُ سعيدا.. يدنو منه «حسين» بجسده القوى مسرعا حتى يبلغه ثم يضع يده على كتفه كصديق ويحاول أن يبدو حانيا.. قال له وكان هادئا:

- «ما الأمر يا مصطفى؟ لماذا لم تبقَ لنهاية الدرس؟».

- «لا شيء.. أشعر ببعض الإعياء».

- «لكن الشيخ لم ينتهِ بعد».

يبتلع «مصطفى» ريقه بصعوبة..

- «ما الأمر يا مصطفى؟ لم تحب ما سمعت؟».

يجمع «مصطفى» بقايا أفكاره كي يمتص أمواج الحرج التي أغرقته.. حصار إنساني قاسٍ.. يعرف أن «حسين» نفسه لم يكن يستمع للدرس بقدر ما كان يراقبه ليستشف ردود فعله طيلة الجلسة.. وها هو ذا يواصل الحصار حتى بعدما قرر «مصطفى» أن يغادر..

- «حسين».

يلتقط نفسا ويشعر بأنه قد صار على غير عادته أكثر جرأة..

- «حسين.. ما قاله الشيخ علم يعلمه أكثر مني ورأي هو أعلم به.. لكن.. لا أدري.. لا أشعر بأنه يقابل شيئا في قلبي.. أنا شخص مسالم يا حسين.. لا أعرف سوى المسجد.. أصلي وأقرأ القرآن وأرجو من الله ستره ومغفرته.. لكنني لا أفهم عن أي جهاد يتحدث.. جهاد لا أقصى فيه ولا فلسطين.. هذا هو الجهاد الذي أعرف».

ابتسم «حسين» ابتسامة رحيمة لم يتوقعها «مصطفى»..

- «أحسنت يا مصطفى.. الآن أنت تفهم».

ثم وضع يده على كتفه مجددا ودفعه في رفق كي يسير معه..

- «كما قلت يا مصطفى.. الجهاد أمر واجب ما دام أعداء الله ينتهكون القدس.. هذا أمر لا يقدر حتى أعتى العصاة على إنكاره.. هو شغلي وشغلك وشغل كل مؤمن موحد بربه.. الجهاد من أجل نصرة الأمة حق لا مردَّ له».

ثم أجلسه إلى مقعدين بأقصى مقهى فقير.. أشار للنادل بطلبه ثم استدار إلى «مصطفى» وأكمل:

- «المأساة يا صديقي أن موازين العقل والمنطق قد اضطربت.. لطالما كانت هذا الأمة عدوا للغرب.. يخشونها لما فيها من فضل لا يملكونه.. فضل الإيمان وقوة الحق.. وهم ككل الطغاة يخشون هذا الحق.. لا تصدق أنهم أصحاب مبدأ أو أنهم يؤمنون بالعدل.. أمريكا نشأت على أنقاض شعب كامل كانت كل جريمته أنه عاش على أرض خصبة وكأنهم لم يكونوا بشرا من لحم ودم.. هكذا تفهم لماذا تبدو لهم إسرائيل كدولة عادية فقد فعلت الشيء ذاته».

obeikandl.com

يستمع إليه أكثر..

- «هكذا اختلفت مصالح الغرب، لكنها اتفقت علينا.. إغراء الحكام بالمال والدعم.. زرع ثقافة الشيطان.. ما أسهل أن تغري الشعوب بالنساء والخمر والحرية الكاملة في ممارسة الموبقات.. تدريجيا نجحوا في أن يدورونا في ساقية الشهوة حتى خرجنا من الساقية وقد أصابنا الدوار.. لا نعرف الحق من الباطل.. يشترون الأقلام ويتلاعبون بقنوات فضائية مفتوحة لا تعرف سوى المال.. يخرج عليك جيل كامل من المثقفين الجدد المتشدقين بكل ما هو شاذ تحت اسم الحرية.. حتى صار الاستثناء قاعدة.. وصار المفكر هو كل من ينهج هذا النهج الشاذ، والرجعي هو من يرفضه.. الناس تسعد حين تجد من يشجعها على فعل الموبقات؛ لأنها تلقى في أنفسهم هوى، فإذا بدأت السلسلة بقلم أو فم فاسد تشجع الجميع على الفساد.. هكذا تاه الحق ولم نعد نحن نقدر على الدفاع عنه.. صار الحق الآن مصدر سخرية».

ثم مال على الفتى الحائر.. خرجت كلماته بطيئة واثقة:

- «هكذا انقلبت الموازين.. صدرت الأوامر فصار كل ملتحٍ هو متعصبا مجنونا.. يهين والديه ويتهمهما بالكفر والإلحاد ويعتدي على أخته بالضرب في كل مناسبة.. أي سخف هذا يا أخي؟ هكذا صرنا في بلدنا المسلم نشعر بالحرج من لحية تركناها حبا في نبينا.. أليس هذا في حد ذاته تعصبا يا مصطفى؟ لا يجد الشباب حرجا في ملابسهم المتشبهة بالغرب، ولا تجد الفتاة حرجا في عريها، بينما ينبغي عليَّ أنا أن أختفي من الحياة كي يرتاح الجميع وأنا على الحق، كما قال الله ورسوله.. أهذا منطق؟».

هز «مصطفى» رأسه.. كان متحيرا.. لكنه لم يقاطع «حسين»..

- «هكذا صار الأمر من جيل لجيل حتى صار من الثوابت.. تكلمني عن الجهاد من أجل القدس.. كل ما أقول هو من أجل هذه الغاية الأسمى.. لكن بالله عليك كيف نحررها ونحن تحت قيد الجهل والفتنة؟! الجهاد هو أن تهب روحك لله راضيا.. من سيفعل وقد انغمس في متع الدنيا وضعف دينه وضعفت عزيمته؟! هذه هي المؤامرة.. تخيل معي أن حكومتنا الحالية - فرضا - قد دعت للجهاد في سبيل الله.. من منا سيستجيب؟».

ثم مال عليه محاصرا إياه ببصره.. يتنفس «مصطفى» ببطء.. يقول:

- «كل مسلم صادق الإيمان».

تتسع ابتسامة «حسين».. يقول بثقة:

- «كما قلت.. لن تجد سوى أصحاب اللحى المنبوذين هؤلاء ليدافعوا عن الأمة كلها.. لو جاء العدوان يوما فستجدهم فقط أصحاب العزم الصادق لحماية دينهم».

يتردد.. يبتلع ريقه فيشجعه «حسين» بإشارة برأسه كي يتكلم:

- «اعذرني يا حسين.. لكنني ما زلت لا أفهم.. عن أي جهاد تتحدث؟».

- «ألم تفهم ما قلت؟ قلت لك إن المسلم الصحيح هو أساس الأمة ودرعها والمجاهد من أجلها.. لكن الأمة في ضعف.. ضعف الناس من حب المعاصي.. إن جاءت اليوم دعوة الجهاد فلن يخرج لها سوى قلة لا تسمن ولا تغني من جوع.. ففي هذه الأمة قومان: قوم ترى الإسلام في أوراقهم الرسمية فقط، لكن عقولهم وأفكارهم للعلمانية أقرب.. يبثون أفكارهم الداعية للخنوع ونبذ الدين ويهمِّشون قضايا الأمة إلى قضايا الذات.. وقوم آخرون من النصارى.. ليسوا منا.. لهم أفكار وأطماع وقضايا لا تنتمي إلينا.. بل تضعفنا».

- «حسين.. هل تريد أن نبيد هؤلاء؟».

obeikandl.com

قالها مستنكرا فابتسم «حسين» في تسامح:
- «لا أحد يدعو للإبادة يا صديقي.. لكن المستعصمين بالحق ينبغي أن يصيروا أكثر.. أن ينتشروا وألا يقف أحد من عملاء الغرب ضد رسالتهم.. وينبغي أن يدَعونا ندعو للحق وإلا وجب علينا قتالهم.. والبادئ أظلم».
- «والنصارى؟».
- «بيننا وبينهم عهد الله.. لكنه الحذر.. بالأمس كان اليهود بيننا.. يأكلون ويشربون.. لكنهم لم ينتموا قط لهذا البلد.. كانت لهم أفكار وأحلام تختلف.. أفكار تعادي البلد ذاته الذي يؤويهم.. أخي.. اليوم يعيد التاريخ نفسه، فعلينا الحذر.. اليوم يبحث هؤلاء عن أرض ينفصلون بها.. يبحثون عن تدخل أمريكي.. هؤلاء هم سلاح الغرب الأقوى لتدمير الأمة.. وعلينا أن نحكمهم جيدا.. فإن تمادوا فنحن لهم».
تردد «مصطفى» أكثر.. قال:
- «حسين.. عشنا بالحي طويلا.. معظمه من النصارى.. وأحسب معظمهم على خير.. لا شيء منهم سوى العطف والمساعدة.. فإن لم يكن فلا أذى».
انتظر «مصطفى» انفعالا، لكن «حسين» ظل على نبرته..
- «تعتقد أنهم يحبونك؟ الأمر أكبر من ابتسامات مدروسة يا مصطفى.. هؤلاء لن يرفعوا عليك السلاح لأنهم ما زالوا الأقل.. لكنهم يبحثون عن الدعم.. لا أتحدث عن فلان أو علان.. أتحدث عن كنيسة قوية تدير هذا كله.. كنيسة تتدخل حتى في قرارات الدولة العليا وتدير حشود النصارى في كل مكان.. حصون لا يعرف أحد ما يحدث خلفها، بينما تنتهك أذرع أمن الدولة مساجدنا كل يوم.. نحن المضطهدون يا أخي لا هم.. والكنيسة تستغل الغرب كما يستغلها الغرب؛ فالمصلحة واحدة.. وفور أن يصيروا أقوى سترى وجها آخر غير العطف.. حكومتنا العميلة لا تفكر سوى

بمناصب تحميها القوى العظمى، فمن سيحمي مصر والأمة سوانا؟ الذين وهبوا حياتهم من أجل الله».

- «لا أدري».

- «ما زلت تفكر؟».

- «لكنني لن أقاتل قوما...».

قاطعه في حزم:

- «لا قتال.. لن نحارب من يسالم.. نسعى كي نحقق بأنفسنا كيانا يحمي الإسلام وبلاد المسلمين.. يعادل الكنيسة وأفعالها.. نسعى لتحرير المسلمين المحتجزين في سجونها ما دامت الحكومة عاجزة أمامهم مكبَّلة بقيود مشبوهة.. نقف أمام حملات التنصير بالمال.. نعيد النصارى لبيوتهم، فإما أن يعيشوا في هدوء.. وإما أن يرحلوا».

ثم تنهد حمما حارقة من صدره وقال:

- «لكن ليبقَ سلاحك في حياتك هو العلم يا مصطفى.. إياك أن تستقي معرفتك بالنصارى من شاشات التلفاز وأقلام المأجورين من الداخل والخارج وتصدق ما يقال عن المحبة والماضي السعيد.. لم ترَ منهم سوءا؟ هذا جيد.. لكن إياك أن تغفل التاريخ يا أخي.. اقرأه جيدا حتى تعرف عمَّن تتحدث.. لا تبدأ بالسوء لكن لا تنخدع كالحمل».

- «لا أفهم».

يرسم «حسين» خطوطا مجهولة بيده ليرسم أفكاره.. وأجاب بصوت عميق:

- «لن أتحدث عن تاريخ هؤلاء المتشدقين بنغمة الاضطهاد والتنكيل.. لن أتكلم عمَّا فعلوه كي يستأصلوا الإسلام كرها من الأندلس بعد أن صارت لهم، ولا ما فعلته حملات الصليبيين في بلاد العرب باسم الدين».

ثم استند إلى المائدة ومال عليه وهو يضغط على حروف كلماته بحساب..

وأردف:

- «سأحدثك عن حاضر تعرفه ويعرفونه.. ماذا تعرف عن مدارس الأحد وعن جماعة الأمة القبطية التي أرادت تحرير مصر من الإسلام في أوائل الخمسينات؟ ذلك الهاجس في تقسيم الوطن الذي تنكر الكنيسة أنها قد صار همها الأول والأخير.. ماذا عن استعراض القوة في أوائل السبعينات؟ كنيسة الخانكة ومظاهرات القساوسة التي أرادت أن تفرض شروطها على الحكومة وكانت أول رسالة للفتنة والتصعيد.. ماذا عن تجارة الدماء؟ جريمة الزاوية الحمراء التي اختلقوا فيها الأكاذيب بينما تشهد عليهم دماء الأبرياء.. لقد أعماهم البطش فقرروا أن يضعوا قبضتهم على الأرض بأي ثمن.. أطلقوا النار على الصغار بينما يتخذون الأرض كمسجد ومقرأة.. مات من الصغار من مات بيد سلاح النصارى.. انظر كيف بدأوا بالإثم وانظر كيف تلاعبوا بالحقائق فصاروا هم الأبرياء.. لم يكن ما حدث سوى استعراض للقوى، وقد أرادت الكنيسة أن تعلن عن نفسها.. وأنها لن تترك حقوقها المزعومة بعد الآن».

لم يكن «مصطفى» يعرف كثيرا مما يقول، لكنه ارتعد بالأفكار السوداء.. لم يرتَح كثيرا، لكنه لم يجد شيئا يجيب به أفكار صديقه.. تخرج الكلمات منه كالهمس وهو متردد بين كلمات يقولها وصمت هو أقرب للراحة:

- «لكن يا حسين.. هذا رأيك.. ربما تسمع منهم عكس ما تقول.. لا توجد حقيقة مطلقة.. وهناك وقائع كثيرة لم نعشها».

- «ما حدث أمر معروف لا مجال لتكذيبه.. دم من مات في رقبتهم.. والأصدق أنه في رقبة الكنيسة التي تضحي بدمائهم عامدة كي تحقق أهدافها باسم الدين».

- «هو تعميم قاسٍ يا حسين.. منهم وجوه لم أعرف منها الإساءة يوما».

obeikandl.com

- «سنؤمِّن من أمننا ومن يسمع ويطيع.. أما هؤلاء الطامعون فسيعرفون شيئا عن قوتنا».

يهز «مصطفى» رأسه مجددا ولا يجد ردا فاصلا فيفضل الصمت.. يردف «حسين» وقد التقط أنفاسه وهدأت نبرته قليلا:

- «ينسون فضل الإسلام عليهم حين كانت هجمات الروم وينكرونها.. وتتركهم الكنيسة كي يسخروا من الإسلام ونبيه على أرضنا.. لعلك تعرف مسرحية الإسكندرية، لا تعرفها؟ هذا أفضل لك.. اليوم يقولون إن الإسلام غزو غاشم بينما يفضحهم مؤرخ من جلدتهم هو (بتلر) حين وصف غدر الروم وسجنهم للأقباط وما لاقوه من تعذيب في حصونهم في يوم الفصح.. حتى خرجت الكلمات من فم أسقف مصري يُدعى (حنا)؛ إذ قال إن فتح الحصون أمام المسلمين هو عقاب الرب لأفعال الروم بالقبط.. واليوم يسموننا الغزاة الغاشمين».

بدا «مصطفى» غارقا في الحيرة.. شعر بزحام من أفكار تحتاج لأعوام كي يراها أوضح.. أشياء قاسية لم يستوعبها عقله البعيد عن تلك الدوائر المتكدسة كلها.. قصص لا يدري عنها شيئا وخلفيات يرسمها له الرجل لبشر يراهم كل يوم.. لكنه لم يرَ سوى حدود أرواحهم المحدودة، ولم يحسب يوما أن وراء تلك الوجوه الباسمة عوالم كاملة.. عوالم معقدة لا يعرفها.. لكنها كريهة سوداء.. ينهش عقله ما سمع ويحاول أن يلقي عليه برمال من المنطق كي يطفئ النار المستعرة.. منطق يقول إنها حتما أفكار مبالغة.. لم يجرؤ أن ينطقها صراحة كهذا لكنه قال بصوت خافت:

- «أنت قلتها.. لن نعتدي».

أجاب «حسين»:

- «كما أقول.. نحن لا نقتل الأبرياء.. نحن نحمي ديننا.. لكننا سنتعرض

لكل مسيء وكل مخطط ماكر بكل الحزم.. وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة.. نحن الحامي لدين الله والداعين له حتى تعود الأمة إلى الرشاد».

ابتلع «مصطفى» ريقه مجددا، بينما أكد «حسين» كلماته في حزم:

- «ساعتها سنصير الأمة الإسلامية الواحدة.. سنكون جاهزين للجهاد الأعظم الذي تبتغي يا صديقي.. سنعود للقدس».

تتحرك يد النادل بكوبي الشاي على المنضدة.. صوت الزجاج العذب في بحر من الكراهية..

- «لم تقتنع بعدُ؟».

تنهد «مصطفى».. شعور بالهزال وانعدام تام للحيل أمام هذا الدفق من الحديث المنساب في نعومة بلا انقطاع.. كان الأخير يحتاج لأعوام كي يجمع شتات نفسه كي يهضم ما سمع ويعتنق ما يراه مناسبا.. وربما يحتاج لقرون كي يجيب..

وكان «حسين» يعلم..

هكذا تناوله من كفه وأشار له أن ينهض وهو يترك المال على المنضدة.. لم يفهم «مصطفى» لكنه لم يقوَ على الحديث.. فقط أجاب «حسين» نظراته المتسائلة..

- «تعالَ.. سأريك شيئا».

ثم قاده ليتخطيا الحارة الفقيرة إلى شارع جانبي.. يتقدم «حسين» لكن خطواته كانت رفيقة بصاحبه..

- «إلى أين؟».

- «لن نذهب بعيدا».

ثم أشار إلى نهاية الشارع.. منزل قديم جديد ينتمي أساسه إلى الماضي بينما ينتمي ما تبقى من طوابقه إلى عهد قريب.. فسر ذلك ارتفاعه

الملحوظ عن بقية البيوت في المنطقة البائسة..
- «منزل لوالد أخ لي.. لا تعرفه لكن هذا خارج الموضوع.. فقط أنعم الله عليه فشيَّد أدوارا جديدة فوق أساس البيت الذي ورثه عن والده.. ترى؟ صار أعلى بيت في الشارع».
نظر إليه «مصطفى» بعين خاوية.. ظن أنه درس عن المثابرة والجد وعِبر نأخذها من قصص هؤلاء الآخرين الذين لا نعرفهم دوما..
- «لا تعنيك قصة هذا البيت؟ أعرف.. لكنني لم أقُدك إلى هنا من أجل قصة كهذه.. فقط ستصعد معي إلى الطابق الأخير».
استدار إليه «مصطفى»، لكن الأخير تداركه قبل أن تبلغه النظرات..
- «لن نقابل أحدا.. أعلم أنك قد اكتفيت.. فقط أريدك أن ترى شيئا».
لم يبدُ «مصطفى» متحمسا، لكن نظرات «حسين» كانت شديدة الإلحاح.. أمسكه من كفه كطفل صغير بينما يهز الأول رأسه بالإيجاب.. يقول «حسين» بينما يوشكان بلوغ المدخل:
- «قضيت الكثير من الوقت في كنف هذا المكان.. كلما كانت تبدو الأمور لي غير واضحة أو كلما انتابني اليأس كنت أعود إلى هنا.. كي أفهم أكثر».
كانا قد بلغا المدخل.. وصلا بالفعل وشرعا يصعدان درجات السلم.. بلغا سطح المنزل.. كان الباب مفتوحا.. هكذا صار الاثنان على أرض بلا سقف.. وعاد صخب الحياة يدق أجراسه من جديد..
كان سطح المنزل عجيبا.. يعطي ظهرا للحي الفقير الغارق في الظلام بينما ترى عبر واجهته الشارع النظيف الغارق في النور.. شارع رئيس لا تدركه أبصار السائرين في الحارة ولا يمرون عليه كثيرا.. حيث الناس في كل الأشكال.. سيارات كقطع الحلوى ومحال تضيء وتنطق بالبهجة.. شعر بالهواء البارد يسيح على ملامح وجهه بينما يراقب ما يراه وكأنه يراه لأول مرة..

- «أعرف فيمَ تفكر».

ثم اتخذ «حسين» لنفسه مقعدا وترك «مصطفى» واقفا يراقب ما يرى.. وبالكاد يسمع..

- «أنت مثلي يا مصطفى.. بل مثل كل القابعين في تلك البيوت المظلمة.. تعيش في ذلك البلد، لكنك لا ترى فيها سوى الحارة والجامعة.. لا تنخرط في زحام المدينة كثيرا وحتما لا تراها سوى في النهار بينما تصير المدينة شيئا آخر في المساء.. لكننا لا نقصدها في تلك الأوقات إلا فيما ندر.. نطلب الرزق أو نقضي أمرا ثم نعود للجحور لا أكثر».

نظر إليه «مصطفى» نظرات حائرة لا تفهم..

- «أعرف عن تلك المدينة أكثر مما تعرف أنت.. وكذلك الحي المهضوم.. بينما لا تعرف أنت سوى جدران شارعك.. تظن أن هذا هو العالم دون سواه فتشعر بالرضا والراحة.. وتظن أن أهلي وأهلك هم كل الناس فتنام قرير العين.. معك حق.. فأهلنا على فقرهم في أكثرهم قانعون.. ربما لأنهم لا يرون أكثر.. بنو جلدتنا يا مصطفى قوم لا خوف منهم.. حتى أكثرهم فسادا يخضع حين يرى كتاب الله.. ويرتجف حين يعنفه شيخ أو عالم.. حتى أكثرهم فسادا يريد أن يتطهر وينتظر منا من يطهره.. أنت تعرف ذلك ولذلك تشعر بالرضا».

ثم تقدم نحو «مصطفى» ووضع يده على كتفه ثم أشار إلى المدينة بإشارة مبهمة وقال:

- «أما أنا فأعرف أكثر.. أعرف عن هؤلاء القوم الذين لا تعرفهم.. الذين يملأون تلك الشوارع.. هم أيضا لا يعرفونك يا صاحبي؛ فهم قوم من جلدة أخرى.. هم قوم إما قد غرقوا في الملذات حتى آمنوا بأن جنتهم في الأرض وإما لا يملكون تلك النعم، لكنهم يرونها طيلة الوقت ويحترقون بنارها..

obeikandl.com

يلهثون خلفها في كل لحظة كي يبلغوها، فإن فعلوا فقد صار عليهم أن يؤمنوها لأبنائهم.. تلك الدائرة الجهنمية التي صارت أمرا واقعا.. تلك الدائرة هي من صنع آلات الكفر: أمريكا وإسرائيل.. أغرقونا في بحر من الشهوات كما غرقوا وأزاغوا أعيننا بكل ما هو مبهر عجيب.. يعرفون أنك لن تشبع فدائما هناك المزيد.. ستلهث خلف الدنيا حتى يدركك القبر».

قال «مصطفى» شاردا:

- «هم قوم مثلي ومثلك.. لا أرى فارقا».

أجاب «حسين» بنبرة متوترة.. يحاول أن يمسك بلجام حنجرته:

- «بل قوم مغيبون.. قد صار الدين لهم عائقا.. لا وقت للصلاة.. لا جهد لصوم أو عبادة.. لا قدرة على كبح الشهوة كلما زادت الضغوط.. يخلعون عنهم الدين لكي يصيروا أخف في سباق الحياة».

- «بالله عليك لسنا بهذا السوء يا حسين».

قال الرجل في حزم:

- «قد صرنا على المحك.. لم نصل بعدُ إلى ما وصل له الكفرة بالإلحاد، لكننا على الأقل وصلنا إلى نكران الأصل من الدين.. اليوم يختبئ الناس خلف مقولة إن هذا ليس فرضا وإن الدين يسر.. ينكرون النقاب والحجاب وحرمة التبرج وإطلاق اللحى بحكم أنها كلها لا فرض فيها.. لا يجرؤ أحد على التصريح بذلك دون أن يدعمه قول شيخ باع الدين كي يصير أقرب إلى أنظمة فاسدة يمولها الكفار.. يطلقون الفتاوى المسيسة فيتمسك بها الناس كي يريحوا ضمائرهم.. ثم مع الوقت تُنسى الفتوى ويصير الواقع.. إن كذا وكذا لا أصل له من الدين.. وإن مثلي ومثلك من الهجم المتخلفين.. هنا يقسِّمون الناس إلى مسلم معتدل، وهو من يريح ضميره بالأكاذيب، ومسلم متشدد هو من يريد شرع الله.. فكلما تنازلت صرت إلى الاعتدال أقرب».

ابتلع «مصطفى» ريقه بصعوبة.. شعر وكأنه تلميذ فاشل لا يملك معلومة يرد بها على أستاذه.. فقط يقول في شحوب:

- «لم أشعر بهذا يوما.. لست مسجونا.. أنا طالب جامعي أختلط بكل الناس.. لم أشعر أنهم مغيبون إلى هذا الحد».

- «لا تعرفهم مثلي.. ولم تجربهم مثلي».

ثم ضغط على يده وقال:

- «هؤلاء لا يحتاجون للكلام.. هؤلاء يحتاجون إلى جهاد منظم.. هؤلاء إن حدثتهم يوما عن الدين سيسخرون منكم.. ربما ما هو أكثر.. وإن احتاجتهم الأمة يوما لن يستجيبوا لها».

تنهد «مصطفى».. قال وقد أعياه الحديث أكثر:

- «ماذا تريدني أن أفعل؟».

- «تساعدنا.. كي ننقذ هذه الأمة.. كي نوقظ هؤلاء البشر».

ثم ربت على كتفه وهمس:

- «فكِّر فيما أقول.. سأنصرف.. يمكنك أن تبقى هنا إن أردت.. هناك فراش بالغرفة.. فقط عدني أن تصدق التفكير».

ثم استدار بلا كلمة.. تفكر الأخير غارقا في بحار كلمات لم يحبها، لكنه لم يقوَ على الرد.. كلما اختار لنفسه ردا راجعه ألف مرة خشية أن يتجاوز الحدود.. ينظر إلى السماء مرتعدا ويتمنى أن لم يسمع شيئا..

- «لكن».

قالها فتوقف «حسين».. استدار إليه بلا تعبير..

- «لكنني لا أفكر بتلك الطريقة.. ما لي وهؤلاء أصابوا أم أخطأوا.. فقط أريد أن أعبد الله وأعمل صالحا وأرعى أمي المريضة».

بدا وكأن «مصطفى» لن يصبر تلك المرة.. خرج صوته صارما وغاضبا وهو

obeikandl.com

يرفع إصبعه ملوحا إليه:

- «لا تكن شيطانا أخرسَ.. لا تهرب من الأمانة وتظن أن الله راضٍ عنك.. سيهلك اللهُ الأمةَ وأنت فيها.. ولسوف تحاسَب.. ربما أكثر من هؤلاء».

ثم تركه دون كلمة واحدة.. انصرف بينما الأخير لا يقوى على الحراك.. شعور يتأرجح ما بين قناعة وفورة وشعور آخر بالانقباض.. مزيج ما بين السكينة والكراهية.. مشاعر مائعة يتمنى أن يتقيأها ذهنه كي يعود كما كان..

لا..

لكنه لن يعود كما كان..

يفترش الأرض.. ويعقد ساعديه كي تستريح عليها بقايا الأفكار.. تتأرجح ما بين استسلام مريح لأفكار أقوى وأكثر تنظيما من خرزات المسبحة وبين تفنيد لا يجد له سوى الصدى من فرط الفراغ في عقله.. لا يملك شيئا ليرد.. ويشعر من قوة مبدأ صاحبه بالصدق.. متى كان يجيد الحكم على الناس؟ لكنه لا يقوى على الرفض.. رفض الشخص أو الفكرة.. يخشى العصيان لربما كان في ذلك جرم أكبر.. تنتابه الفكرة فيغرقه الشعور القاتل بالذنب..

يرتاح رأسه قليلا في الهواء البارد.. يتذكر والدته.. يمزج الأشياء فتنتابه الرغبة الملحة في البكاء..

* * *

obeikandl.com

وحين صعدت سلم بيتها لم تستطع أن تمنع نفسها من النظر إلى باب شقته..

بدا الأمر لـ«ماري» كموقف عابر لا يرقى لذكر.. هو شخص غريب في بيت الجار «وسيم» المقرب لأسرتها، أو هي مفاجأة أطلت من خلف الباب ثم انتهى كل شيء في لحظة..

كانت «ماري» كالورقة الملساء.. لا تنطبع عليها مواقف ولا تؤرقها ذكريات فتبدو كل يوم كمولد جديد.. اليوم فقط تغمرها الأفكار فلا تقاوم.. تتساءل مذعورة عمَّا أصابها بعد أن انغلق الباب عن وجه الغريب.. تستنكر في ضعف.. كيف تأخذها لحظة عابرة للعبة الفكر تؤرجحها ليوم أو يزيد؟

تتساءل: من هو؟

رسمت صورا طفولية عنه: هارب من الشرطة.. عائد من سفر طويل.. مغترب من بلد آخر.. تتذكر ملامحه الغارقة في النعيم فتدير الحيرة رأسها وتبدو كلها قصصا عجيبة..

ثم تتساءل - حانقة - من جديد.. لماذا تفكر؟

تقنع نفسها أنه الفضول.. ترفض ما هو أكثر.. كانت بالفعل طفلة..

وكطفلة قررت أن تبتلع أنفاسها ثم تعاود الصعود في بطء.. لا تفارق عيناها الباب المغلق وكأنها تنتظر الإجابة.. يهتز الباب بريح قدم من المجهول فيلقي صوته الماء البارد على أحلامها.. تجفل من الصوت الصخب وتهوي على أرض صلبة.. تتحرك مسرعة بينما يعدو ثوبها الواسع خلفها فتبدو كسندريلا الثانية عشرة وقد باغتها الوقت ففرت مذعورة من صوت الباب..

ظنت أن الباب سينفتح.. لم يحدث شيء.. تطمئن وتتحسر.. وتواصل الهرولة كي تنهي اللحظة..

لم تسمع خطواته بينما الأفكار تسرقها.. كادت تصدمه وهو يهبط درجات السلم.. كان «رأفت» وكان صامتا كعادته ووجهه القسيم لا يتكلم سوى بعبارات خجلة لا تميزها..

- «صباح الخير آنسة ماري».

تتأمله في حيرة.. كانت شاردة كما كانت دوما فلم تعرفه للحظة.. تتمالك عقلها فتميزه.. تبدو وكأنها تراه لمرة أولى قبل أن تدرك أنه هو وأن عليها أن تكرهه..

- «صباح الخير».

تتكلم في جفاء ثم تتفاداه كي تبلغ باب شقتها.. تفتحه وتتوارى خلفه.. شعر «رأفت» بالامتنان للحظات قصيرة من ذهول بلا ازدراء قبل أن تتدارك نفسها وتتذكر أن عليها أن تجافيه.. لم يكن هذا يعنيه.. يعرف أن «ماري» الغريرة لا تعرفه، لكنها تلقنت الدنيا من قلب والدها العم «جورج» وقد لقَّنها أن تحتقر كينونته وأن تراه كشاب رقيع بعيد عن الرب والكنيسة.. هكذا لم يكن يرى فيما تفعله تلك الطفلة البريئة ما يغضبه.. فقط كان يحزن..

ينزل درجات السلم حاملا بعض الأوراق.. قرر اليوم ألا يلاقي جاره اللحوح «ديفيد» على صدر المقهى كما العادة وأن يمر على «جون».. على صديقه الحق.. كان مبللا بالأفكار الكئيبة وكان بحاجة لجلسة صادقة لا يتظاهر فيها بشيء؛ لذا قرر أن يراه اليوم.. وأن يحكي..

كان بحاجة لحديث طويل بلا رد..

لن ينتظر لقاء الكنيسة في نهاية الأسبوع..

* * *

obeikandl.com

ثم إن «صادق» توقف عند ناصية الحي.. سينتظر هنا حتى لا يلمحه والده الذي غالبا ما سيكون قابعا عند المقهى..

يعرف أن العجوز «وليم» لن يتوقف عن الأسئلة..

كان عائدا من جامعته وقد أوشك النهار على الانتصاف.. لم يحب هذه الأوقات المكشوفة، لكن «وسيم» كان واثقا لا تعنيه تلك الأمور.. كان دائما ما يردد أن هذا الحي محميّ بسكانه الأقباط.. ولم يكن «صادق» يعارضه.. أحيانا يؤكد بالحماس ذاته..

يحييه أحد المارة فيرد التحية.. ذلك حين ظهر «وسيم» من جانب الطريق حاملا كتبه.. كان عائدا من الجامعة أيضا.. رآه فأشار له وأقبل يصافحه في حميمية..

كلمات قصيرة ثم تناول «صادق» بعض الأوراق من حقيبته وناولها لـ«وسيم».. قال له:

- «قد اجتهدت قدر استطاعتي في صياغة ما أعطيتني إياه من أخبار ومقاطع من كتب وستجدها عندك لا تزيد على بضع صفحات.. أرجو أن تقرأها بعناية وتراجعني فيها».

هز «وسيم» رأسه في توتر.. قال:

- «ولماذا أخذت الأوراق معك إلى الجامعة؟».

- «لأني أعرف أنى سأقابلك بعدها».

قال «وسيم» بصوت رفيق:

- «لا تفعلها ثانية.. الحذر.. لا تحمل أشياء كهذه ما دمت خارج حدود هذا الحي».

صمت «صادق» ولم يجد ما يقول سوى هزة خفيفة بالرأس لا يدري هل هو يبالغ أم أن عليه أن يحتاط بالفعل.. في النهاية تجاوز هذا سريعا وقال:

obeikandl.com

- «ليكن.. سأنتظر منك بريدا بالمراجعة هذه الليلة.. أما لو كان كل شيء على ما يرام فأنتظر منك أن تعدها على الحاسب وتبدأ في نشرها على الإنترنت».

قال «وسيم» راضيا وهو يقلب الأوراق:

- «أنا أثق بك.. وقريبا سأنتظر منك أن تبدأ التعامل مع المواقع بنفسك».

ثم إنه قد دسَّ الأوراق في حقيبته وصافحه ثم عاود طريقه عبر الحي لمنزله، في حين اتخذ «صادق» لنفسه ناصية أخرى بعيدا عن المقهى المكتظ..

وصوت الحي المزدحم يبدو له كطبول الحرب..

* * *

الصور حرام..

لم يكن «حسين» يعني شرعا أو عرفا حين رفع صورتَي والديه عن حائط منزله وأخفاهما في ركن ما تاركا الحائط البالي بلا تفاصيل.. يقول: إن الصور حرام.. لكنه في الأحوال كلها لم يكن قلبه أقوى من طلة الوجهين الحانيين عليه كل صباح.. كان يتذكر.. يتألم.. عانى طويلا قبل أن يقرر.. أزال الصورتين في تردد وشفتاه ترددان كي يرتاح الضمير في صدره المكدود: الصور حرام..

حتى أثر الإطارين على الحائط يؤلمه.. يتذكر العزيزين ثم تفلت منه دمعة.. يهمس بكلمات قد تعلو فوق الهمس: مؤمن قوي.. مؤمن قوي.. راضٍ بقضاء الله.. الحمد لله..

obeikandl.com

الحمد لله..

لكن القبضة العاصرة لروحه لا تنفك.. يزداد همه بقلة إيمانه فتفلت دموعه أكثر.. يقرر - ككل ليلة - أن يتوضأ ويصلي.. يقرأ القرآن لهما.. يرفع كفيه أن «كل ما أفعله في مرضاتك هو من أجلهما».. يدعو لهما بالرحمة طويلا فيرتاح.. نعم.. قد وهب قوته جميعا كي يرضي ربه وقد وهب ما ملك من العمل الصالح من أجل والديه.. سيتقرب إلى الله أكثر ليرضى.. وسينير له قبر والديه بإذنه..

يتبسم لثانية وقد جال الخاطر الجميل برأسه.. يرى والده باسما في قبره.. راضيا عن ابنه.. عمله الصالح في الدنيا.. يتخيل لقاءه في الجنة.. يحدثه في خياله حتى تخرج الكلمات من شفتيه حقا.. يبتسم ويهز رأسه وقد اندمج في الحوار إلى النهاية.. يفيق من أفكاره وقد ملكته النشوة وصارت له القدرة على الحياة..

في صباح انزلقت منه السكين على خشب المائدة فأحدثت فيها علامة عميقة..

تأملها ثم أمسك السكين.. نحت في الخشب العتيق فأعجبه ما صنع.. تبسم ثم قرر أمرا في نفسه..

الصور حرام..

لم يعد يرسم منذ سنين.. أخذ سكينته واتخذ لنفسه مقعدا اعتلاه ليبلغ الحائط.. ثم - عند أثر الإطارين الذي يؤلمه - قرر أن يبدأ.. لم تكن مرة واحدة.. في كل يوم يأتي على حائطه بالسكين فينحت فيه ما استطاع.. ألهاه ما يفعل عن أحزان الوحدة والتفكير فأحبه.. ينقش أدعية الغفران.. ينحت بيده ويتمتم بشفتيه.. سوف أموت وسوف يقرؤها الناس من بعدي لأجلكما.. يبتسم للخاطرة ثم يواصل ما يفعل..

obeikandl.com

يقتله الإنهاك فينزل عن كرسيه لصباح آخر.. لا ينسى أن يلقي نظرة على ما فعل كي يشعر بالرضا ثم يلقي جسده على الفراش البالي..
ويدعو ألا تؤلمه الأحلام..
وألا يعاني من جديد..

* * *

لم تكن «ماري» تملك طرفا في حياة بنات عمرها سوى بعض الوقت تقضيه مع «تريزا»..
«تريزا» تصغرها بعام وأكثر، لكنها تتصرف دائما أمام براءة «ماري» كأخت كبرى.. لم تكن على شيء من جمال «ماري»، لكنها لم تُكِن حقدا ما.. فقط تتحاكى بذاتها لو كانت تملك نصف جمال «ماري» وكانت الأخيرة لا تفهم ما تعنيه.. تضحك «تريزا» بينما تحدق فيها «ماري» متسائلة..
لكنها - «تريزا» - كانت تحبها وتحب براءتها.. ربما يروق لها أن تلعب دور الأم معها أحيانا، وهو شيء ممتع حين تفعله مع من هو أكبر سنا..
كانت «تريزا» معها في غرفتها، وهو أمر اعتادته واعتاده أهل «ماري»، وكثيرا ما كانت الأم تراه عوضا عن حياة الفتيات التي لا تعرفها «ماري»..
تقضي معها بعض الوقت كالعادة خلف الباب الذي تغلقه «تريزا» خلفها دائما..
تتكلمان في أي شيء وكل شيء.. لكن «تريزا» دائما ما تلعب دور المعلم، بينما تتلقى «ماري» كلامها متعجبة أو غير راضية.. لكن الفضول يكون أقوى منها، وهو الشيء الوحيد الذي يجعلها تواصل الاستماع..

obeikandl.com

وحين جلست «تريزا» على الفراش وفتحت أضلع النافذة كي ترى الحي من خلفها اقتربت منها «ماري».. سألتها:

- «ماذا تفعلين يا تريزا؟».

ابتسمت «تريزا».. قالت:

- «كما ترين.. أشاهد المارة».

- «دعكِ من هذا.. أي شارع؟ ولماذا تراقبين المارة؟».

لكن «تريزا» لا ترد، فتكرر «ماري» بإلحاح:

- «تريزا.. أنا أتحدث إليك».

هزت «تريزا» رأسها في تأفف.. ثم إنها قالت:

- «لحظة واحدة».

ثم إنها أشارت بأصابعها في خفة في الفراغ فلمحتها «ماري».. نظرت إليها متعجبة ثم إنها قد اعتلت الفراش بجوار «تريزا» ودنت منها وهي تتساءل:

- «ماذا تفعلين؟».

استدارت إليها ثم ابتسمت في جذل.. قالت:

- «لقد أرسل ديفيد التحية وأنا أردها له.. جيد أنه رفع رأسه من أوراق اللعب التي لا تفارقه ورآني».

نظرت إليها «ماري» مستنكرة.. ثم إن ذعرا لا تدري كنهه قد انتابها فدفعت «تريزا» إلى الخلف وغلقت أضلع نافذتها وكأنها تحتمي في وقت الحرب..

- «ماذا دهاكِ؟».

أخذت «ماري» نفسا عميقا متوترا وقالت وصوتها يرتجف:

- «ماذا تفعلين؟ مَن ديفيد هذا؟ وكيف يحييكِ وتحيينه هكذا من خلف

obeikandl.com

النافذة؟ هل جُننتِ؟».

لم تعد «تريزا» تندهش.. فقط هزت كتفيها وقالت بلا اعتناء:

- «تبالغين قطعا! فقط أهديته سلاما.. ثم إنني أميل إليه، وهو - طبعا - غارق في حبي.. وهو ليس بالشاب اللعوب.. يوما ما سنتزوج.. أقرأ هذا في عينيه».

انتفضت «ماري» غير مصدقة.. مذعورة كطفلة صادفت مشهدا لا يعيه سوى البالغين.. الذعر ذاته والنبضات ذاتها.. قالت بصوت حاد:

- «ما هذا العبث؟ كيف تتحدثين هكذا؟ ألا تخجلين؟ كيف عرفتِ مشاعره؟ وأين قرأتِ هذا في عينيه؟ هل تقابلينه؟».

ضحكت «تريزا».. تعرف أن تلك الضحكة تثير «ماري» وهي تجد ذلك دائما ممتعا.. داعبت شعرها الناعم وقالت:

- «نحن زميلان بالكلية ذاتها ونسكن الحي ذاته.. لا تكوني حمقاء.. نعم نتحدث كثيرا ومشاعرنا واضحة لا ينقصها سوى المصارحة.. وستأتي حتما فور أن ينتهي من دراسته ويصير مضطرا لاتخاذ خطوات أبعد».

ثم أردفت باسمة:

- «هو شاب لطيف طيب وأنا أحبه.. وهو كذلك.. ما مشكلتك؟».

قالت «ماري» وشفتاها ترتعشان:

- «وهل يعلم أهلك بالأمر؟».

- «ليس بعدُ.. لكن أمي استشعرت هذا من كلامي ومن مكالماته المتكررة ولا تجد مانعا ما.. ديفيد شخص لا خوف منه وهو حنون رقيق.. أحيانا لا يحتاج الرجال إلى كلمات صريحة مستهلكة كي نعرف ما يخفونه من مشاعر.. كلماتهم الصريحة تكشف كذبا وافتعالا.. أما أفعالهم ونظراتهم فتكشف فقط حقائق تحبها الفتاة.. ديفيد حين يتكلم يجعلني أحبه

obeikandl.com

وأحب نفسي.. أحب دراستي الكريهة وشارعي الفقير.. وأشعر بأن كل شيء سيصير على ما يرام.. لن يصيبني مكروه معه؛ فأنا فوق كل مخاوف البشر».

صمتت «ماري» لثانية مترددة، ثم أعقبت بصوت باهت:

- «لكن.. هذا عيب.. أن تتحدثا كالمتحابين الآن هذا عيب كبير.. ماذا لو كان عابثا يلهو بك؟».

اعتدلت «تريزا» وربتت على كتف الفتاة وهي تقول في ثقة:

- «لست طفلة غريرة مثلك.. أعرف الرجال.. وأعرف أنه صادق».

قالت «ماري» غير فاهمة:

- «تعرفين الرجال؟ كيف؟ ومتى عرفتِ الرجال؟».

هزت «تريزا» رأسها وضحكت.. عرفت أن «ماري» ليست ندًّا في هذا النوع من المحادثات وأن ما تفعله مضيعة للوقت.. قالت:

- «دعك منه.. لنتحدث عن شيء آخر».

ثم إنها قد تركت الفراش وانسابت إلى المنضدة كي تتناول حقيبتها البلاستيكية وأخرجت منها ثوبا مرصعا وقالت وهي تستدير إلى «ماري»:

- «ما رأيك في هذا الرداء؟ لا أحبذ المجاملة وأريد رأيا صادقا».

نظرت إليها «ماري» ثم إلى الرداء شاردة.. بدا وكأنها قد نسيت كيف تكون الألوان.. ثوانٍ مرت تحدِّق في الرداء وكأنه ورقة مختومة في أرشيف حكومي، حتى إن «تريزا» قد أشارت لها بأصابعها كي تفيق وقالت بصوت لعوب:

- «ماري».

تدريجيا ترى الألوان.. تستعيد فهم الأشياء وترى أن صديقتها تنتظر رأيا في ردائها الجديد.. لكن شيئا بداخلها لم يعد متحمسا جدا.. قالت بنغمة

obeikandl.com

محايدة وهي تهز رأسها بلا معنى:
- «جميل يا تريزا.. ككل اختياراتك الرائعة».
ثم إنها تستغل لحظة التفات صديقتها إلى حقيبتها مجددا كي تحدق في الأرض..
وتتمنى أن تناديها أمها بصوتها العذب المشروخ لتطلب شيئا كي تغيب عن حديث تلك الغرفة المغلقة.. وأفكارها..

* * *

انتهى «وسيم» من إعداد الشاي.. كوب واحد لنفسه..
حمله إلى المائدة حيث يفعل كل شيء.. ألقى نظرة جانبية على الجالس في أقصى الغرفة منكبا على حاسوبه كعادته.. هز رأسه في سخرية ثم وضع الكوب على المائدة وقرر أن يتجاهله تماما..
همَّ بالجلوس.. لكن «أحمد» ناداه بإلحاح:
- «وسيم».
يرفع رأسه في انزعاج فيشير إليه.. يلح أكثر فينصاع الأخير على مضض:
- «ماذا؟ هل أنهيت إجراءات سفرك؟».
ابتسم «أحمد» مستخفا:
- «لا تقلق.. حدثت ابن عمي على الإنترنت وقد أكد لي أنه سيصل إلى مصر غدا.. سأنسق معه كل شيء.. فقط مسألة ساعات».
- «إذًا؟».
- «أردت أن أُطلعك على هذا».

obeikandl.com

ثم أدار له الحاسب في خفة ليريه حفنة من الصور.. يقلبها بتأنٍّ ليجعل «وسيم» يرى بوضوح أكثر.. يهز الأخير رأسه بلا معنى.. بلا فهم..

كانت مجموعة من الصور لمجموعة غير متجانسة من الشباب ميَّز بينهم وجه «أحمد» الأصغر سنا.. تبدو بكل تفاصيلها وكأنها قد التُقطت في بلد أجنبي.. لم يبصر في معظمها شيئا غير مألوف.. مجرد مصري يلتقط الصور مع بعض الغربيين والعرب في بلد أجنبي.. لمح صورة أو اثنتين في كنيسة أثرية.. لا شيء أهم..

- «ماذا يعني هذا؟».

قال «وسيم» بلا قناعة.. فقال «أحمد» وهو يحرك إصبعه على الشاشة:

- «هذه صوري أثناء دراستي بإنجلترا.. كنت تحت كنف عمي.. كانت أياما رائعة».

- «إذًا؟».

- «ترى.. هذا الذي على يميني هو إدوارد.. مصري يدرس بالخارج ويكبرني بعامين.. صديق عزيز ما زلت أحتفظ بصداقته للآن، لكنه ما زال بإنجلترا.. هذا الذي على اليسار هو إنجليزي.. زميل دراسة، وهو بلا دين بالمناسبة.. شيء توارثه عن أسرته.. أما هذا فهو صديق هندي يعتنق...».

قاطعه «وسيم».. أطلق ضحكة قصيرة مخنوقة وقال:

- «ومصر يد واحدة.. عاش الهلال مع الصليب.. ولن يستطيع مغرض أن ينال من وحدتنا.. عندما كنت طفلا كان صديق عمري مسيحيا.. وكان أستاذي مسيحيا.. كنا نتبادل التهاني في الأعياد ونتهادى بالكعك والأطعمة.. بل كنا نفطر رمضان سويا.. كان أخي المسيحي يرفض الأكل قبل أن يسمع صوت أذان المغرب.. ماذا أيضا؟ نعم.. كنت لا أطعم ما فيه الروح ما دام أخي المسيحي صائما.. هذا ما تريد أن تقول؟».

obeikandl.com

كان صوته يعلو حتى وصل إلى حد الصياح.. لم يُبدِ «أحمد» رد فعل.. فقط أغلق جهازه بخفة واستدار إليه..

- «ما هذا كله؟ أنا لم أقل شيئا».

- «ستقول يا زميل.. ستقول تلك الشعارات البالية.. تسامح كاذب وقصائد يغنيها المنتفعون.. ما الذي تريني إياه؟ صور.. هناك الكثير من الصور.. وهناك الكثير من الأدلة المفتعلة على تسامح دينكم.. والآن تريني المزيد من تلك الصور لتقول لي: يا وسيم.. أنت غبي لا تفهم.. ديننا دين تسامح.. ديننا يدعو للمحبة.. ما يحدث لك ولإخوانك في حب الرب هو أمر عابر من قلة مندسة.. مصر يا وسيم.. مصر».

ثم يلتقط نفسه.. يتراجع على كرسيه ويرخي رأسه.. ينظر للسماء ويهمس:

- «وتبقى القلة المندسة كي تدمرنا الواحد تلو الآخر تحت كل سمع وبصر.. تخطف الأرواح وتضيّق المعيشة وتحرمنا حقوقنا.. نتكلم فتقولون: لا، خافوا على مصر.. نحن - قطعا - مصريون، لكننا لم نعِش يوما كمصريين ولم نعطَ حقوق المصريين.. لا يا وسيم.. لا تقُل ذلك.. هذه انحرافات القلة المندسة.. كلما ظهر فيكم قاتل تنصلتم منه وقلتم إنه منشق وإن الإسلام منه براء.. منشقون منشقون.. صرتم جميعا منشقين.. كلكم جاهز ليرفع السلاح في وجه مسيحي ضايقه وكأنه عبد أو أجير.. لكن الهلال دائما مع الصليب يا وسيم».

- «لم أكن أتحدث عن ديني يا وسيم.. كنت أتحدث عن نفسي.. هذا كل ما بالأمر.. لا أفكر بهذه الطريقة وأعرض عليك صداقة عادية لا علاقة لها بالخلفيات.. لست هذا الشخص الذي تظن».

- «لا أظن.. إنه المبدأ.. قدم لي مسلما واحدا يقبل صداقة اليهودي وإن كان على أقصى اليقين بأن هذا اليهودي هو أنقى أهل الأرض قلبا».

obeikandl.com

- «لست إسرائيليا».
- «فقط أساعدك على الفهم».
ثم نهض.. كانت نبرته قد هدأت قليلا:
- «أحمد.. ربما كنت نقيا بقلبك.. وكذلك أنا.. لهذا كنت صريحا معك.. صريحا لدرجة تعلمت ألا أصل إليها، لكنني - حقا - أنفلت.. ما يعنيك أنني أحتويك في بيتي للغرض الذي أتيت له.. هذا يكفي.. ودع القلوب لرب القلوب.. لا أجد مبررا لإصرارك».
ثم استدار وعاد لمائدته.. لحظة روحانية أصابته وقد قرر ألا يستسلم لها طويلا لمن لا يستحق.. رمقه «أحمد» بنظرة أخيرة ثم عاد لجهازه وكأن شيئا لم يكن..
فقط شعر هذه المرة بأشياء لا تريحه.. لم يبدُ «أحمد» مهتما.. بالأحرى كان يشعر بالرضا.. ابتسامة منتشية على وجهه بينما تتأمل عيناه الشاشة..
لأول مرة يشعر «وسيم» بأن خلف تلك المودة قناعا لا يحب أن يراه..
كان هذا الشعور يتفق مع قناعته.. هكذا انصرف عنه وقد ارتاح عقله لهذا الشعور الجارف وقرر أن يعود لنفسه..

* * *

رمقه «رأفت» بنظرة خاوية.. قال:
- «تريد أن تهرب؟».
كان «جون» جالسا في غرفته وعيناه على ضيفه.. على طرف فراشه وفي يده كوب ساخن يمسكه بكلتا كفيه ويستمع.. ثم تنسال ابتسامة باهتة على شفتيه ويقول بصوت ضعيف:
- «أبحث عن حياة جديدة.. لقد حضّرت لكل شيء.. خاطبت خالي بأستراليا وهو على استعداد تام لأن يعطيني الفرصة».
- «تفعل كالجميع».
- «اعذرني يا رأفت.. أنت جرَّبت ولم تقتنع.. لكنني لن أكفر بشيء ما لم ترَه عيناي.. أحتاج لجو نظيف.. بلد طموح.. وبشر عقلاء».
- «فقط؟».
- «أحتاج لسقف مفتوح.. أحتاج لأحلام تتحقق».
يتنهد «رأفت» ويتأمل وجه «جون» في حيرة.. شبح ابتسامة ترتسم على وجه الأخير وقد رأى أستار الحيرة على وجه صاحبه.. ثم ارتشف المزيد..
- «رأفت.. تعرف أنني لم أكن يوما متعصبا أو غارقا في نظريات الآخر.. أنا أعيش الواقع بدقة.. لم يلقنّي أحد حبا أو كراهية.. ولهذا أقول صادقا: أنا أحب هذا البلد.. لا تعنيني الجغرافيا ولا يفيدني التاريخ؛ فليس لهذا نحب أوطاننا.. أنا أحب ذلك البلد كما يحب المواطن في مدغشقر وطنه الصغير.. هل لمدغشقر حضارة عريقة أو تاريخ طويل؟ هل بها أهرامات؟ لكن المواطن هناك لن يعشق وطني أنا لأنني أملك هذا كله.. سيظل مرتبطا بوطنه بلا منطق.. هي راحة قدمك في نعل واسع رخيص عن راحتها في حذاء فخم شديد الضيق.. حذاء يكسبك أناقة، لكنك لا تجد فيه راحتك.. قد لا يكون التشبيه لطيفا لكنه الأقرب للحق».

- «إذًا؟».

يهز «جون» رأسه ويقول في حزم:

- «إذًا أريد أن أرحل.. أحقق ذاتي في أرض لا يسألني أحد فيها من أكون.. فقط ما أصنعه.. أريد أن أعود لهذا الوطن يوما وأنا أقف على أرض صلبة.. وقتها يمكنني أن أكون ما أريد.. لن أنتظر فرصا من شخص يسألك عن دينك قبل أن يمنحها لك.. أريد أن أعود فلا يسألني أحد عن هوايتي.. فقط الناجحون يتهافت الجميع عليهم بلا عقبات ولا يكترثون للمكتوب في أوراقهم.. هل تعرف دكتور مجدي يعقوب؟».

ابتسم «رأفت» ابتسامة التقطها «جون» سريعا.. قال من بين شفتيه في تؤدة:

- «رأفت.. لا أبالغ، صدقني».

- «قطعا صدقت في أشياء.. لكنني لم أرَ الفرصة معدومة ها هنا.. وهناك من أبناء دينك أو غيرهم من يملكون لهم ولك كل الفرص».

- «ربما.. لكنني لا أريد أن أنتظر الفرص المشروطة.. أريد أن أصنع فرصتي بلا عوائق.. رأفت.. أنت وأنا يجمعنا فكر عاقل لا يحب النواح.. لكننا ينبغي ألا نبالغ في التسامح الأحمق.. نعم.. هذا البلد يحمل الكثير من العوائق لأمثالنا، فضلا عن عقبات يتشارك فيها الجميع.. هذا هو المستحيل.. لن أعيش هنا كي أجاهد في صراع أحمق لم يعد أحد يعرف من الرابح فيه ومن الخاسر.. لن أقضي عمري في حوار الطرشان هذا.. أتحدث عن المنطق في بلد يأكله الجهل ويعيش نصفه في بقاع لا يحكمها القانون ولا يصل إليها النور.. أحب أهل هذا البلد يا رأفت.. لا أفكر في دين أو طائفة.. وأعلم أن كثيرين كذلك.. لكن الصوت الأعلى هو صوت طلقة نار.. هي أعلى من صوتي وصوتك وأصواتنا جميعا.. وبه يضيع كل ما نحاول أن

obeikandl.com

نقول.. الغوغاء دائما يربحون».

- «ربما.. لكنها أشياء تتغير».

تنهد «جون»:

- «وربما لا.. لي زميل في العمل، وهو كثيرا ما ينسى أنني مسيحي؛ لذا يسقط لسانه بأشياء أسمعها صدفة وهي لا تجعلني أتفاءل.. هو شخص يظن أنني - وأنت وغيرنا - نعد لحرب مقدسة.. لو سألني على كل حال لنفيت هذا».

ابتسم «رأفت» رغما عنه بينما يواصل «جون»:

- «المسلمون يقولون إننا عملاء لأمريكا.. والكنيسة الأرثوذكسية تقول إننا - أيضا - جزء من مؤامرة أمريكية إنجيلية.. سمعت ما قيل عن دير المقطم.. شيء قاسٍ لأتباع القديس سمعان.. لكننا نعرف أيضا أن الإسلاميين عملاء للسعودية.. عمَّ تتحدث يا صديقي؟ عن المحبة.. الكل متهم بالعمالة، وهي التهمة التي لم تعد تغضب أحدا حتى صارت حقيقة.. وكأننا وطن لا صاحب له».

يبتسم «جون» في مرارة..

- «العمالة تهمة يسيرة.. وهي المبرر الأيسر كي تنكر على الآخر منطقه وأن تجعله أدنى من مرتبة الحوار».

- «لم تعرف كل شيء.. الناس في مصر ألعوبة تتبادلها الأيدي في كل وقت: سياسة، دين، رياضة، فن.. كلها ألعاب لها مفاتيح.. مفاتيحها مع أشخاص يعرفون كيف يحركون الناس كالرعاع في الاتجاه الذي يرونه الأنسب.. من هنا تأتي قوة هؤلاء الأشخاص.. من حجم ما يحركون من الرعاع».

- «أفهم هذا.. لست أجنبيا يا جون».

- «وأنا مصري ومسيحي يا رأفت.. والأهم أنني لن أكون مع الرعاع ولن

obeikandl.com

أُحسب عليهم يوما.. حتى لو أفرز الجهل والفقر والحاجة للمال ملايين منهم».

ثم وضع كوبه ونهض ليجلس على الكرسي المقابل لصديقه.. يتأمل «رأفت» المكبل بسلاسل الصمت فلم يقطع صمته.. انتظره حتى وجد شيئا يقال.. ثم نطق بكلمات مهزومة:

- «ووالدك؟».

- «تعرفه.. عاقل جدا.. ولأنه عاقل فإنه يعرف أن كل ما أقول دقيق.. غدا أصل إلى ما أريد.. لكنني لن أنتظر طويلا قبل أن آتي بأهلي إلى أستراليا».

- «لا يبدو هذا تفكير شخص يخطط للعودة».

- «أضع الاحتمالات كلها، لكنني حتما أخطط للعودة.. لا أعرف متى، لكنني لن أترك أهلي طويلا؛ فهم الجزء الأهم من بلدي.. بهم أصنع في الغربة نصف وطن».

هكذا لم يجد «رأفت» ما يقال.. فقط ابتسم لزميله وقال من بين أنفاسه وابتسامة خادعة على شفتيه:

- «تمنيت أن تبقى معي يا صديقي المخلص.. لكنها ضربة جديدة موجعة وقد صار عليَّ أن أعتاد الألم.. أتمنى لك يا جون كل ما تتمناه.. أتمنى أن تسير الأمور كما تتعشم أو ربما أفضل».

- «أتمنى لك المثل يا صديقي».

ثم مال عليه وأضاف:

- «أتمنى لك أن ترى ما تتمنى أن تراه.. هنا.. أو أن أراك هناك».

ثم أخذ نفسا غاص في قلب روحه وقرر أن يتحدث في أي شيء آخر.. قد أذاق الشاب صديقه الحائر رحيقا من التعاسة أو ما هو أعمق..

* * *

كان الليل قد انتصف.. فتح «مصطفى» باب داره عائدا من سطح الأفكار بعقل مشوش.. شقة قديمة بلا أجر تقريبا في حضن بيت بُني منذ دهور.. ينساب إلى شقته ساحبا ساقيه كالأسير.. يحمل في كفه حقيبة من أشياء «حسين» - كان قد ألصقها به - ويضع مفتاحه في جيب بنطاله بعينين لا تريان.. ذلك حين طالعه وجه أمه الطيب ينتظر فيبدو كقطعة من أثاث المنزل الخالي - تقريبا - من الأثاث.. فقط الحصير على البلاط الأبيض الخشن وأشكال التطريز المتشابكة على الحائط من صنع السيدة الفقيرة.. كانت جالسة على الأريكة.. تصنع شيئا ما بيدين مرتعشتين حين لمحت ابنها قادما فبشَّ وجهها.. ابتسمت له فانتشل من قلبه ابتسامة لها كي تطمئن.. تتكلم بصوت مبحوح محبب بينما يدنو منها:

- «حمدا لله على سلامتك يا مصطفى.. تأخرت».

ينحني على كفها يقبلها ويقول:

- «كيف حالك أيتها العزيزة؟».

تربت على كفه في وهن.. تهمس:

- «بخير.. ما دمتَ كذلك.. أريد أن أطمئن عليك يا ولدي».

جلس جوارها.. مسح العرق عن جبينها المشقوق وقال محاولا أن يبدو في أفضل حال:

- «اطمئني.. المكتبة تدر ربحا طيبا بحمد الله.. هانت.. بقيت أيام قصار على امتحانات الكلية، لكني مستعد لها بعون الله.. لا تقلقي».

تهز رأسها عالمة بأنه لن يقول لها شيئا تعيسا.. لا تعرف صدقه من كذبه، لكن رؤيته بخير كانت تكفيها.. هكذا لم تجد في صدرها غير الدعاء بصوت جهوري وكان هذا هو كل ما يحتاج..

ثم إنها قالت له:

- «أريدك أن تنهي دراستك ثم تسرع بالزواج.. أتمنى أن أفرح بك قريبا يا ولدي.. لقد عانيت بما يكفي».

لم يجد ما يقول.. لو كان شخصا آخر لضحك كثيرا حتى انسابت الحسرة من مقلتيه، لكن قلب السيدة الطيبة لم يكن يتحمل المزيد من الألم.. لو كانت أكثر صحة لحكى لها كثيرا عن حبه الذي لم يكتمل.. عن فتاة تمناها له ولم يجرؤ حتى صارت لغيره.. لم يحزن كثيرا؛ لأن مثله لم يولد ليحقق أحلامه في الدنيا.. رضي بذلك عن قناعة وترك أحلامه لربه علَّه يراها جميعا تتزاحم من أجله في الآخرة..

يقول باسما:

- «حتما يا أمي».

ثم إنه قد ضمها إليه وهمس بصوت خفيض:

- «ألن تنامي؟ الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة».

- «اذهب أنت يا بني.. سأنهي ما أصنع في دقائق ثم أخلد للفراش».

قبّل رأسها ثم منحها ابتسامة حانية وانصرف وقد عاد وجهه إلى ما كان عليه.. دفع باب غرفته فتعالى صريره ثم أضاء المصباح وانهار على فراشه مرهقا مفكك الأوصال.. يحدق في سقف غرفته المشقق كأنما لم يرَه قبلا، بينما تتعالى الأصوات في رأسه بلا نسق.. يحمل صدره أنفاسا ثقيلة..

تذكر فتحركت يده في بطء كي تفتح حقيبته.. بعض شرائط وكتب صغيرة أعطاها له «حسين» بعد خطبة طويلة.. كان مرهقا لكنه كان بحاجة لأن يسمع شيئا.. يحتاج لكف حانية تلمس روحه وتمنحه بعض ما يحتاج.. قرر أن يهرب من جاثوم الحياة للحظة ويعيش للحظات في عالمه الخاص.. قرر أن يستمع.. يُخرج شريطا ما ويضعه في فم الكاسيت المفتوح بلا غطاء..

obeikandl.com

تدور الدائرة في بطء.. ويتعالى الحديث من جديد..

* * *

يمسح وجهه من عرق كالمطر وينفث دخان سيجارته متأففا.. يغلق باب الشقة..

لم يكن «أحمد» يطيق نور الشمس - وكذلك الحي الفقير - لكنه لم يجد لذلك بديلا.. راجع ثيابه في عجل ثم نزل درجات المنزل إلى الشارع حين أدرك أن متاجر الحي موصدة بلا نقاش.. يستدير يمنة ويسرة وقد أيقن أنه تائه في الحي المكدس لا محالة..

فقط المقهى.. وفقط وجه أو وجهان من رواده..

كان «رأفت» جالسا يقلب أوراق وظيفة لم ينلها وكان شاردا كالمجذوب.. وحيدا تتحرك عيناه في كل اتجاه وقد مدَّ ساقيه يريحهما على الكرسي المقابل.. ذلك حين واجهه الشاب المبهرج وقد بدا كتائه..

- «لو سمحت».

يرفع رأسه فيقابله الوجه المقطوع من مشهد آخر في عالم لا وجود له في تلك الحارة.. يهز رأسه أن نعم وقد عرف يقينا أنه وجه قد رآه من قبل.. دار رأس «رأفت» في أشياء عدة قبل أن يجيب وعيناه لا تفارقان الوجه الغريب..

- «أبحث عن متجر مفتوح.. أريد أن أشتري رصيدا لهاتفي المحمول.. أرى أن المتاجر مغلقة».

- «إنه الأحد يا صديقي.. في كل الأحوال يمكن أن تسير في هذا الاتجاه.. ستجد مكتبة مفتوحة على الناصية اليسرى.. مفتوحة، وهي تبيع تلك لأشياء».

obeikandl.com

- «أشكرك».
- «لكن صاحبها مسلم».
قالها «رأفت» ساخرا فرفع «أحمد» حاجبيه غير فاهم:
- «ماذا تقصد؟».
- «أتذكر أنني قد رأيتك بصحبته.. أعني وسيم.. ألست صديقا له؟».
صمت «أحمد» للحظة وهز رأسه قبل أن يتدارك مقصده.. أطلق ضحكة قصيرة بينما يستطرد «رأفت» وقد أصابه الإحباط بقدر من الأريحية:
- «أنا لا أذهب إلى الكنيسة يوم الأحد.. ألم يقُل لك ذلك؟ ألم يحذرك من المنحلين من أمثالي؟».
قال «أحمد» وقد راقه هذا القدر من الوضوح:
- «إذًا فأنا لم أخطئ قراءته.. تعرفون وسيم مثلما أعرفه».
- «لا تبدو مثله إذًا؟».
فتح «أحمد» ذراعيه ليريه كيف يبدو وقال بلهجة عابثة:
- «كيف أبدو لك؟».
ابتسم «رأفت» وقد أرضاه أن الفتى لم يغضب من حديثه وأنه قد التقط ما يعنيه ببساطة.. كان مرحا طيب المعشر على ما يبدو وله عقل يختلف عن عقل صاحبه المنغلق.. قال:
- «مختلف قطعا».
ثم مال عليه وأردف:
- «ما دام الأمر كما تقول.. يمكنك أن تذهب إلى المكتبة التي وصفت لك.. ستجد هناك صديقا دمث الخلق اسمه مصطفى.. شاب رائع هو وموجود يوم الأحد».
هز «أحمد» رأسه شاكرا وكذلك فعل «رأفت».. طوَّح رأسه للخلف وكأنما

راقه الحوار بينما انصرف «أحمد» ليبحث عن تلك المكتبة المزعومة..
يهز رأسه ضاحكا فيبدو كالمجنون وقد استعاد الحوار القصير في ذهنه..
ذلك حين التقطت عيناه ما يبحث عنه.. المكتبة الصغيرة..
- «صباح الخير».
كان «مصطفى» غارقا في أوراق كتبه، كما أن وجهه كان منحوتا بالنعاس..
رفع رأسه فطالعه «أحمد» بهيئته الغريبة عند مدخل المكتبة.. تأمله للحظة، لكنه تعلم ألا يترك انطباعا على وجهه.. كما أنه تعرف ذلك الوجه وتذكره.. كان ضيف «وسيم» الذي يؤويه منذ يومين..
- «صباح الخير».
أشار «أحمد» له بما يريد ثم طلب أشياء أخرى: أقلام وأوراق.. ثم مد يده إلى جيب بنطاله..
- «تفضل».
ثم ناوله الورقة الضخمة فتناولها «مصطفى» ونادى طفلا صغيرا يلعب في الجوار.. هؤلاء الرجال قصار القامة الذين يملأون الحارة ويفعلون أي شيء.. يناوله الورقة ثم يأمره أن يذهب كي يحضر له «الفكة»..
يبتسم ابتسامة صافية ويقول:
- «لحظة واحدة.. سأحضر لك الباقي».
هز «أحمد» رأسه ألا مشكلة.. كان باسما فقرر «مصطفى» أن يحدثه:
- «حضرتك ضيف الأستاذ وسيم.. أليس كذلك؟».
- «بلى.. هو كذلك».
أشار له أن يتفضل بالجلوس ففعل شاكرا.. قال:
- «قريب أم صديق؟».
كان «أحمد» قد اعتاد أسئلة الناس فلم تعد تطفلا.. يعرف ألا علاج لها

obeikandl.com

سوى إجابة شافية أو سؤال آخر..

- «صديق.. هل تعرف وسيم؟».

- «قطعا.. جار محترم».

- «أعني.. تعرفه شخصيا؟».

لم يفهم «مصطفى» فحوى السؤال، لكنه لم يجد في زبونه شيئا يوحي بالتلاعب.. أجاب بعد تفكير:

- «معرفة جيران لا أكثر.. شخص طيب هو».

ابتسم «أحمد» ابتسامة أخفت كثيرا من سخرية، لكنه لم يعلق.. عادت ملامحه سريعا لما كانت عليه فلم يلاحظ «مصطفى».. لكنه - «أحمد» - استطاع أن يقرأ من كلمات الشاب مجهودا كبيرا بذله كي يخرج هذه الكذبة.. كان - حتما - يكذب..

ابتسم «أحمد» وقال:

- «أنا أحمد النادي.. زميل دراسة لوسيم وضيفه مؤقتا».

حدَّق فيه «مصطفى» للحظة غير مصدق.. بدا وكأنه لم يفهم:

- «أحمد؟».

ابتسم «أحمد» دون فهم وكرر مفسرا:

- «هو كذلك.. أحمد.. ما المشكلة؟».

قرر «مصطفى» أن يتجنب المنعطف سريعا.. قال:

- «آه.. أهلا وسهلا.. أنا مصطفى.. السنة الرابعة بكلية الحقوق».

- «جامعي؟ تعمل وتدرس.. هذا كفاح أحييك عليه».

ابتسم «مصطفى» ابتسامة مرتبكة.. كان حائرا، لكنه حاول ألا يبدي شيئا واكتفى بعبارة شكر قصيرة حين حضر الصبي ومعه المال.. تناوله «مصطفى» ثم ناوله «أحمد» الذي ابتسم شاكرا وقال:

obeikandl.com

- «تشرفت بمعرفتك يا مصطفى.. حتما لنا حديث آخر».

- «لي الشرف أستاذ أحمد».

هكذا استدار «أحمد» منصرفا.. يودعه «مصطفى» قبل أن يلقي عليه «حسين» السلام وعينا الأخير لا تفارقان الشاب المغادر عجيب الهيئة تتفحصانه في اهتمام..

- «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته».

لم يُطِل «حسين» النظر للمغادر.. صافح «مصطفى» وعلى وجهه ابتسامة صادقة وقدر من البِشر.. كان «مصطفى» منهكا، لكنه ربما كان في حاجة إلى حديث يشغله.. ربما يحتاج لشخص يقلب له أفكاره التائهة في كهوف مخاوفه..

- «ها؟ قرأت أو سمعت شيئا مما أعطيتك يا مصطفى».

- «فعلت».

- «ما رأيك؟».

تنهد «مصطفى».. لم يكن يتوقع مراجعة سريعة ولم يكن قد جمع شتات أفكاره أمام نفسه بعدُ.. هكذا قال بلا مشاعر:

- «لا أدري يا حسين.. كلام جميل.. أحببت أكثره، لكنني لم أستسغ كل ما سمعت.. ما زال أمامي الكثير».

- «لماذا؟».

- «لا شيء.. هناك أشياء كثيرة أفهمها.. لكن هناك زاوية جديدة لم أرَ منها الدين من قبلُ.. فقط أحاول أن أستشعر الحق».

ابتسم «حسين» ابتسامة عطوفا.. دعاه للجلوس ثم جلس معه.. داعب لحيته وقال بتؤدة:

- «ستظل تفكر ما دام عقلك الباطن مشبعا بأفكار مغلوطة لا ذنب

لك فيها.. أشياء زرعها النظام والمتشدقون بأعراف مستباحة تحت اسم الحرية.. يصفون أفكارنا بالرجعية وأفكارهم بالمتقدمة.. لم يقرأوا التاريخ يا صديقي أو أنهم ينكرونه.. لو قرأوه لعرفوا أن أفكارنا المتخلفة هي من صنعت حضارة الإسلام وأن أفكارهم الغربية قد لازمت الأمة حتى أسقطتها.. متى تمسكنا بإسلامنا ولم ينصرنا الله من قبل؟ ثم يتهموننا بالتطرف.. هل تعرف؟ للتطرف وجوه عدة.. فإن كان تمسكك بتلابيب الدين تطرفا فإن التنصل من هذا الدين وخلق مجتمع منحل بصورة مقصودة ومخططة وبشتى الطرق هما نوع من التطرف المضاد.. التطرف من الاعتدال إلى الفساد.. إعلام.. فن.. صحف وكتابات كلها تدعو إلى الانحلال.. توهن النفوس.. من المستفيد من هذا كله؟ ومن يحركه؟ حتما تفهمني».

هز «مصطفى» رأسه عاجزا..

- «وللغاية ذاتها، إعلام يدفعك للنفور من كل جلباب أبيض.. تخشى كل ملتحٍ وكأنه سيقتله.. تحدثه بحذر.. بينما تقبل هذا الذي يشرب الخمر وكأنه شخص عادي.. ربما يصير بطلا كما تصوره الأفلام.. والسؤال: من منا الأخطر عليك؟ من يخاف الله أم من لا يخافه؟ أليس هذا تطرفا في الفكر؟».

لم يجد «مصطفى» ردا يقال.. كان الفكر قد أعياه فلم ينطق..

- «مصطفى.. صدقني.. لسنا من تظن.. لو كانت أموال الخارج تغرقنا ما مات والدي قبل أن أجمع له مال عمليته.. تعرفني وتعرف حالي.. لكنها صورة تلقاها أصحاب الأقلام بأوامر عليا كي يجعلوها على كل لسان.. دائما أقلامهم جاهزة ودائما يربحون من توجيهها حيث يشاء هؤلاء».

- «تعلم.. والدتي.. لا أملك لها سوى شهادة تفرحها وعمل يسترها».

- «بار بوالدتك.. هذا شيء طيب يحبه الإسلام.. لكن عليك أن تتذكر دائما أن حسابات العقل قد تفسد الملة.. فلو حسبت كل شيء بحسابات الدنيا ونسيت أن الله هو المصرِّف وأن تقوى الله هي المنجَى فقد أخطأت الحسبة.. وهذه هي ذريعة كل الهاربين من حكم الدين».

- «صدقت.. لكن هناك أشياء يبدو لي أنها صعبة التطبيق.. لقد تغيرت الدنيا كثيرا يا حسين».

ابتسم له «حسين» ابتسامة افتقدها «مصطفى» كثيرا وقال له:

- «لا تقُل هذا.. هم من غير تلك الدنيا.. هذا هو الفكر العلماني الذي يحسب الأمور بمبدأ العقل وحده ويلغي شرع الله وقدرته في الأرض.. ولو تمسكنا بديننا منذ عهد الخلفاء لصرنا الأقوى ولسارت الأمم على شرعنا واتبعت كل ما نفعله من أجل المعاصرة».

هز «مصطفى» رأسه موافقا.. مستسلما لهذا الفيضان المسترسل الواثق.. واصل «حسين» بنبرة خافتة بطيئة:

- «لا تحسبنا نسفك الدماء يا مصطفى.. لسنا سفاحين.. لكننا درع الإسلام.. ندافع عن شرور تتربص بديننا من خارج الأرض وداخلها.. علينا أن نكون أقوياء.. نرهب عدو الله.. ونجعل من يريد أن يغدر بهذا الوطن من خارج الملة يفكر ألف مرة.. وما داموا يلجأون للقوة.. وما داموا يستهدفوننا فنحن لهم بالمرصاد.. وبقوة أشد من قوتهم.. والحق معنا».

هز «مصطفى» رأسه وخرج صوته مبحوحا بالإيجاب فابتسم له «حسين» مشجعا ونهض وهو يقول:

- «أراك بعد أن تنهي ما أحضرت لك من كتب وتسجيلات.. وأتمنى أن أراك في محاضرة الأسبوع المقبل في المسجد».

ثم ربت على كتفه وألقى السلام منصرفا.. هكذا أراح «مصطفى» ظهره

obeikandl.com

وعاود الجلوس وصوته يجيب بصوت واهن:

- «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته».

لكنه حين غادر فم المتجر واستدار بحثا عن الضيف الغريب لم يجده.. كان «أحمد» قد قطع جزءا من الشارع بالفعل بعيدا عن حديث الصاحبين في المكتبة حين اضطرته الحياة أن يتوقف.. قرب باب المنزل كانت تبتاع أشياء من متجر خضراوات مفروش على الأرض وكأنها تقرر مصير البشر.. متأنية حائرة كما ينبغي للسحر أن يكون.. عرف اسمها.. «ماري».. كان ضوء الشمس الباهي قد كشف له كل تفصيلة لم يرَها حين المرة الأولى.. الآن يدرك أنه قد كان على حق.. هي شيء ما كان ولن يكون.. تحرك أصابعها كصنبور من ماء بارد شفاف كي تداعب ثمار التفاح المحظوظة في حنان.. تقلبها وكأنها تتحدث إليها.. تتحرك يمنة ويسرة في رشاقة فتتسع عيناه ليلتهم المزيد من التفاصيل ويتخيل ما ينقصه.. لم يكن أبدا هذا المراهق المشدوه ولم يكن يوما محروما من كل أنواع النساء.. لكنها كانت تختال غير عامدة.. تخلع القلوب بينما يحل الذعر المبهم في ملامحها.. الذعر من لا شيء.. خوف الوردة الندية من غابة غادرة ومن أنياب متوحشة تقتلع كل شيء فلا تميز.. تحرق العيون بحركات الجسد.. حركات عفوية بريئة لا تلك التي اعتادها من غانيات النساء.. في هذا كان سحرها.. في هذا وجد أنه كالمجذوب يرمقها..

لن يستنكر نفسه.. لن يقول لماذا.. فقط سيستمتع بالجمال الدافق هذا بلا عكر..

مرت دقيقة.. وهي كالغريرة لا تراه.. أدرك أن رمال اللحظة سريعا ما ستتهاوى إلى قاعة الساعة لتعلن أن المشهد قد انتهى.. وجد نفسه وقد ألهبه شعوره وتملَّكه العناد.. أخرج يده في خفة.. كان يعلم بخطورة ما

سوف يفعله بين هؤلاء القوم الأشبه بحشود الهجم، لكنه قرر أن يفعلها في الخفاء.. تناول هاتفه.. صوَّبه في حذر دون أن تلحظه عين.. انتظر حتى واشك وجهها البلوري أن يراه وصارت كلها ملكا لكادر التصوير..
التقط الصورة..
ثانية ثم انسحبت يده مجددا إلى جيب بنطاله.. يرى في عينيها أنها قد رأته.. يرى في ذعرها وانتفاضة جسدها الساحرة أنها قد عرفت بما حدث..
رآها لكنه كان يعلم يقينا أن هذا الملاك لا يقوى على شيء أكثر..
انسحب من المشهد مسرعا وقد اكتفى بكنزه الثمين.. لم يرد أن يقتلها قتلا بداء الخجل وقرر أن يتركها حتى تبتلع ما حدث..
لا يدري..
هل يطمع فيما هو أكثر؟!

* * *

أغلقت «ماري» باب الشقة خلفها..
مذعورة تمسح العرق الذائب عن جبينها ثم تلقي ما تحمله من ثمار على المائدة قبل أن تسقط به.. رحلة السوق التي لا متعة فيها سوى في بعض كلمات تقولها أمها راضية كلما تفقدت ما أتت به ابنتها الصغيرة التي صارت حاذقة.. تلتقط أنفاسها وقد هالها ما حدث.. لم تكن تتوهم.. هذا الغريب كان هناك.. كان واقفا من أجلها.. وحتى كان يصورها بهاتفه.. ترتجف وتحاول أن تمسك لجام قلبها كي يعود إلى النسق قبل أن يتوقف من فرط السرعة.. أشياء عجيبة تتلاعب بإحساس الطفلة الغريرة فلا تفهمها.. لم تكن تشعر بالسعادة.. بالأحرى لم يجد هذا الشعور لنفسه

obeikandl.com

طريقا بين شعور بالفزع، بالخوف من هذا الذي تشعر به.. ربما الخوف من هذا الغريب كذلك.. خوف لا تحكمه كينونة هذا الشخص بقدر ما هو خوف مما يمكن أن يفعله هذا الشخص بكيانها هي.. هي لا تفهم بما تشعر.. لكنه شعور الطفل حين تتركه أمه للمرة الأولى كي يغدو إلى فصله.. يصير وحيدا فيرتجف.. ويخاف من كل لحظة مقبلة..

شيء ما بداخلها كان يرتجف باللذة.. بالفرحة.. لكنه لا يقوى على الكلام.. صبي صغير لا يرتفع صوته على صوت الحيرة والمخاوف التي تكبره.. هكذا تشعر أن عليها أن تبكي.. تبكي على الرغم من أنها لم تكن حزينة أبدا..

ثم سمعت صوت باب الشقة المقابلة فأجفلت..

تستدير ملهوفة كطائر صغير وتعدو نحو الباب كي تفتح شقا من الزجاج وترى.. تتفقد مَن القادم لا تدري كيف تحولت خواطرها إلى رغبة ثم أفكار وأفعال..

لكنه كان «وسيم».. هكذا انقلبت ملامح وجهها ولم تبدُ راضية.. يندلع صوت أمها من قلب المنزل باسمها فتنتفض وتغلق الباب مذعورة..

- «ماري.. أهذا أنتِ؟».

تقفز كغزال مذعور وتتناول حملها من فوق المنضدة.. تستر روحها في سرعة وتغدق على قلبها العاري بورق التوت..

ترد بصوت مبحوح:

- «نعم يا أمي».

ثم تتحرك ناحية المطبخ حيث أمها - كعادتها - سجينة الجدران المتلاحمة..

تقول الأم:

- «أحضرت كل شيء يا ماري؟».

- «نعم».

obeikandl.com

ثم تناولها الحقائب فتبتسم الأم في رضا وتقول:
- «هذه ابنتي الطيبة المطيعة.. حقا كم هو محظوظ».
لم تكن «ماري» تملك شيئا من عقل بنات جنسها فلم تفهم.. تفتح فاها في بلاهة كما ينبغي لطفلة وتردد:
- «محظوظ؟ من؟».
ضحكت أمها ضحكة مستمتعة:
- «ذلك الأحمق.. زوجك يا بلهاء».
تبتلع ريقها في صعوبة ولا ترد.. كانت أبسط من أن تجاري أمها في ذلك فصمتت.. تمسكها أمها من كفها وتسحبها إلى الصالة فتزداد الفتاة توترا:
- «ماري.. أريدك أن تسمعيني جيدا قبل أن يأتي والدك».
- «خيرا يا أمي».
تداعب «ماري» خصلات شعرها متوترة.. بينما تميل عليها والدتها قائلة:
- «اسمعيني جيدا يا ماري.. ربما لم يتقدم بصورة رسمية لكن تلميحاته لوالدك كانت شديدة الوضوح.. يخشى أن ترفضيه لكنه يتمنى».
يحتقن الدم في وجهها وتقول بصوت كسير:
- «من؟».
- «لا تكوني غبية يا ماري.. أتحدث عن وسيم.. يحبك كأحمق لكنه يخشى أن ترفضيه.. هذا أمر واضح كالشمس».
تنتفض «ماري».. كانت تخشى أن تقولها وكانت تتمنى ألا تأتي هذه اللحظة أبدا:
- «أمي.. لكن...».
- «ماري.. نعرف أن وسيم فقير مسكين.. لكننا لا نبحث عمَّن يدفع.. نحن نبحث عن شخص نأتمنه عليك.. أين هذا الشخص في هذا الزمان؟ تعلمين

كم يحب والدك وسيم ويعتبره ابنا له.. وسيم عبد مخلص للرب.. شاب نادر.. من يأتمنه الرب على دينه فكيف لا نأتمنه نحن عليك؟! يكفي أنه قد تربى بيننا منذ أن صار يتيما».

- «أمي».

لا تقوى على مقاومة الفكرة الكريهة.. هكذا أكملت أمها:

- «لا تخشي شيئا.. وسيم ابن مخلص للكنيسة.. حتما سوف تساعده في الزواج.. لن تكون هناك تضحيات يا ماري».

كانت الفتاة قد غرقت في عرق صدمتها.. لم تجد ما تقول.. فقط تسمع من بين أنفاسها:

- «لكن.. وسيم.. أنا لا أتخيله...».

لم تجد ما تقول.. لكن أمها ربتت على كتفها الصغيرة في حنان ولم تتركها تكمل ما لم تجد شيئا تقوله..

- «أجمل ما فيكِ يا ماري أنكِ لست ككل البنات في سنك.. أحسن والدك تربيتك وعلمك أن تكوني عاقلة.. فتاة مطيعة تحب الرب.. والرب كذلك يحبك.. ولهذا - حتما - ستفهمين ما أقول.. لن تخدعك المظاهر التي تخدع غيرك من الحمقاوات.. ستختارين من يحميكِ ويصونك لا من يبهرك بوسامته أو بكلام أحمق معسول».

لم ترد.. أطرقت حائرة متوترة..

- «أنت ابنتنا الوحيدة يا ماري ولن نجبرك على شيء تكرهينه.. أنا أثق بعقلك وأخلاقك.. فكري يا ماري.. فكري كما تشائين».

ذابت «ماري» في أفكارها حين انفتح الباب فأجفلت.. صوت والدها ينادي.. هكذا قامت أمها وأشارت لها وكأن شيئا لم يكن..

تواثبت «ماري» خلف أمها وكأنها تهرب من لا شيء.. شعرت وكأن العالم

obeikandl.com

كله سيحاصرها بالأفكار ذاتها..
قررت أن تهرب مؤقتا وأن تحتمي بفراشها الصغير..

* * *

كان منهكا..
«رأفت».. يسند جبينه الأبيض على كفيه المتشابكتين ويفكر.. كان جالسا على طرف فراشه داخل أحضان شقته.. التي تعج بلمسات تجمع الراقي بالعتيق كشأن كل من عاد ببعض الأموال وأصر ألا يترك منزله.. مستغرقا حين تقدم منه والده وأسند يده إلى كتفه ثم أخذ لنفسه مجلسا بجواره.. لم يكن هناك ما هو أحب لـ«رأفت» من جلسة والده تلك، لكنه اليوم كان يحتاج ما هو أكثر.. وكان والده يفهم..
- «تعبت؟».
رفع «رأفت» وجهه لوالده فوجد في عينيه نظرة رفيقة.. ما أجمل أن ترى صورتك في الشباب تحيا أمامك من جديد.. وما أقسى أن ترى تلك الصورة الجميلة سابحة في الحزن.. هكذا فكر الأب.. ولهذا سأل.. لكن ابنه لم يكن يملك ما يقول ليريح والده كغير ما اعتاد:
- «تعلم أنني أحبك.. أحب عقلك وقلبك.. أومن بكل ما تقول وأعلم أنك - حتما - على حق.. أخاطب الدنيا كلها بلسانك لا بلساني.. عن طوع وعن قناعة.. وعن حب».
تنهد والده..
- «لا أدري.. اليوم خسرت فرصة عمل جديدة.. لا أحب أن أصدق أنني

قد خسرتها لأنني مسيحي.. كما لم أحب أن أصدق ذلك حين خسرت تعيين الجامعة.. أقول لنفسي إن مسيحيا قد تعيَّن بالجامعة.. وإن مسيحيا آخر قد تعيَّن بوظيفة مشابهة.. هذا يجعل الأمر مقبولا».

يقول والده:

- «وما الجديد يا رأفت؟ أعلم كما تعلم أن هذا موجود.. البعض يفهم والبعض لا يفهم.. البعض يخشى الرب والبعض لا يخشاه.. ومن يؤذينا لأننا أحباب الرب فأهلا بأذاه.. هو لنا خير والرب عنده كل الخير.. لكننا كذلك نعرف أن هناك من بقلبه ضمير وبعقله حكمة.. له منا كل الحب.. وبهذا تستوي الحياة.. وهذا هو دين المحبة».

- «أمريكا بلد بلا دين.. لم أحب ذلك.. لم أحب جرأتهم على الرب وسخريتهم من كل ما هو جميل مقدس.. لكنني لم أعانِ ذلك يوما».

ابتسم والده في حنو.. مال عليه وقال:

- «ربما لم يقللوك لدينك.. لكن ربما لسبب آخر: أصلك.. لونك.. أفكارك.. أنت بالنسبة إليهم كائن أقل.. هو أمر تراه في أعينهم.. لكنهم تعلَّموا أن يتجاهلوا هذا كله وأن يقفوا فوق السطح من أجل مصالحهم.. ما دمت فعالا مهما فأنت محترم.. فإن لم تكن فإنك تحت التصنيف.. عربي.. أفريقي.. آسيوي.. كائن مقزز للفرز.. لا يكفيك يا رأفت أن تكون مسيحيا لكي يحترمك هؤلاء».

- «وقد كنا.. تعرضنا لبعض المضايقات، لكننا حظينا بالعدل».

- «لأننا ملكنا أسباب النجاح.. لكننا في هذا البلد لم نفهم بعدُ.. لم نعتد الوقوف فوق العبث الأحمق من أجل المصلحة.. نترك السقف لنتعارك في القبو.. هو بلد مسكين لا تجد من يحبه بصدق سوى بكلمات جوفاء.. هناك مسيحي يفكر في الهروب بدينه وهناك مسلم يبحث عن هويته

المسلمة تحت أي مسمى.. وهناك قادة بلا عقل.. وهناك مفسدون من الداخل والخارج.. تفهم؟».

هزّ «رأفت» رأسه.. قال:

- «ضاق بنا البلد.. بلدنا أم بلدهم؟! أحاول أن أعبِّر بأفكار معتدلة.. صرت أعرض أفكاري تلك بمناسبة وبلا مناسبة فيقابلني المسيحي بالسخرية والمسلم بعدم التصديق.. صرت أشبه بالمجنون».

- «ستجدهم.. هؤلاء الذين من نفس طينة قلبك.. ستتقابلون وستكونون أقوى.. حين يتعلم الناس.. حين يقرأون.. حين تختفي الفوضى وترقى جحور البشر فتصير كسائر الشوارع.. ساعتها فقط ستظهرون على السطح بلا تهليل.. لكن بصدق.. فقط اصبر ولا تسلم عقلك لأحد».

يبتسم «رأفت» ابتسامة شاحبة.. كلمات تشعره بأنه نبي في زمن لا أنبياء فيه.. ينظر لوالده ويقول:

- «سأصدق هذا كله.. سأقبل أن يكرهني أو يتجنبني مسلم.. لكنه ذلك الوضع العجيب يا أبي.. أخفي هويتي عن الناس.. جيراني المسيحيون يحسبونني شابا رقيعا.. ذلك الأحمق وسيم يرمقني بامتعاض في كل مناسبة وقد قالها لي صراحة بأنني لا أتردد على الكنيسة.. هذا أمر لا أقبله.. أتسرب كاللص كل أحد.. أراقب كلماتي وأسمع ما لا يعجبني في ديني فلا أرد.. فلماذا هذا كله؟».

تنهد والده ثم أطرق.. هز رأسه ثم قال بصوت خفيض:

- «رأفت.. عائلتك كلها من الأرثوذكس.. لن يقبلوا تحولنا إلى البروتستانتية.. هو شيء حدث في الولايات ولا يعرفون عنه شيئا».

- «هذا الكذب أعياني.. لم نعد كالعهود الوسطى.. لن نتقاتل كالحمقى».

- «لا قتال.. لكن عداء وشك.. هي العقول غير السليمة في أي مكان..

لو ظل الغرب يتناحر على ذلك لانقرض منذ قرون.. فقد جرَّبوه.. هم يعلمون ذلك جيدا.. لكننا لم نفهم ذلك للآن.. على أفضل الفروض فإننا سنتعرض للقطيعة وكثير من العداء من أهلنا.. فلماذا عدنا لهم إذًا؟».

قام «رأفت» من جلسته وقد انتفض جسده.. ضغط على كلماته.. قال في يأس:

- «المزيد من الأكاذيب.. المزيد من غربة الوطن.. أخشى أنني سأهرب من تلك الجيرة والقربى قريبا.. ربما أراجع عودتي للولايات قريبا كذلك».

ثم استأذن والده منصرفا.. أراد ألا يتجاوز.. لكن كلماته خرجت عصبية متوترة.. شيء لم يقدر والده على اعتراضه، لكن قلبه كان يحترق.. فقط رسم الصليب على نفسه في صمت وراقب «رأفت» وهو يعود لغرفته.. ثم أخذ يصلي له.. صلى طويلا حتى جفت شفتاه..

* * *

obeikandl.com

الفصل الرابع

من نص أوراق ضائعة كتبها أحدهم:

- «أنا مصري مسيحي في زمن اليأس.. لا يبدو السادات رجلا للحرب، وقد صرنا على يقين أن سيناء قد ضاعت مع عبد الناصر.. نحن في زمن الأكاذيب.. لا تجد في الصحف شيئا مما يقول الناس في الشارع.. كذلك حادثة الخانكة.. سطور مقتضبة عن مأساة شغلت الجميع.. الكل يبحث عن حقيقة هذا الاعتداء الغاشم.. نحن كمسيحيين نحلم بمزيد من الحقوق ولا نشرع بالرضا.. لكن - والحق يقال - لم يصل الأمر يوما للاعتداء والتدمير.. هذه نقطة تثير الغضب وقد تصير نقطة فارقة في تاريخ هذا الوطن.. هكذا فسر الشارع المسيحي تلك الجريمة بميل السادات - على عكس سابقه - للتيارات الإسلامية المتعصبة كسلاح ضد الفكر الشيوعي السائد وما سيعنيه ذلك من دعم النظام لجرائم قد تحدث ضدنا.. الشارع المسلم يتحدث عن أمر آخر.. عن سياسة كنسية جديدة تعلن عن نفسها وتسعى لفرض قضيتها على النظام، ما أدى للصدام.. وقد أعطى هذا انطباعا عن صراع قادم بين السادات والكنيسة.. لن تعرف الحقيقة يوما.. لكنني في كل الأحوال لم أحب ما أسمع.. هذا هلاك وشيك».

obeikandl.com

حوار بين مجموعة من الشباب على صفحة منتدى إسلامي «حقيقة أحداث الزاوية الحمراء»..

الموضوع: السلام عليكم إخواني بالمنتدى.. هذا الموضوع هو تجميع وإيجاز لموضوعات أخرى، وكذلك لبعض القراءات خارج الإنترنت، وهو اجتهاد شخصي أحاول أن أكشف فيه لكم حقيقة ما يزعمه النصارى ويشيعونه في العالم حول اضطهادهم في مصر..

كثيرون لا يعلمون أن ما عُرف باضطهاد النصارى في مصر في الفترة الأخيرة لم يبدأ سوى في بداية السبعينات بعد تغير القيادات الكنسية التي استهلت قيادتها بما يُعرف بحادثة الخانكة التي كانت المرة الأولى التي تتحدث فيها القيادات الكنسية عن الدم فداءً للمسيح.. كثيرون يعتبرون أن هذه الحادثة التي شهدت تظاهرات كبار رجال الكنيسة كانت إعلانا عن سياسة جديدة تعلنها الكنيسة في بداية حكم السادات، وهي سياسة تميل لأخذ ما يرونه حقا بالقوة.. البعض يفسر ذلك بأن قيادات الكنيسة في هذا الوقت كانت من بقايا تنظيم الأمة القبطية التي كانت تهدف إلى التخلص من الحكم الإسلامي لمصر وإعلان الدولة القبطية في أوائل الخمسينات قبل أن يتم التعامل مع هذا التنظيم أمنيا.. واستمرت سياسة الكنيسة الجديدة في التناحر مع النظام الحاكم حتى جاءت حادثة الزاوية الحمراء الشهيرة.. التي ما زال الكثيرون لا يعرفون تفاصيلها الدقيقة، خاصة أن النصارى دائما ما يسردون القصة بأنفسهم وتجد الحكومات الواهنة الحالية تحرجا في سرد الحقائق..

فحادثة الزاوية الحمراء لم تكن إلا محاولة لإثارة الفتنة والضغط على الحكومة المصرية بورقة الاضطهاد الديني، خاصة بعد أن صار قلب مصر

مفتوحا على الدول الغربية، وعلى رأسها أمريكا، بعد خطوات السادات الانفتاحية.. والأصل في القصة هو نزاع على قطعة أرض عادية.. ولكي يضع النصارى أيديهم عليها إلى الأبد أشاعوا أنهم سيبنون عليها كنيسة، ما أصاب المسلمين بالجنون، فقرروا أن يضعوا أيديهم عليها ويجعلوها دارا لتحفيظ القرآن.. ساعتها قررت الكنيسة أن تستعرض قوتها على الجميع واعتدت على الأرض التي استوطنها المسلمون.. لم يراعوا حتى الأطفال الذين يقطنون الدار وأطلقوا النار على المكان.. كان استنفارا عاما من النصارى وبدأت الحرب في المنطقة.. كان الظاهر هو النزاع على الأرض، لكن الحقيقة هي الإعلان عن قوة النصارى في مصر.. ما حدث بعد ذلك لم يكن سوى تبعات لأعمالهم.. لكن دمهم لم يكن يعني قادتهم ما دام يخدم القضية.. ولأن الحكومة المصرية كانت قلقة من حملة الإعلام الغربي فقد قررت أن تراضي الأطراف وتعمل على التهدئة وتبسيط الموقف.. ما سمح للنصارى بسرد القصة وكأن الطرف البادئ هو المسلمون..

التعليق الأول: أنا من ساكني الزاوية الحمراء، وقد سمعت بالفعل أنهم أطلقوا النار على الأطفال على الرغم من أن هذه القصة لا يعرفها أحد.. وشعرت بالحزن حين رأيت بعض الناس يدافعون عن النصارى ويصفونهم بالضحايا.. للأسف حكوماتنا الحالية تداهن النصارى بطريقة مؤسفة..
الرد: معكِ كل الحق؛ لهذا فأنا أكتب هذا الموضوع وغيره من المواضيع حتى لا تتوه الحقائق ولا يأتي الزمن الذي تتحول فيه هذه الأكاذيب إلى حقائق.. بارك الله فيكِ أختي الكريمة..

التعليق الثاني: حضرتك متأكد من الكلام ده؟ أصل الكلام ده لو بجد تبقى مصيبة.. ويبقى همّ فعلا بيضحكوا علينا.. أنا فعلا كنت متصور إنهم ضحية..

الرد: أخي الكريم.. هذا تجميع لمعلومات حصلت عليها من الإنترنت ومن بعض الناس الذين عاشوا الحادثة، وأرى أنها تتفق تماما مع توجه الكنيسة في تلك الفترة.

التعليق الثالث: لا حول ولا قوة إلا بالله.. وهل مصر ينقصها البلاء حتى يُدخلنا هؤلاء في بحور من الدم من أجل حقوقهم المزعومة؟ أي حقوق؟ يا ليت للمسلمين بالخارج نصف حقوقهم في أرضنا.. لا حول ولا قوة إلا بالله.

obeikandl.com

«٤»

لم يسمع «وسيم» صوتا حين استيقظ..
كانت الساعة قد جاوزت السادسة مساءً.. نوم عميق غاص فيه بعد نهار حافل بالمحاضرات وحكايات الأساتذة وثرثرة في كل شيء.. لكن عقله الخائف دائما لم يجعله ينام أكثر.. وحين فتح عينيه لاحظ ألا صوت هناك.. حتى صوت الطرق على أزرار الحاسوب.. هذا ما لا يبدو معتادا..
يفتح الباب فيضرب النور الفاقع عينيه.. وينقلب وجهه بعدم الرضا..
كان «أحمد» واقفا عند ركن منزله.. يتأمل تماثيله ولوحاته في استخفاف ثم يمد يده ليلتقط تمثالا للسيدة العذراء.. كان رأسه غارقا في الدوار، لكنه استند بكفه على الحائط وجرى غاضبا نحو الشاب الشارد فيما يفعل.. يمسك ذراعه غاضبا ويهتف:
- «ماذا تفعل؟».
انتفض «أحمد» فكاد يفلت التمثال.. أمسكه واستدار لـ«وسيم» الذي جذبه منه وأعاده إلى الرف بحركة عنيفة ثم أمسك ذراعه وقد أصابه مس من جنون:
- «ماذا تفعل؟ كاد يسقط.. لو تهشم هذا التمثال لقتلتك».
سحب «أحمد» يده في رفق، لكن وجهه أظهر قدرا من السخط.. قال في صرامة:

- «ماذا بك؟ لم أفعل شيئا يستحق غضبتك.. تمثالك كما أمسكته.. لم أطعم منه شيئا».

- «ولماذا أمسكته؟ ما لك وتمثال العذراء؟ هل جئت لتلمس البركة أم جئت لكي تعبث به؟».

أفلتت من «أحمد» ابتسامة ساخرة.. همس:

- «بركة؟».

- «هل تسخر من العذراء؟».

قالها والنار تأكل تلابيب وجهه، لكن «أحمد» لم يغير لكنته:

- «لا أسخر.. أمسكت التمثال لأتأمله.. ما الغريب فيما فعلت؟ أتأمله كأي تمثال آخر».

- «لكنه تمثال العذراء.. ما شأنك به؟».

بدا وكأن «أحمد» قد فاض به الكيل.. مال عليه وقال:

- «وسيم.. تبدو كالأحمق.. هذا تمثال.. صنعة بشري شكَّلها كما يشاء.. لو شاء هذا البشري لجعلها تمثالا لرجل.. لطفل.. لطائر أو جماد.. ماذا دهاك؟».

احتقن وجه «وسيم» أكثر.. صاح فيه:

- «لكنه الآن صار تمثال العذراء.. قيمته تنبع مما صار عليه وعليك أن تحترمه.. لو أنك تعرف من هي العذراء».

استدار «أحمد» وولاه ظهره ليتخذ جلسته على كرسي قريب.. ثم قال في جفاء:

- «ولا أنت تعلم.. تضيِّع عمرك في عبادات تحرق أعصابك.. تفرض على قلبك وعقلك قيودا لا تعرف من أين جاءت.. تقضي الليل في صلاة علَّمها إياك أبٌ عن أب.. من أين عرفت أن ربك يأمرك بها؟ لماذا تفني عمرك

obeikandl.com

في عالم افتراضي خلقه الناس لعجزهم عن الفهم وخوفهم من المجهول؟».
حدق فيه «وسيم» للحظة ثم سال اللعاب من شدقيه فبدا ككلب مسعور.. لم يدر إلا وقد أمسك بتلابيب ثياب زميله وصاح كالمجنون:
- «لم يخطئ ظني فيك أيها المسلم الجاحد.. تتهجم على ديني؟ من تظن نفسك؟ لست هنا في شارع في ذلك البلد الذي سرقتموه، لكنك هنا في منزلي.. في حارتنا نحن أصحاب ذلك البلد.. هل تشككني في ملتي؟ أنت فتنة أخطأت حين أنزلتها منزلي.. لكنني لن أتركك إلى النجاة.. لن أطردك.. سأقتلك ها هنا».
دفعه «أحمد» عنه غاضبا.. نهض وصاح في وجهه:
- «وما أدراك أن دينك حق؟ ما حجتك؟ هل رأيت ربك؟».
- «أنت كلب وقح.. إياك والحديث عن الرب.. إياك وديني».
ثم انقض عليه ثانية فدفعه «أحمد» بسهولة.. كان قوي البنيان.. لكن «وسيم» كان ثائرا بجنون.. حاول أن ينقض مجددا لكن «أحمد» أمسكه من ذراعه وصاح فيه:
- «أحمق.. تثور من أجل شيء لا تفهمه.. شيء حفظته من ذويك.. خوف مجهول من أشياء لا تعرفها وتضيع عمرك كاملا من أجلها.. تحب.. تكره.. تقتل.. تضيع كل ما تملك.. عمرك أيها الغبي».
- «ديني حق.. دينك أنت هو الكذب.. هو القتل.. سفك الدماء.. إهانة النساء وترويع الآمنين».
دفعه «أحمد» فأسقطه أرضا.. أمسك به فمنعه عن الحركة وقال له غاضبا:
- «ديني؟ أي دين؟ أنت غبي يا وسيم شأن كل هؤلاء الهاربين خلف وهم الدين من أجل اختلاق الحلول.. كلما فشلت أو عجزت عن شيء ترفع رأسك للسماء بحثا عن فانوس سحري يحل مشكلاتك.. لا تقدر على

رد الظلم عنك فترفع رأسك أملا في أن هناك من سيرفعه عنك كي تداري عجزك.. تعبده وترضيه كي يفعل لك هذا.. ثم تُكبت أحلامك في الدنيا فترسم صورة للجنة وتصبر نفسك بأن فيها ما لم تقدر على اقتناصه في الدنيا.. الدين هو ما ترسمونه لأنفسكم كي لا يقتلكم اليأس والفشل وقهر الآخر».

حدق فيه «وسيم» ذاهلا.. بينما أفلته «أحمد» وواصل في حزم:

- «أقول لك كي تفهم أكثر.. أنا بلا دين.. هل فهمت؟ أنا لا أومن بأفكار تصنع أحمقَ مثلك.. يقضي عمره ليكلم الفراغ ويشكو إليه ويشكره ويصلي له ثم يتحول إلى وحش كاسر قادر على سفك الدماء كلما اصطدم بآخر يكلم فراغا آخر غير فراغه.. تكاد تقتلني من أجل تمثال ربما صنعه زانٍ أو قاتل.. نعم.. خرجت من دائرة جهلكم التي أغرقتنا في لا شيء إلى فضاء مستنير متسامح.. عدوي هو من يؤذيني.. وديني هو مصلحتي.. الآن تفهم لماذا هربت من أهلي؟ لأنهم مثلك، وقد عرفوا ما بداخلي وأصابهم الجنون ذاته، حتى إن والدي كاد يطلق النار عليَّ.. هل فهمت لماذا طلبت منك أن تؤويني؟ أنا بلا دين منذ قررت أن أختبئ بمنزلك».

هز «وسيم» رأسه مذهولا.. يقوم من سقطته وعيناه لا تفارقان «أحمد».. يحدق فيه غير مصدق.. بينما الأخير على وقفته لا يتحرك.. على ملامحه نظرة ثابتة متحدية لكنه لم يقُل أكثر..

- «كافر؟».

قالها بصوت مبحوح فابتسم «أحمد» باستخفاف:

- «وماذا يعنيك؟ مسلم أم كافر.. ما الفرق بالنسبة لك؟».

ردد مبهوتا:

- «كافر؟».

- «ولولا قدر من التحضر يملكه أمثالي من المتحررين ولا يملكه أمثالك من الحمقى لدمرت تماثيل الجهل وصور الخرافة التي تضعها في كل مكان.. تماما كما فعلت في بيت والدي قبل أن أهرب من منزلي وأقرر الرحيل».

هز «وسيم» رأسه مرة أخرى.. لحظات من الذهول وزحام من الأفكار لا يعرف أي منها يقول.. فقط ترتعد شفتاه ويقول بصوت اختنق من الغضب، صوت خنقته الصدمة:

- «لذلك طلبت اللجوء إليَّ».

نظر إليه «أحمد» بنظرة تحمل آلاف الإجابات.. لكن «وسيم» لم يكن يبحث عن إجابة سوى ما جاء بعقله.. يرفع إصبعه في وجهه ويكمل وقد استعاد زمام عقله:

- «لذلك قررت أن تكون هنا.. لم تطلب مأوى مسلم مثلك، لكنك بحثت عن بيت مسيحي؛ لأنك تظن أنني كافر مثلك.. تحسبنا سواء فقررت أن تلجأ إليّ.. وربما لهذا حاولت مرارا أن تتقرب إليَّ.. كي تبث فيَّ أفكار الشيطان الذي مسخك واشترى روحك بلا ثمن».

- «ما زلت تتحدث بالحمق من جديد.. ماذا يعنيك الآن؟ لم تكن ترحب بي لأني مسلم.. واليوم أقول لك إني لا أعبأ بهذا الهراء.. فماذا أصابك؟ مسلم أو ملحد.. هل تريدني أن أعود إلى دين أهلي؟».

ابتلع «وسيم» ريقه غاضبا بينما واصل «أحمد»:

- «انظر لنفسك يا هذا.. ألا تشعر أن عمرك يحترق؟ ألا تشعر بالسخف مما تفعل؟ لو كنت أجيرا لساعات لأخذت أجر ما تفعله.. لكنك أجير وأسير للمجهول تضيع عمرك كله من أجله في انتظار جزاء يأتيك بعد أن تموت.. من يقبل بتلك الصفقة؟».

- «أنت أحمق.. أمثالك لا يفهمون غير لغة الشهوة.. يريدون كل الملذات

ويشرعونها لأنفسهم باسم الحريات.. تحررت من كل شيء ولم يعد هناك ما يردعك.. لكنك يوما ستحتاج من تتبجح عليه الآن.. لن تنتظر إلى أن تموت أيها الكافر».

أجابه «أحمد» بابتسامة ساخرة وهز يده مستهترا.. لم يكن «وسيم» يملك كلمات تجيب.. لكن بركانا من غضب يحرقه.. هكذا امتدت يده ليمسك ذراعه وتعالت عقيرته ليصيح في وجهه:

- «اخرج من هذا البيت.. اخرج من هذا الحي قبل أن أنادي فيهم ليقتلوك».

- «أحمق.. سأخرج من سجن أفكارك البالية فلا تقلق».

ثم أزاحه «أحمد» وانصرف غاضبا إلى غرفته وهو يشير إليه بعلامة الخاسر بينما تهاوى «وسيم» والدوار القاسي يطيح برأسه.. يبدو له الأمر كمشهد سينمائي لا كشيء ملموس.. لم يتخيل أن يرى يوما واحدا من هؤلاء أو أن يخاطبه.. لا أن يؤويه في بيته.. لم يصدق أن يقابل أحدا من هؤلاء فيكون من جلدته ذاتها.. لا أجنبي في فيلم ممنوع.. أحنقه أكثر أنه لم يتدارك نفسه برد قوي.. بقي ملتصقا بمكانه متشبثا بذاته كالتمثال لدقائق.. بالكاد تسمع أنفاسه.. ظل كذلك لدقائق فلم يدرك الوقت..

شرد وقد راودته الكثير من الأفكار.. بدأ الخدر الممزوج بالحيرة يسري في عروقه والعرق يبرد عقله المكدود.. تتناوبه خواطر عجيبة فيلفظها تارة ويقبلها تارة أخرى.. وقت مر كأنه لم يكن حتى تحرك «أحمد» بظله حاملا حقيبته دون أن ينطق بكلمة ليفتح الباب الخشبي دون أن يلقي نظرة أخيرة..

يرفع «وسيم» رأسه للمرة الأولى ليرى ظل «أحمد» وقد فتح الباب لينصرف.. يبتلع ريقه وتهتز شفتاه بكلمات لم يكن يريد لها أن تخرج..

يخرج الصوت - رغما عنه - مبحوحا وهنا لا يكاد أحد غيره يسمعه:
- «أحمد».
ثم أردف قبل أن يكمل الأخير استدارته إليه:
- «انتظر».
رفع «أحمد» حاجبه لكنه لم ينطق.. أكمل «وسيم»:
- «لم أقصد هذا القدر من الانفعال.. وإني لأعتذر لك».
رفع «أحمد» حاجبه.. لم يجد شيئا يقال.. بينما أكمل «وسيم»:
- «يمكنك أن تبقى».
لكن «أحمد» لم يجبه.. فتح الباب على مصراعيه فكرر «وسيم» بإصرار:
- «أرجوك أن تبقى».
هكذا استدار له «أحمد» متعجبا.. ترك حقيبته أرضا ووقف لثوانٍ لا يجد ما يقول..
فقط هرب منه شبح ابتسامة راضية ما لبث أن اختبأت حيث كانت..

* * *

obeikandl.com

لم يكن صباح هذه الحارة العتيقة يختلف في أيام الخالق..
نفس الزخم والزحام والأصوات المتفرقة.. الجدران المتقاربة تكاد تسحق ناسها.. وأصوات كثيرة متلهفة غير مفهومة.. يسير «وسيم» حاملا كتبه في كفه ويتفادى لفحات الشمس.. تائها وقد زاده أرق ليلته إرهاقا وأحرق الحر اللافح عينيه فلم يبدُ على ما يرام.. يحييه «ديفيد» فلا يعيره اهتماما.. لم يكن يحبه، شأنه في ذلك شأن «رأفت»، وكان كلاهما - كما يرى - شابا عابثا لم يخطُ يوما باب الكنيسة.. كان الدوار عنيفا فبدت له أفكاره جميعا سخيفة غير مهمة.. ذلك حين شعر بيد قوية ترتاح على كتفه..
«أستاذ جورج».
غارقا في عرق حيرته لكنه يصافح القادم في حرارة.. كان والد «ماري» بالنسبة لـ«وسيم» هو الأب الكامل.. ذلك المزيج الدافئ من الحب والاحترام والاتباع.. كثيرا ما حسد «وسيم» نفسه على هذا الرجل الحاني وقدر أنه منحة لم يعطها الرب لأبناء لم يفقدوا آباءهم.. كذلك كان الرجل الكبير.. كان الرجل شديد التدين وكان «وسيم» بالنسبة له ذلك الابن الذي لم يقدره الرب له.. شاب مكافح ملتزم.. لا يعشق في حياته سوى لحظات يقضيها بين جدران الكنيسة ولا يفعل شيئا لا يبغي من خلفه رضا الرب.. هكذا صار ابنا له.. وله كل حبه وحنوه ونصيحته.. كان «وسيم» شديد البؤس وقد احتاج «جورج» كي يصير أباه إلى الأبد..
تهللت أسارير «وسيم» حين حيَّاه «جورج» وقد استند بكفيه على مقود دراجته القديمة في طريقه لعمله.. يبتسم «جورج» ويقول وهو يجاور الشاب في سيره الهزيل:
- «ماذا بك يا وسيم؟ تائها حتى إنك لم ترَني».
هز «وسيم» رأسه بلا معنى وقال:

- «لا شيء يا عم جورج.. أرق الليل كما تعلم.. أفكار لا تنتهي».
ابتسم «جورج» ومال ليتخطى بركة ماء راكد في منتصف الشارع.. ثم قال:
- «تعلم يا وسيم؟ الشاب في مثل سنك دائما ما يلازمه الأرق.. لكنك لست كغيرك.. هناك من يفكر بالحب.. وهناك من يفكر بالمال.. وهناك من يخشى الغد.. لكنك يا وسيم شاب مختلف.. شاب لا يشغله سوى رضا الرب وحب الكنيسة».
ابتسم «وسيم» وقد أخجلته الكلمات.. تزداد ابتسامة «جورج» مع نظرات الفتى الخجلى ويواصل:
- «تذكرني بشبابي يا وسيم.. لكنكم اليوم أقوى وأكثر جرأة.. أنت وزملاؤك.. أنتم شباب رائعون».
- «أتمنى يا عم جورج.. لكن القوة ما زالت بعيدة عنا».
هز «جورج» رأسه ثم قال:
- «هل تعلم يا وسيم؟ طالما يتلاعب الإعلام الفاسد بالكلمات بأوامر عليا.. يتحدثون عن الماضي ويوحون للناس بأنه زمن المحبة وأن الفتنة وليدة مؤامرات حديثة العهد.. نسوا أنني وغيري شهود على الحقيقة.. وكذلك أبي من قبلي.. ولو متنا جميعا فالحقيقة تعلمها الكنيسة».
يبتلع ريقه في مرارة.. يقول:
- «بالأمس لم تكن هناك فتنة.. لكن المحبة لم تكن هي الإجابة.. بل القهر.. في الماضي كنا نلقى الإهانة والعذاب بكل ألوانه.. تلقاه في عملك.. في طريقك.. في تجارتك؛ لذلك تعلمنا أن نحتمي ببعضنا البعض ونتكامل ونحمي مصالحنا.. كنا نلقى التعذيب والإيذاء على يد المتطرفين تحت سمع وبصر النظام.. كل نظام.. ولم يكن لنا صوت أو يد تحمينا.. حتى أمريكا وأوروبا.. لم يكن بيدهم أن ينقذوا أبناء دينهم بينما تحتمي مصر

تحت راية الروس.. كفرة بلا ملة.. فلماذا يعنيهم أمرنا؟».

يقول «وسيم»:

- «لذلك لم يكن لكم صوت.. لذلك كنتم تتألمون في صمت كـ(يسوع).. لكن صوتا لم يخرج إلى الدنيا.. ولذلك يدَّعون أن مصر لم تشهد الفتنة إلا قريبا».

تنهد «جورج»:

- «هو ما تقول.. سنوات طويلة ونحن في نظر هؤلاء شرذمة غير مرغوبة.. آفة يريدون التخلص منها كما كان اليهود.. جماعة غريبة لا تنتمي لمصر.. ونسوا أننا أصحاب هذه الأرض».

يردف:

- «اليوم أنتم أقوى يا وسيم.. اليوم تغيرت السياسة وصارت أمريكا هي الأعلى ولم نعد تابعين للاتحاد السوفيتي الملحد.. اليوم صرنا عددا.. صار بيننا المال والعلم.. ولنا في الداخل والخارج رجال عظام في كل شيء.. لكن ما زال أمامنا الكثير.. ما زالت هناك أشياء بعيدة عنا.. لكننا اليوم صرنا مؤثرين في صنع القرار وصارت للكنيسة كلمة تُحترم.. الجميع يسعى إليك من الداخل أو الخارج.. لهذا يملؤني الأمل في الغد».

قال «وسيم» شاردا:

- «أصلي كل يوم من أجل هذا الغد».

- «سيريح الرب قلبك يا وسيم.. كن على ثقة.. لكن الرب لن يعطينا منحته دون أن نتقرب منه ونكفر عن خطايانا.. ودون أن نجتمع بقلب واحد».

يهز «وسيم» رأسه قائلا:

- «ما زال البعض مغيبا عن الحقيقة».

- «نعم يا وسيم.. البعض لم يلتف حول قضيتنا بعدُ.. البعض متخاذل

obeikandl.com

والبعض يضعف أمام المخاوف.. اليوم يسمعون للنظام.. واليوم يناديهم النظام ويراضيهم بكلمات معسولة بعد أن ازدراهم لسنين.. أي حمق هذا؟».

هز «وسيم» رأسه قانعا.. ذلك حين تذكر الرجل العجوز شيئا أو ربما كان يؤجله للحظات:

- «وسيم؟ بالمناسبة».

استدار إليه الشاب متسائلا بينما يواصل «جورج»:

- «سمعت بضيفك من بعض الجيران بالحي.. لم تخبرني عنه».

انتفض «وسيم» كمن تلقى طلقا ناريا.. باغته الرجل بصفعة في منطقة أعياها الالتهاب.. كان شعوره بالذنب يؤرقه من اليوم الأول، لكن الاعتراف لم يعد خيارا الآن.. فقط التمادي من الكذب والتحايل حتى تنقشع تلك الأيام..

- «ضيف؟».

ثم يتظاهر بأنه قد تذكر..

- «نعم.. هو زميل في الجامعة.. وحيد.. والده يعمل في كندا منذ أعوام بينما بقي هو في مصر لظروف الدراسة».

هز «جورج» رأسه.. لم يكن مرتاحا:

- «ولماذا تستضيفه؟ لم تخبرني يوما عنه».

- «لا أخفي عنك شيئا أبدا.. لكن الأمر تم بسرعة ولم يكن يستحق الذكر.. الشاب يجدد شقته وقد كان بحاجة إلى المأوى.. أيام ثم يعود من حيث أتى».

يقول «جورج»:

- «صديق؟».

obeikandl.com

- «تعلم يا عماه.. ليس لي أصدقاء مقربون في الجامعة، لكن علاقتي به طيبة.. احتاج للمساعدة فعرضتها عليه».

تمتم «جورج» بكلمات غير مميزة قبل أن يواصل أسئلته:

- «لكنه مبهرج الثياب عجيب المظهر.. لا يبدو لي شابا متدينا.. هل يصلي؟ هل يذهب إلى الكنيسة؟».

التقط «وسيم» أنفاسا صعبة وهو يجيب:

- «قطعا.. لم أكن لأدخله بيتي إن لم يكن كذلك.. لا تخشَ شيئا يا عماه».

لم يجد «جورج» شيئا آخر ليسأله، ثم إنه قد نظر لساعته وقد أفاق من أفكاره.. استدار لـ«وسيم» وقال:

- «حسنا يا وسيم.. لقد تأخرت على العمل.. أراك في الكنيسة.. لقد سألني الأب حنا عنك ويبدو أنه يريدك».

تنهد «وسيم» وقد أدرك أن اللحظة الصعبة قد مرت بأفضل ما يكون.. وثب «جورج» على دراجته فناداه «وسيم» وقد أصر على أن يصير شجاعا للحظة:

- «لكنني...».

بدا مترددا فاستدار له «جورج» مستفسرا.. هكذا صار على «وسيم» أن يكمل:

- «أريد أن أحدثك في أمر مهم».

ابتسم «جورج» وقدر كل شيء فقال:

- «في الكنيسة يا وسيم.. سأسمعك حتى الصباح».

هز «وسيم» رأسه موافقا، بينما تحرك «جورج» بدراجته محييا إياه.. ابتسامة حانية أراحت قلب «وسيم» ومنحته الأمل من جديد.. قلبه الأسير يبتسم..

كان يعلم أنه يعلم ذلك الذي يريده من أجله..

* * *

لم يستطِع «مصطفى» أن يركز لمدة أطول..
كان الظهر قد أوشك وكان جلده غارقا في بحار العرق.. يحاول من جديد.. لكنه لا يجد لما يقرأ مكانا في عقله الآسن بالأفكار.. يفشل فيتنهد ثم يريح رأسه المكدود على المنضدة وقد أعجزه التعب..
ذلك حين أغشاه الظل القادم.. رفع رأسه فطالعه وجه «أحمد» بهيئته المبهرجة وقد رسم ابتسامة صديقة على وجهه.. قام بهامته في إعياء، لكنه لم ينسَ أن يبادله ابتسامة قبل أن يصافحه.. حيَّاه «أحمد» ثم جلس أمامه وهمس:
- «كيف حالك يا مصطفى؟ اعذرني، لكنني لم أجد مهربا سواك.. مللت من محبسي وأحتاج لشخص ودود أجالسه.. يبدو أنك عملة نادرة في هذا المكان».
- «هذا حق.. الحارة محتلة بالنصارى».
أخفى «أحمد» عقله خلف ملامحه ولم يظهر ردا لما سمع.. قال:
- «أرجو ألا يكون في وجودي ضيق لك».
- «على النقيض.. أحتاج لوجودك أكثر مما تحتاج».
قالها «مصطفى» وكان صادقا.. كما لاحظ «أحمد» من ملامحه ووجهه الغارق في الحيرة..
- «تبدو مرهقا».
- «بالتأكيد.. هي حياة معقدة صعبة يا أستاذ أحمد.. يمكنك أن تعيش

obeikandl.com

لمائة عام لكنك لن تدرك منها الكثير.. ولن تحقق منها سوى شيء أو اثنين من أمور الدنيا.. أو ربما أقل.. ربما لا شيء».

- «ماذا تريد أن تقول؟».

أطلق «مصطفى» حمما من صدره ونقر على مكتبه وقد قرر أن يسترسل:

- «الواقع أنني أفكر.. ماذا ينبغي لي أن أفعل في تلك الحياة؟ أنا فقير.. أعيل والدة مريضة.. شاب يحلم بكل شيء، لكنه يعلم أن العمر بأكمله لا يكفي.. أحتاج إلى المال.. فهل أهب عمري من أجله؟ ربما أستطيع أن أجلب منه الكثير، لكنني حتما لن أفعل ذلك بلا خطيئة.. بالواقع قد أفعل كل الخطايا.. أحمق من يظن أن فقيرا مثلي يملك الفرصة لصنع الثروة بذيل طاهر.. أدنو من ديني أكثر.. أبغي أن أهب عمري لربي وأطمع في جنته.. الإسلام يحتاج لكل لحظة أفديه بها في هذا الوقت الصعب.. لكنني لا أدري من أين أطعم نفسي وأمي.. البحث عن الرزق ودراسة الجامعة يسرقان كل حياتي.. ثم تملكني الأوهام فأحلم بالنجاح والشهرة.. أرى نفسي شخصا مرموقا يقدره الناس وأرى الماضي خلفي كذكريات لا تستحق.. لكن كيف لشخص مثلي أن يصل إلى هذا الخيال؟! هذه أحلام تضيع الوقت.. أصبّر نفسي وأقرر أن أتقرب لربي علَّه يعوضني خسارة الدنيا بنعيم الآخرة.. لكن المال يضعفني.. والنعيم الذي أراه في الشوارع وبين جدران الجامعة يجعلني أتساءل: لماذا لا أكون أنا؟ أفكار حمقاء لا تفارقني.. أحلام أخشى ألا أدرك منها شيئا حتى رضا ربي.. لا يمكن أن تدرك كل شيء في الدنيا.. وهناك أحلام كالسراب.. ربما ضاع من أجلها كل شيء».

رمقه «أحمد» شاردا.. تركه ينهي حديثه ثم مطَّ شفتيه ليعبر عن العجز.. هو حديث لا يقدر على أن يتكلم فيه أكثر.. ابتلع ريقه ثم قال وعقله يراجع ما يقول:

- «حسنا يا مصطفى.. لا تُرهق نفسك بأفكار سلبية تقتلك.. لن يحبك أحد في الكون بقدر نفسك، وأنت الأحرص على شأنك.. لن تدرك الكون كله.. ولن تكون تمثالا يخلده الناس، فلا تسعَ لشيء لمجرد أن يرفع قدرك أمامهم.. بل اسعَ خلف ذلك الذي يُعلي قدرك أنت أمام نفسك.. فالناس ستنساك يوما ولن يعود لنجاحك بريق في أعينهم، لكنك حتما لن تنسى ما حققت لذاتك.. افعل ما يرضيك ويجعلك تحب نفسك أكثر».

ثم ابتسم ابتسامة خافتة وأردف:

- «هذا يدوم».

صمت «مصطفى» وهو يزن الكلمات.. لم يصدق أنها قد خرجت من فم هذا الفتى الغارق في الرقاعة، لكن شعورا بالارتياح قد سرى في روحه حين أدرك أنه لم يخطئ الاختيار.. وشعر أن قوله يقارب ما يراه هو كذلك.. حمد الله في سره وقد قرر أن يدنو منه أكثر..

رأى «أحمد» «مصطفى» وقد أوشك أن يقول شيئا فأسرع بتبديل طاولة الحديث كي لا ينغمس في حوار الوجودية الصعب - على كليهما - أكثر.. باغته بالسؤال:

- «مصطفى.. لماذا أذهلك اسمي بالأمس؟ لاحظت ذلك ولم أفهمه».

فاجأه السؤال فحدق «مصطفى» للحظات.. أجابه وقد سالت من كلماته رائحة الارتباك:

- «في الواقع يا أستاذ أحمد.. سأحاول أن أكون صريحا معك.. لقد نشأت في تلك الحارة.. أعرفها جيدا.. تعلم أن أكثرية أهلها من النصارى وقد تصورت أنك واحد منهم.. لم أصدق أن وسيم سيفتح بيته لشخص مسلم.. أعرف وسيم جيدا كما لا تعرفه».

- «هكذا إذًا؟».

obeikandl.com

بدا على «مصطفى» مزيد من الارتباك.. ترددت شفتاه لكنه أجاب:
- «أستاذ أحمد.. لا أعرف كيف حدث هذا وكيف سمح لك وسيم بالبقاء في منزله.. لكنني في كل الأحوال مجبَر على تحذيرك.. أتمنى - اعذرني - ألا تكون قد تورطت أكثر».
ضم «أحمد» جبهته في عجب.. ثم أشار له أن يستمر.. وكان «مصطفى» غير قادر على الصمت:
- «وسيم ينتمي لجماعات التنصير.. الكل يعرف هذا، وهو عضو بارز كذلك».
- «جماعات التنصير؟».
- «حتما تعرفها».
هز «أحمد» رأسه فواصل «مصطفى»:
- «جهلك بما أقول يجعلني أطمئن.. حتما لم يؤثر عليك، لكنه قطعا سيحاول.. لا تبدو فقيرا فيغريك بمال أو عمل، لكنه حتما لن يعدم وسيلة.. احذر ولا تجعله يلوث أفكارك.. هو يعرف ما يقول وكيف يربك قلبك.. هناك كذلك قس متعصب يدعمه ومن معه ويوجههم لكيفية التأثير على أمثالك وزعزعة أفكارهم بكلام منمق مدعوم بالدلائل.. أرجو ألا أكون قد تأخرت».
يستعيد «أحمد» أشياء حول «وسيم».. سؤاله عن أمن الدولة.. بعض الزيارات والضيوف وساعات على حاسوبه الذي لم يعرف من أين جاء به.. يفكر.. لكنه لم يمنح «مصطفى» المزيد من الحيرة..
- «لا تقلق.. لم تتأخر».
ثم ابتسم «أحمد» له وقال وهو ينهض:
- «حسنا يا مصطفى.. سُررت بهذه الجلسة القصيرة، لكننا حتما سنلتقي

obeikandl.com

من جديد».

نهض «مصطفى» وقال وقد زادته إجابة «أحمد» لهفة:

- «لماذا السرعة؟ دعنا نحتسِ الشاي معا.. فقط بضع دقائق أخرى».

وهمَّ باستدعاء الصبي، لكن «أحمد» أوقفه وقال:

- «ستتكرر.. اعذرني، لكنني على موعد لا يمكنني تأخيره».

ثم صافحه وحياه منصرفا.. أراحت كلماته «مصطفى» قليلا، لكنه تمنى أن يسمع المزيد.. لم يجد سوى كلمات قصيرة يودعه بها والقلق على هذا الشاب ما زال يعتصره.. ما زالت هواجس «وسيم» تحيط أفكاره من كل صوب..

- «صحبتك السلامة يا أستاذ أحمد».

هكذا غادر ظل «أحمد» المكتبة بينما دقت الكلمة في رأس «حسين» المار من أمام المتجر فاحتبست الكلمات في رأسه وتمتم وهو يراقب المغادر في غير فهم:

- «أحمد؟».

كانت الكلمة قد دوَّت في رأسه كالرصاص فاستدار إلى «مصطفى» الذي عاد للأوراق من أمامه وكرر حائرا:

- «أحمد؟».

رفع «مصطفى» رأسه إليه مؤيدا.. مزيج من الحيرة والدهشة.. ثم بعض القلق..

- «أحمد؟».

* * *

obeikandl.com

- «إذًا؟».

تتنفس «ماري» بصعوبة.. لا تقدر على أن تواجه عيني والدها الكبيرتين والمسلطتين عليه كالكشافات.. تكتفي بصمت لا معنى له ولا تبتسم.. تسمع أنفاس والدها الثقيلة فتدرك أنه حتما غير راضٍ..

- «حسنا ماري.. تعرفين حتما كم أحبك.. ولأني أحبك فإن حياتي - لا شك - مشروطة بسعادتك».

ترفع «ماري» وجهها إليه..

- «صدقيني يا ماري.. كلما قابلت شابا من سنك فإنني - مرغما - أتخيله للحظة زوجا لك.. أتمنى أن أختار لك الأفضل، لكنني لم أجد هذا الذي أتمناه لك وسط الشباب الأحمق الفائر بشبابه.. وحده وسيم.. فقير لكن طموح.. مخلص للكنيسة.. شاب مثالي».

- «حدثك؟».

هز رأسه وأجاب:

- «نعم.. هذه المرة تكلم صراحة.. كان - كعادته - خجولا غارقا في الحرج وقد فاتحني بطلبه في الكنيسة».

- «أبي».

قاطعها «جورج» بأنفاس ثقيلة:

- «لن أدفعك لشيء تكرهينه يا ماري.. هذا رباط لعمر بأكمله.. لكن ما أرجوه من ابنتي البارة هو أن تفكر.. بقلبها وعقلها.. وأن تصلي كثيرا من أجل أن تحسن الاختيار».

تنفست «ماري» ممتنة لتأجيل حسم لم تكن قادرة عليه.. قررت أن تقبل الهروب.. وقد فهم والدها ذلك.. نظر لوالدتها المراقبة من خلف الباب وتبادل معها نظرة غير راضية فصمتت وقد عرفت أن مشوار الإقناع -

obeikandl.com

حتما - سيطول..
هكذا عرفت «ماري» أيضا..
هي ابنة بارة.. تحب والدها كثيرا لا شك..
لكنها ستقاوم هذه المرة..
هذه المرة.. ربما لن تستطيع..

* * *

كانت عيناه تتأملان كل شيء من حوله بتركيز بينما هو ينتظر.. هكذا أدرك «أحمد» أن ابن عمه لم يدخر شيئا ليوحي بالفخامة في مكتب يزوره ربما لمرة في العام.. يتساءل عن حال مكتبه إن كانت هذه غرفة الانتظار..
يسترخي بظهره على الكرسي المريح.. راضيا..
لطالما كان عمه في نظره هو تيمة النجاح وقد صار ابنه للحال ذاته.. فكرة لم يلوثها رأي والده الغارق في المثاليات الذي لم يرَ يوما بنظارته قط..
تعود إليه السكرتيرة الحسناء وتشير له أن يتفضل بالدخول..
يتركها بابتسامة ثم يتقدم إلى المكتب الذي لم يخيب ظنه كثيرا.. يقابله الشاب الوسيم غربي الهيئة في حلة أنيقة فاتحا ذراعيه كالأخطبوط وضحكة مرحبة تنطلق من حنجرته كتحية تحمل الكثير من الود:
- «أحمد النادي.. أخيرا أيها المجنون».
يبتسم «أحمد» ويتلقف حضنه قائلا:
- «افتقدتك كثيرا».
- «وأنا كذلك.. تمنيت أن تنتظرني بالمطار.. لكن ما أرسلته على بريدي

obeikandl.com

جعلني أتفهم عدم قدرتك على ذلك».

- «يسعدني أنك قد تفهمت هذا».

ثم ضغط زر الاتصال الداخلي ليأمر بمشروب لهما قبل أن يدعو «أحمد» للجلوس ويختار لذاته مقعدا يقابله.. ضرب على فخذ ضيفه في حماس ثم أطلق ضحكة قصيرة وقال:

- «أنرت مكتبي بهذه الزيارة يا ابن العم».

- «كنت أنتظرك يا علاء».

ابتسم له «علاء» وهز رأسه متفهما.. قال وقد دارت كلماته على رحى الجدية:

- «أعرف.. كما أعرف رأسك الصلد الذي لا يلين.. والدك حدثني منذ ساعة وقد أنكرت اتصالك بي طبعا وتظاهرت بالغباء.. سألت عليك كالملهوف وكأنني لا أعرف ما حدث».

ثم مال على ضيفه:

- «لكنني - كأخ - لن أخدعك.. ما فعلت كان حماقة كبرى».

زفر «أحمد» وقال وقد ضاق مما سمع:

- «علاء.. تعرف أنني أعشق عقلي ولا أعيش تحت الأقنعة.. دائما أفعل ما ينبع من رأسي ولا أنتظر الأوامر.. لا تعنيني العقبات.. هذا شيء رأيته منذ عدت من إنجلترا.. مجتمع مختل يصنع التابوهات لنفسه.. على استعداد تام للقتل من أجل رمز تلقنه منذ الصغر ولا يملك دليلا عقليا واحدا لوجوده، لكنه - كذلك - على استعداد للتضحية بأي شيء من أجله.. يحب ويكره.. يأمل ويبأس.. يتحرك ويمتنع.. هذا جنون أرفضه».

تناول «علاء» لنفسه سيجارا من سطح مكتبه وأشعله.. انتظر حتى انتهى «أحمد» ثم تراجع على كرسيه وقال بلا انفعال:

obeikandl.com

- «جميل.. لكنني لا أتكلم عن تلك النقطة تحديدا يا أحمد.. تعرفني.. أنا ابن أوروبا وقد عشت فيها معظم سنوات عمري ولا أومن بغير الحرية الكاملة.. لكن ما قصدته هو تصريحك بهذا أمام أسرتك.. تلك النار التي أشعلتَ بلا مبرر».

- «ماذا كنت ستفعل إن كنت في موقفي؟».

- «أحمد.. لست بموقفك.. عليك أن تفهم.. أنا مسلم كما هو مكتوب بكل أوراقي.. لا أصلي ولا أصوم ولم أحج يوما، لكنني لم أفكر فيما فكرت أنت فيه ولا أنتويه.. ربما لأن أفكارك الجدلية هذه لم تشغلني.. أنا مسلم بلا قيود.. فماذا يضير في ذلك؟».

ثم نفث دخان سيجارته واستدرك:

- «لكنني لو قررت يوما ما قررت أنت فلن أجد غضاضة في أن أعلن هذا على الجميع، لكن فقط في أوروبا؛ لأن شيئا كهذا لا يعني الناس هناك ولن يلفت حتى انتباههم.. هو شيء موجود وشخصي ويحدث كل يوم.. لكنني لو كنت في موضعك ما فكرت لأن الأمر في مصر سيختلف.. سيقتلونني لو فعلت.. ولن أنجو من إيذاء شنيع في كل الأحوال.. فلماذا إذًا؟».

- «تريد أن تقول...».

قاطعه في حسم:

- «أريد أن أقول إن عليك أن تقرأ مجتمعك جيدا.. لو أعلنت حماقتك هذه في مجتمع غربي فلن يؤذيك أحد ما دمت منهم.. المجتمعات الغربية قد تضطهدك وتؤذيك لأسباب أخرى أهم من الدين.. تؤذيك لأنك مختلف.. لأنك أجنبي من فئة أقل».

- «تقصد؟».

- «أقصد أن المجتمعات الفقيرة تتشدق دائما بشيء تتعصب له.. بالدين..

obeikandi.com

فإن كان الدين واحدا فبالملة.. فإن كانت واحدة فبالقبلية أو الأصل أو الانتماء.. شيء أحمق يقتلون من أجله.. هذا أمر موجود من أدنى الأرض لأقصاها.. كلها أسماء وأسباب ظاهرة للتعصب، لكن السياسة هي الكلمة الأصدق.. السياسة هي ما يدير كل شيء يا أحمد».

ثم نفث الدخان في الهواء وقام ليدور حول قريبه الجاثي وسط الدخان:

- «كلها أشياء معنوية بحتة.. ستلاحظ أنها أشياء فريدة أيضا.. مثلا، ترى الأحزاب السياسية المتقاربة في الأفكار كثيرا ما تتكتل ضد أحزاب أخرى تعاكسها في الفكر.. هذا شيء لا تراه في الدين أو الملة أو العرق.. الكل يتناحر.. أحزاب شعبية لا تقبل التفاهم مهما كانت قريبة.. لذلك تكون نواة للانفجار».

ثم أخرج من علبته سيجارا آخر ناوله لـ«أحمد» وقال:

- «دعنا نكُن أكثر صراحة.. الكيانات الكبيرة في العالم دائما ما تبحث عن ذلك الخط القاسم.. ففي هذا المجتمع دين.. وفي هذا عرق.. وفي هذا لون.. دعك من نظرية المؤامرة على كل ما هو عربي أو مسلم، فلا مجال للعاطفة في أمر كذلك.. لا.. بل هي نظرية عالمية تضع الحلول الجاهزة لردع كل القوى الاقتصادية والسياسية الطامحة وكل الكيانات كي تظل تحت خط النجاح.. وهذه النظرية هي الرابط الحقيقي بين كل قوى العالم الأول على اختلاف مصالحها.. لا عالم أول بلا عالم ثالث.. ولا دول غنية من دون أمم فقيرة تجعلها أغنى.. ولا أحد يريد المزيد من الضيوف في التصنيف الأرقى.. هذه مصلحة الأقوياء».

ابتسم «أحمد» وقال:

- «لا أحب نظرية المؤامرة.. أراك وقد ضخَّمت أمري لموقف سياسي».

- «لن أضخمه.. لكنني أريدك أن تفهم.. أنت في مجتمع لا يقبل التشتت..

obeikandl.com

افعل ما تشاء لكن ضع خانة للدين في بطاقتك.. كل ما بعد ذلك مقبول.. لا تخسر كل شيء بينما يمكن أن تفعل ما تريد من دون علم الناس».

- «لا أخادع.. أتمنى أن أحرق كل هؤلاء الحمقى.. كل البلهاء السائرين في الشوارع.. أي سخف؟!».

- «عنيد كطبعي بك».

هز «أحمد» رأسه وأجاب:

- «لكنني لن أكون عنيدا هذه المرة.. سأقبل نصيحتك».

هز «علاء» رأسه مستفسرا..

- «علاء.. ساعدني كي أسافر من جديد.. كما قلت.. سأكون حرا هناك».

قال «علاء» بصوت ثاقب:

- «ربما.. لكن الرسالة لم تصلك كاملة.. ربما لا يعنيهم كثيرا ما تعتقد فقط لو كنت منهم.. هذه هي القاعدة».

- «أنت لست منهم كذلك».

- «نعم.. لكنه المال الذي يصنع كل شيء.. النجاح.. هذا يجعلك ضيفا مرغوبا في أي مكان».

- «لا شك.. وهذا ما أريد».

أخذ «علاء» نفسا عميقا ثم قال من بين أنفاسه:

- «رحلة شاقة لا تحتاج لها.. ستبدأ من لا شيء وبلا شيء.. لا شهادة ولا عمل.. معك ما يكفيك من ثروة والدك هنا».

- «أرجوك يا علاء.. لقد أحرقت سفني كلها.. ساعدني كي أعود إلى لندن».

تنهد «علاء».. لم يكن مقتنعا، لكنه قال:

- «ليكُن.. تعرف قدرك عندي يا أحمد».

ثم رد الطارق على الباب وقال:

obeikandl.com

- «فقط أمهلني يومين كي أدبر كل شيء ولا تقلق.. أتعشم فقط ألا يعرف عمي بهذا وأن يذبحني قبل أن أفر إلى لندن».

يضع العامل القدحين على المائدة.. يتنهد «أحمد» وقد زال الصخر من فوق صدره:

- «أشكرك يا علاء.. لم تخذلني».

يبتسم «علاء» ابتسامة خافتة ويجيب:

- «فقط أتمنى ألا أكون قد أخطأت في هذا».

ثم ناوله قدحه وفكر في أمر آخر..

* * *

وحين عاد «أحمد» إلى المنزل القديم كان قد صار أفضل..

كان وعد «علاء» قد أعاده للحياة من جديد.. تتسابق قدماه فوق درجات السلم الضيق وعقله يعدو في غابة من أحلامه الثائرة.. تمتلئ روحه بالانتشاء وقد صار الغد مشروعا كما يريد..

وكانت «ماري» تهبط درجات السلم..

كانت تتهادى على السلم الخشبي العازف بوقع قدميها.. حين رآها..

توقف حين باغتته ورفع عينيه ليراها.. يراها أكثر.. يتأمل ذاك السحر المنقوش على سطح صدئ ويبتسم.. منتشيا قد ملأته اللحظة رغبة في المزيد.. شعور صياد مبتدئ يصيب هدفه لمرة أولى فتملؤه النشوة.. يرفع بندقيته في حماس كي تصطاد المزيد وقد آمن بحظ يومه..

كان «أحمد» شديد الانبهار بها منذ اللحظة الأولى، لكنه الآن يتأملها بلا أسوار.. واثقا وقد ارتبكت بوقفته وأطرقت خجلا من نظراته المبهورة..

من ثم صارت خطواتها أكثر بطئا..

obeikandl.com

لو كان أقرب لسمع دقات قلبها المذعور في صدرها أو للاحظ الرجفة التي بدأت تسري في أطرافها.. ينسال العرق على جبينها وهي تخطو ببطء غير فاهمة.. واجلة.. لا تقوى على أن ترفع عينيها في وجه التمثال الوسيم الشاخص أمامها بلا حراك كي يقتلها بما يفعل..

تشعر بدقات قلبها الصغير كجرو مذعور يعوي في حلقها.. تتنفس بصعوبة.. تتحرك لكن «أحمد» ظل على وقفته.. منتظرا حتى صارت في مواجهته..

- «آنسة ماري؟».

انتفضت «ماري» وقد صار الأمر بلا كتمان.. صار عليها أن تنظر إليه وأن ترتجف أكثر.. الحمرة الحارقة تصبغ خديها.. فكرت في كل الاحتمالات في ثانية سبقت حركة عينيها إلى عينيه.. كانت «ماري» طفلة غريرة.. لم تكن تعرف كيف تخفي وتتظاهر.. هكذا لم يجد «أحمد» حاجزا يخفي ما يقرؤه في عينيها.. يسمع صوتها المبحوح يجيب بشيء ما فلا يبالي.. هو من سيتكلم هذه المرة..

- «آنسة ماري.. في الواقع.. هي فرصة أرسلها لي القدر.. نعم بالكاد أعرف اسمك.. لكن هذا يكفي وأكثر».

تطرق مجددا وتقول محاولة أن تبدو أكثر صرامة.. صوت غير مقنع:

- «لا أفهم».

- «آنسة ماري.. لست شابا عابثا يبحث عن تسلية.. أتحدث صدقا وأتمنى أن أجد شيئا مما أقول في صدرك.. ماري.. أنا شديد الإعجاب بك».

كادت «ماري» تسقط بلا حراك.. تماسكت بصعوبة.. لكن أنفاسها لم تعد إليها.. لم تدرِ ما تقول.. مزيج غريب من فرحة خرقاء وخوف صارخ من

obeikandl.com

هذا المجهول.. لم تتوقع أن يتحول خيالها الأحمق إلى حقيقة بهذه السرعة وأن عليها أن تواجهه بلا أسوار..

كانت «ماري» ضعيفة بريئة ولم تعرف في تجربتها الأولى كيف ينبغي للفتاة النقية أن تتصرف.. تمنت لحظتها أن يكون بجوارها شخص تحتمي به.. سبق السيف العذل وصار عليها أن تتكلم أو أن تفعل شيئا..

تقول بصوت واهن:

- «أرجوك يا أستاذ.. أنا فتاة محترمة ولا أقبل بهذه الأشياء.. هذه أشياء يناقشها الكبار إن كنت تقصد هذا.. أنا حتى لا أعرفك».

ابتسم «أحمد» وقد أنعشته كلماتها.. فتاة رقيقة لا تعرف كيف تخفي مشاعر صادقة..

يبتسم لها.. ثم يمد يده ويقول في ثقة:

- «معك كل الحق.. ربما لم تأتِ الفرصة كي تعرفيني أكثر.. أنا أحمد النادي.. طالب في السنة النهائية...».

لكنه كتم ما بقي من كلماته؛ إذ لم يجد جدوى من الحديث.. كان وجهها قد انقلب فجأة ولم تعد نظراتها ضعيفة مستكينة.. حدقت فيه حتى التهمته بعينيها وقالت في غضب:

- «أحمد؟».

ثم تواصل وقد علا صوتها أكثر:

- «مسلم؟».

- «بالواقع...».

دفعته بغتة وقالت في غضب:

- «هل أنت أحمق أم سافل؟ أنت مسلم.. فماذا ستريد مني إذًا؟ لا شيء سوى التسلية.. ما زلتم تعتقدون فينا أننا سبايا حلت لكم.. أننا الجواري

الحسان أيها الأسياد».
تراجع «أحمد» وبدا وكأنه لم يفهم.. يحاول أن يكتم غضبتها فيهمس:
- «آنسة ماري.. لست من تظنين».
حدقت فيه بغضب ثم صاحت:
- «إذًا؟ تظنني فتاة غريرة.. تكفي بعض كلمات معسولة كي تجعلها تلين.. تسلية أو ربما هو أكثر.. تبحث عن فريسة ساذجة كي تتلاعب بعقلها.. توقعها في حبك ثم تتخذ من استحالة هذا الحب ذريعة كي تهرب معك.. ثم تشهر إسلامها.. أسلوب رخيص أعرفه.. لكنكم تعدونها بطولة».
- «ماري.. هذا حمق».
بدأت دموعها الشاحبة تسيل على خديها.. تكتمها بصعوبة.. يدنو منها فتدفعه ثانية وتقول:
- «بل هذا شيء قذر.. دعني أمر.. لو أردت لدمك أن يسيل الآن لرفعت صوتي حتى يعلم أهل هذا البيت ما تريد.. سيقتلونك بلا رحمة.. لكنني لا أريد أن يتأذى أحد من أهلي بسبب كلب مثلك».
ثم أخذت طريقها من جانبه وهي تمسح الدموع الحارقة في عجلة وبقي هو ذاهلا على عتبة الدرج وكأنه لم يسمع شيئا..
نظر إليها وهي تعدو درجات السلم.. لكنها لم تمنحه نظرة مماثلة.. واختفت عند باب المنزل العتيق..
شعور عارم بالحنق.. أمسك كفه بأصابعه غاضبا وقد أدرك أن لحظة غالية قد فاتته.. كل هذا الجمال الساحر كان ملكه للحظة لكنه أدار اللعبة بغباء.. قد أسكرته النشوى فنسي المكان والناس..
مجرد ورقة جديدة تحترق..
هكذا فكر.. ما زالت أحلام كثيرة في انتظاره.. هو يوم سعيد مهما فعلت

تلك الحسناء البلهاء..
هي حقا فتاة لا تستحق جمالها..
يتناول السيجارة البيضاء في يده ليحرق المزيد من الدخان..

* * *

يعرف «علاء النادي» أنه رجل أعمال محنك.. يفضل هذا اللقب كثيرا على لفظة المحظوظ.. لكنه في مواقف قليلة لا يجد بدّا من إقرار فضل الأقدار على سير أموره.. هذه أشياء لا يمكن ترتيبها..
ربما لذلك لم يجد تفسيرا أفضل سوى الحظ الحسن.. ذلك الذي جعل «إبراهيم النادي» يقرر أن يزوره في مكتبه بعد نصف ساعة فقط من انصراف ابنه «أحمد».. لم يكن مكتبه هو الساحة الأنسب لأي مواجهة بلهاء وكان قد كذب كثيرا فيما يخص عدم اتصال «أحمد» به، ما يجعله فريسة لموقف ضعيف.. وهو - في هذه اللحظات بالذات - لا يريد أن يكون ضحية المواقف الضعيفة.. لم يكن «أحمد» بالواقع طرفا من مخاوف «علاء»، لكنه رضا عمه الذي يحتاجه الآن بالذات..
- «عم إبراهيم».
يقولها في انشراح مرسوم، بينما يطل الوجه الذي لم تربح الأعوام معركة الشيخوخة فوق تفاصيل وسامته ولا جسده الممشوق القوي.. «إبراهيم النادي».. رجل الأعمال المرموق في عمر الخمسين.. يخطو إلى داخل المكتب وعيناه تتحركان في المكان بتركيز ثم تتعلقان بابن أخيه.. يشير

«علاء» بيده إلى سكرتيرته لتجلب مشروبا وتغلق الباب ثم يتلقف عمه بين ذراعيه في حماس..

- «حمدا لله على سلامتك».
ثم إنه قد جلس فجلس «علاء» في مواجهته وأردف:
- «اعذرني على عدم استقبالك في المطار.. أنت تعلم».
قال «علاء» بحميمية مدروسة:
- «أعلم يا عمي وأقدر أعمالك تماما.. يكفي أنك قد اقتطعت وقتا لزيارتي وكان واجبي أن أفعل».
لم يكن الرجل يبغي المزيد من أحاديث العائلة المصطنعة.. فقط بعض الأسئلة عن الوالد - شقيقه - والوالدة وأحوال أعماله، ثم إنه انحرف فورا إلى مقصده.. قال:
- «علاء.. تعلم أنني وأباك دائما الخلاف.. لكنك لست طرفا في هذا.. وفي النهاية يبقى أبوك شقيقي الوحيد.. وقد هاتفني بشأن صفقتك تلك بشكل ودي.. وعلى الرغم من كل ما بيننا فإنني أقدر حاجته لتلك الصفقة».
- «أشكرك يا عمي.. هذا ما نعشمه فيك».
راضيا قال.. لكن «إبراهيم» قال بصوت صارم:
- «فقط عليك - للمرة الأخيرة أسألك - أن تجيب سؤالي بلا كذب.. هل اتصل بك أحمد أو حاول أن يلقاك؟ أنتظر إجابة أخيرة».
نجح «علاء» في أن يحصر أفكاره في أجزاء من الثانية وأن يسيطر على كل خلجات وجهه وهو يجيب في ثقة:
- «أقسم بالله يا عمي إن هذا لم يحدث.. وإني لعاتب عليه أنه لم يفعل حتى الآن.. عمي، إن سؤالك المتكرر يقلقني.. ما الأمر؟».
صمت «إبراهيم» وكتم أنفاسه للحظة وهو يسند رأسه على قبضتيه:
- «دعك من هذا الأمر يا علاء.. سأصدقك.. وسأتوقع منك اتصالا إذا حاول أن يصل إليك.. دعك من هذا الأحمق ولنعد لأمر صفقتك».

هز «علاء» رأسه ليتظاهر بالحيرة.. ثم إنه قال:
- «ليكن يا عمي.. أعرف أن أبي قد أخبرك بتفاصيل تلك الصفقة.. تعرف أننا بحاجة لرجل محنك يقوم بتمرير السلاح من الحدود الجنوبية إلى الحدود الشرقية لمصر تمهيدا لخروجها من البلاد.. رجل لا يخطئ».
قال «إبراهيم» بصوت محايد:
- «اسمع يا علاء.. كما أخبرت والدك.. قد اعتزلت تلك الأشياء الشائكة منذ دهر.. لكنني - فقط من أجلكما - سأدلكما على الشخص الأفضل.. هو الوحيد في هذا البلد القادر على إتمام هذا الشأن بشكل مثالي.. والأفضل من ذلك أنه شخص موثوق أمين.. وأجره في الصفقة كلها سيكون معقولا جدا».
- «من هو؟».
قال «إبراهيم» في ثقة:
- «سيد واصل».
تأمله «علاء» للحظة وكأنه لم يفهم:
- «سيد واصل؟ من سيد واصل؟».
ثم إنه قد تدارك عقله فأردف بصوت متردد:
- «تعني الشيخ سيد واصل؟».
أجاب «إبراهيم» أن نعم، فابتسم «علاء» لوهلة وقال:
- «ظننت أنك قد قطعت علاقتك بهؤلاء منذ زمن يا عمي».
- «علاقة الماضي لا تنقطع.. فقط كنت بينهم حين كنت شابا ثم انسحبت
ل
أن ذلك لم يعد مناسبا.. لكن العلاقات القديمة تبقى دائما.. لا أظن أنهم يحملون نحوي ضغينة ما؛ فوجودي كصديق قوي خارج الدائرة أكثر فائدة

من مجرد رقم داخل الدائرة.. وكما ترى فإنني أحتاجهم أحيانا».
قال «علاء» مفكرا:
- «وهل تثق بقدرته؟».
أجابه «إبراهيم» بلا تفكير:
- «كل الثقة.. هذا عمل يتقنه منذ نعومة أظفاره.. وهو أفضل مَن يقوم بالتعامل مع النقطتين الجنوبية والشرقية من الحدود؛ لأنه يتعامل في الأساس في صفقات السلاح التي تصل إلى المسلمين في مناطق الجهاد والنزاع: فلسطين.. سوريا.. جنوب لبنان.. وبعض المناطق الأخرى.. ومن يعملون معه من رجال لا يتقاضون مبالغ طائلة؛ لأنهم يفعلون ذلك لوجه الله».
استغرق «علاء» في تفكير يتأرجح بين الاقتناع والقلق قبل أن يعاود السؤال:
- «لكنني أعرف أن سيد واصل رجل بارز ومستهدف أمنيا من الحكومة المصرية.. ما يجعلني أشعر بالقلق؛ فهو قطعا تحت المنظار».
ابتسم «إبراهيم» ربما للمرة الأولى ثم وضع ساقا فوق الأخرى.. تدور الأفكار برأسه وهو يقول:
- «الشيخ سيد - ككثيرين غيره - في حالة شد وجذب مع الحكومة.. يراها الكثيرون استهدافا لكنها ليست كذلك.. الواقع أن الحكومة على علاقة جيدة بالشيخ سيد على الرغم من كل شيء؛ لأن العلاقات القديمة - كما قلت لك سابقا – لا تموت، والحكومة قد تحتاج أمثال الشيخ من حين لآخر.. ما زالوا يذكرون له جيدا معاونته لهم في جلب ونقل المجاهدين من مصر لأفغانستان.. هذه أشياء لا بد أن تحتاج فيها رجلا كهذا.. فقط تبقى العلاقة الحذرة بينهما خوفا من أن يتجاوز هو أو غيره الحدود المسموحة».

ابتسم «علاء» متفهما:
- «ليكن يا عمي».

- «ليكن.. ستقابله الليلة بعد أن أقوم بمهاتفته كنوع من التوصية؛ لأنه حذر جدا.. ستخبره أنك من طرفي وسيتم الأمر على خير.. هذه خدمة أخيرة لك ولأبيك، لكن لا تنتظر مني الكثير في المستقبل.. في كل الأحوال أنا بعيد عن هذه الدائرة ولا أود أن يتصيد أحد لي الأخطاء».
- «قطعا يا عمي».
هكذا قرر «إبراهيم» ألّا مجال للمزيد من إهدار الوقت فنهض ليعلن أن مهلة زيارته قد نفدت.. كان هذا مناسبا لـ«علاء» الذي انشغل بالتفاصيل فنهض يصافحه ببعض كلمات المجاملة والاستبقاء..
لكن شعورا بالانتشاء يساوره.. ما كان شيء ليتم دون مساعدة مثل هذا الرجل المنغمس في أنفاق ذلك البلد.. رجل يعرف كيف ينجح..
إن «أحمد» - كما يبدو - شديد الحمق بالفعل..

* * *

obeikandl.com

لكنه حين عاد ظل شاردا لفترة.. شعور غريب يسيل بلزوجة على جنبات قلبه.. شعور مقزز.. يضرب «أحمد» بأصابعه على حاسوبه في شرود ويقلب أشياء لا يدري كنهها وقد أعجزته الأفكار عن التركيز..
كانت الساعة قد جاوزت الواحدة حين فتح «وسيم» الباب..
كان «أحمد» قد أدرك من ملامحه أن شيئا مما حدث لم يصله بعد.. شعور قصير بالارتياح قبل أن يعود لما يفعل.. حيَّاه «وسيم» فرد تحيته

في خفوت..
كان «وسيم» مثقلا بأحمال تبدو كطعام وضعه على المنضدة.. على وجهه ابتسامة راضية وهو يدنو ليتخذ مقعدا مجاورا لـ«أحمد» ويقول له:

- «أحمد.. الغداء.. دعنا نتناول شيئا معا فأنا أتضور جوعا».
- «لست جائعا.. تفضل أنت».
ابتسم «وسيم» أكثر وقال:
- «سأنتظرك».
ثم نهض ليبدل ثيابه في غرفته، بينما واصل «أحمد» ما يفعل.. ناداه «وسيم» من خلف الباب:
- «أحمد.. ألم تمل من جلستك بالمنزل؟».
- «لا أفهم».
يرفع «وسيم» صوته أكثر:
- «أعني: لقد مللت من أيام البيت فالجامعة.. لماذا لا نذهب للتنزه في أي مكان.. ندور في الشوارع.. أي شيء مختلف؟!».
رفع «أحمد» حاجبه.. ترك ما يفعل ثم استدار لـ«وسيم» العائد من غرفته

obeikandl.com

وقال:

- «حقا؟».

ردد «وسيم» وابتسامة وجهه لا تفارقه:

- «ما المشكلة؟ دعنا نقضِ وقتا وسط الناس.. لقد مللت سجني ها هنا».

تأمله «أحمد» للحظة.. يرسم وجها طيبا لا يمكن أن تكرهه.. هكذا أغلق «أحمد» حاسوبه وهز رأسه موافقا فابتسم «وسيم» ثم جذبه من يده وهو يقول:

- «إذًا لا تتحذلق.. لن آكل من دونك».

ابتسم «أحمد» رغما عنه وأشار لـ«وسيم» أن اهدأ وهو يقوم من جلسته.. كاد «وسيم» يقول شيئا، لكن طرقات غاضبة على الباب أخرسته.. انتفض ثم استدار إلى الباب الذي لم يتوقف عن هزته المجنونة..

- «افتح يا وسيم».

يرفع «وسيم» حاجبيه غير مصدق.. عرف الصوت فهمس وهو يعدو نحو الباب:

- «عم جورج».

ثم مد يده للباب يفتحه فاندفع الجسد الغاضب إلى الداخل.. يتلقفه «وسيم» قائلا بأنفاس مبهوتة:

- «عم جورج؟ شرفتني.. لكن ما الأمر؟».

يصيح «جورج» بينما يغلق «وسيم» الباب من خلفه:

- «لا شرف هناك يا وسيم.. ما دمت تؤوي الكلاب في بيتك».

- «كلاب؟».

ثم يستدير إلى «أحمد» غير فاهم، بينما الأخير واقف في ركن الصالة بلا

obeikandl.com

حراك.. يراقب كل شيء ولا يتكلم.. لكن «جورج» لم يكن قادرا على الصبر.. هكذا قفز إليه كشاب في العشرين وأمسك بتلابيب قميصه وهو يواصل الصياح:

- «هذا الوقح.. يريد أن يغرر بابنتي الطيبة.. يتسلى بقلبها.. أو ربما يريد أن يجعلها رقما في سجلات المضحوك عليهن باسم الزواج والحب.. لعبة رخيصة لم يملوا لعبها».

يهز «وسيم» رأسه غير فاهم، لكنه يندفع كي ينقذ «أحمد» من بين ذراعي الرجل الغاضب.. يقول بأنفاس متقطعة:

- «ماذا فعل يا عمي؟».

يتراجع «جورج» تحت ضغط «وسيم» لكنه يواصل الصياح الثائر:

- «ماذا فعل؟ قابل ابنتي على السلم.. حاول أن يميل قلبها.. لماذا؟ هو مسلم وهي مسيحية.. فماذا يريد؟».

ابتلع «وسيم» ريقه غير مصدق.. نظر لـ«أحمد» نظرة لم يقدر عليها هذا الأخير فأشاح بوجهه.. لكن «وسيم» عاد مجددا ليحمي «أحمد» وقد قرر الرجل أن يفتك به مجددا..

- «سأقتلك.. من تظن نفسك؟ لا، لست على أرضك.. على الأقل هنا.. هذه هي حارتنا.. لو عرف شبابها بما فعلت لفتكوا بك».

ظل «أحمد» تائها لا يقوى على الجواب.. شعور جارف بالحنق العاجز.. لكن «وسيم» أمسك بعم «جورج» بكل ما ملك من عافية وقال:

- «أرجوك يا عم جورج.. الموضوع ليس كما بدا لك.. أرجوك.. امنحني دقيقة كي تفهم أكثر».

استدار له «جورج» غاضبا ثم أمسكه من ذراعه وقال:

obeikandl.com

- «كفى يا وسيم.. أنت أيضا ملوم.. لماذا تؤوي هذا الحشرة في بيتك؟ منذ متى تؤوي مسلمين في هذه الدار؟ ولماذا أخفيت عني هذا حين سألتك عنه؟ أتكذب يا وسيم؟ أتخدعني بعد هذا العمر كله؟ ماذا فعل هذا الوغد بعقلك؟ هل استمالك إلى دينه؟».

لم يحرك «وسيم» ساكنا.. لكنه كرر في إصرار:

- «أرجوك يا عمي.. الأمر يحتاج إلى الشرح.. الأمر أعقد مما يبدو عليه».

ثم أمسكه راجيا وقال:

- «امنحني خمس دقائق وافعل بعدها ما شئت.. هذا هو كل شيء.. بعدها كلنا سنكون طوعا لك».

انقلب وجه «أحمد» بعند طفولي، لكن «وسيم» أشار له في خفة ثم عاد للثور الغاضب.. بدأت ملامح الرجل تطاوع الشاب تدريجيا وإن بقيت عابسة متحفزة.. هكذا أجلسه «وسيم» ثم استدار إلى «أحمد» وقال بصوت لم يُرِد أن يجعله قاسيا جدا:

- «أحمد.. أرجوك انصرف عنا الآن».

لم يكن «أحمد» بحاجة لقوله.. تحرك إلى باب المنزل يفتحه دون أن يقابل العيون المحدقة بأي تعبير.. أطلق الباب العتيق صرخته بصفعة الشاب الغاضب فمال «وسيم» على «جورج» وقال له:

- «الآن ستفهم مني كل شيء يا عماه».

* * *

obeikandl.com

- «أحمد؟».
يقولها «رأفت».. يضحك ساخرا بينما يجلس «أحمد» على المقعد المقابل له.. مكفهرا لكنه لا يملك شيئا يقال..
قابله على المقهى فقرر أن يشارك هذا الشاب اللافت بعض الوقت.. حتى تنتهي اللحظات العصيبة بالأعلى..
يهز «رأفت» رأسه ويقول:
- «اعذرني يا أستاذ أحمد.. لا سخرية هنالك.. لكنني فقط أتساءل: كيف أقنعت وسيم بالبقاء يوما في منزله؟ إنه يلعن رؤيتي فقط لأنني لا أذهب إلى الكنيسة».
ابتسم «أحمد» ابتسامة ساخرة فرد له «رأفت» ابتسامته وقال وهو يصافحه:
- «رأفت عزيز.. شاب عادي جدا».
هزّ «أحمد» رأسه مرحبا لكن شروده ألجمه.. أعياه ضيق صدره فقرر أن يترك الحديث لرفيقه ويستمع..

- «أرى أنك - حتما - شخص مختلف.. هكذا قرر وسيم أن يصير شخصا آخر من أجلك.. أو ربما قرر أن يهديك إلى طريق الحق.. ألم يفعل؟».
ابتسم «أحمد» رغما عنه.. راقته أريحية الحديث في كلام «رأفت» وبدا له شخصا ذكيا، لكن شيئا من ملامحه لم يكن مسرورا أبدا.. كان محبطا حتى بدا كسِكِّير..
- «في الواقع لم يفعل حتى الآن.. هل يؤرقك هذا؟».
- «ولماذا أفعل؟ اعذرني.. بالنسبة لي لن تكون فارس الكنيسة إن صرت منا.. وبالنسبة لغيري لن يخسر الإسلام صلاح الدين إن فقدوك.. لا تجعل

هذا يُغضبك، لكنني أقول حقا».

- «ولماذا أغضب؟».

ابتسم «رأفت» راضيا:

- «إذًا أنت من هؤلاء القلة التي تفهم وتعي.. أين كنتم؟! هكذا يصير الكلام معك آمنا مهما اختلف دينك».

ثم أدار مقعده إليه وقال وقد بدا كمجنون:

- «هل تعلم؟ بالأمس فقط ضاعت مني فرصة جديدة.. وظيفة من تلك التي تداعب أحلامي.. ترى هل فقدتها لأنني مسيحي؟».

قال «أحمد» وقد راقه ما قال:

- «ولماذا قبلت هذا كتفسير أول؟ ألا توجد أسباب أخرى؟».

- «معك كل الحق.. أقولها لنفسي كل مرة؛ فقد خسرت الكثير من الفرص.. ربما عليَّ أن أسمع النصيحة وأبحث عن شخص من جلدتي كي يمنحني الفرصة».

ثم يطلق ضحكة قصيرة ويقول:

- «أم أنتظر الإنقاذ الأمريكي؟! أمريكا ستغير كل شيء، وهي حتما قادمة».

قال «أحمد» وقد أغراه الحديث:

- «حتما».

- «ماذا تريد أن أقول؟».

ثم هدأت نفسه وبدا وكأن انفعالا قد خرج من بين ضلوعه وتركه كي ينزوي ليتكلم برويَّة.. قال له من بين أنفاس واهنة:

- «تريدني أن أقول لك كلاما دارجا عن أمريكا ونصرة الصليب؟! لست بهذا القدر من السذاجة.. نحن الشرقيين نحب ديننا ربما أكثر من أي شيء آخر،

obeikandi.com

لكن الغرب حتما يختلف.. لن يدفع هؤلاء قرشا فقط من أجل نصرتنا.. لن يدفعوا قرشا من أجل أشياء معنوية: الدين.. الأخلاق.. الإنسانية.. الشرف.. هذه أموال دافعي الضرائب يا رجال.. أموال الوطن.. هم أذكى من ذلك بكثير».

- «تكره أمريكا؟ دعني أختلف معك».

- «بل صرت أحبها.. قالها لي جون صديقي وكان محقا.. قد تعرف جيدا أن الكلب المسعور لن يكون صديقك وأنك لن تأمنه يوما على نفسك.. لكن ربما تضطر يوما لأن تلوِّح به في وجه عدوك كي تبعد أذاه عنك.. فهمت؟».

- «إذًا.. أنا عدوك؟».

قالها «أحمد» وأردف:

- «أحب صراحتك.. عقل نادر في هذا المكان».

- «أشكرك على الأولى».

ثم أردف:

- «لم أحب هذا الحمق يوما، لكنني أعرف أنه قد يصدق أحيانا.. لكن احذر.. هذه الكلاب لن تحميك فقط، بل ستجعل عدوك يكرهك أكثر.. هكذا تحرص الكلاب على النباح وإن لم ترد منها شيئا كهذا.. هي تنبح

في الأحوال كلها كي تجعل هذا العدو يكرهك.. ربما يتخطى الأمر حاجز الكراهية ليصير رد فعل عنيفا يبرره التهديد ويصير عليك أن تستنجد بذات الكلاب المنتظِرة كي تحميك.. هي تنبح فتجلب لك الوبال ثم تنبح مجددا لتحميك! وهكذا دواليك.. واليوم عليك أن تختار.. لكن قائمة الاختيارات محدودة لا تحوي اسم الوطن.. اختر فريقك الذي ستبذل عمرك من أجله واختر حليفك القوي الذي يدعمك.. أما لو قررت ألا تختار سوى الوطن

obeikandl.com

فلتنتظر حتى يدهسك القطار».

قال «أحمد» راضيا:

- «ابحث لك عن وطن آخر».

- «نعم.. أحسنت يا أستاذ أحمد.. هذه هي الفكرة.. نظرية السخرة المقنعة.. الكل يعمل من أجل القوى العظمى المحتكرة لكل شيء.. عقول علمية أو أفكار اقتصادية نادرة.. لا مكان لك إلا الولايات وإن كنت من أفغانستان.. سيسمونك أمريكيا أو صديقا لأمريكا.. تعمل لصالحهم ما بقي من عمرك من أجل ما يملكون.. المال والشهرة وأشياء أخرى يعرفون كيف يجعلونك لا تجدها في وطنك.. لكن الباقين من الخاسرين يحظون بالرفض المزدري.. يبقون كالرواسب في بلادهم ليتراكموا في أحضان الأوطان الغارقة في الجهل والمرض.. هكذا تعتصر البلاد الضعيفة يا صديقي لتعطي رحيقها للأقدر.. صدقني هو شيء أقوى من الجميع.. هي سياسة العالم أجمع».

- «تقول إنك كنت في الولايات؟! حقا لا أفهمك يا رأفت».

يضحك «رأفت» كالمخمور ويسند رأسه على قمة كرسيه قائلا:

- «فعلا.. لا تفهم ولا أفهم.. هي أحلام حمقاء أكبر مني ومنك.. هي أشياء لا تحركها المشاعر.. بل صخور صلبة ترسخها المصالح.. لا غني بلا فقير.. لا عالِم بلا جاهل.. هذا هو التوازن الأعلى لهذا الكون.. وقد اخترنا كفتنا».

هز «أحمد» رأسه.. يشعر بأشياء تفتح في ذهنه..

- «هل تعلم يا أستاذ أحمد لماذا تملأ العشوائيات هذا البلد؟».

يدنو منه «أحمد».. يهز كتفيه ثم يقول قولة تخمين:

- «ماذا؟ فساد؟ سرقة؟».

يهز «رأفت» رأسه أن لا وجفناه يتثاقلان من الهم:

- «لا.. ما تقول هو الوسيلة.. وليس السبب.. حتى لو غرق بلدك بالمال ستبقى هذه العشوائيات حيث هي.. ولو اغتنى الشعب بأكمله ستبقى هذه العشوائيات حيث هي.. هنا يرقد الجهل والفقر.. وهما الوسيلة الأقدر على الخراب طوال الوقت.. هناك دول أذكى تعرف كي تدعم الأنظمة الاقتصادية الصانعة للفقر في دولنا الأغبى».

- «تتحدث عن الفقراء؟».

- «أتحدث عن الرعاع يا أحمد.. الرعاع في كل زمان.. من يتهجمون على الكنائس هم ذاتهم من يرفعون السلاح في مباريات الكرة وهم أيضا من يقتلون الناس في الصعيد بلا جريرة من أجل ثأر مات من قرون.. هم من يخرجون بالسلاح في الأزقة ليتقاتلوا من أجل شيء ما فتسيل دماؤهم بلا منطق وهم من يدفع روحه مأجورة في معركة انتخابية باسم شخص مقيت لا يعرف.. هؤلاء الرعاع جيش بلا عقل.. تملكهم بالمال أحيانا.. أو بفكرة أو منطق أو أكذوبة أحيانا أكثر.. وسيفعلون كل شيء تريد وكأنهم يريدونه حقا.. هم في بلدك قلة منسية.. لكن صوتهم كثيرا ما يعلو فوق صوت العلماء والأساتذة».

- «حسنا يا أستاذ رأفت.. سمعتك، لكنني أحب أن أقول شيئا قد يغاير تفكيرك».

- «أسمعك».

تغير صوت «أحمد» فبدا أكثر حزما وصرامة:

- «شعوب الشرق بطبيعتها تخشى الآخر وتتمسك فقط بما تعرفه.. لهذا لم تتغير.. قد صار الفرق اليوم شاسعا.. لا أتحدث عن الفضاء ولا أتكلم عن العلم.. أتكلم حتى عن فن الحياة.. فقط في بلاد الغرب يعرفون كيف يستمتعون بالحياة وهذا هو الأهم.. بلا قيود.. نحن نخشى بلا مبرر أن

نكون مثلهم ونتستر بالدين والعادات وأشياء أخرى كي نخفي خوفنا الفطري».

- «تريدنا أن نحيا بلا عرف؟».

- «أن نحيا بلا حدود.. حين أرغب في الثمرة وهي أمامي فلماذا أكبت رغبتي؟ في المجتمعات الشرقية تظل الفتاة تحمل عذريتها ككوب زجاجي على ظهرها حتى تتزوج.. لا تفعل ذلك عن قناعة، لكنها تعلم أن عواقب غير ذلك وخيمة.. تنصاع للقيود.. تقتل الحب في قلبها ألف مرة كي تعطي عذريتها لشخص ربما لم تحبه قط.. ولو تقبلت تلك المجتمعات الفارغة مشاعر الحب كأمر لا ينبغي أن نكبته لقبل المجتمع فتاة تجرب وتجرب حتى تختار الأفضل».

- «لا أفهمك.. هكذا تفعل القطط والكلاب».

- «ما المشكلة؟ إذًا هكذا تدعونا الفطرة.. فلماذا نحاربها؟ لماذا نصنع قيودا تحكمنا؟».

- «لم نخترعها.. لقد جاءتنا من السماء كي تحمينا من الهلاك».

- «من السماء؟».

قالها ساخرا فصمت «رأفت» وتأمل «أحمد» بهيئته العجيبة في تركيز أكبر.. أردف الأخير محاولا ألا يفشي أكثر:

- «انظر للغرب.. إنه ناجح قوي جامح.. عن أي هلاك تتحدث؟ علينا أن ننغمس أكثر في ثقافة هؤلاء الناس.. ما داموا الأرقى فلماذا نظن أننا أفضل؟».

- «اعذرني يا أستاذ أحمد.. لكنني لا أعتقد أننا نحتاج لما تقول أو نريده».

ابتسم «أحمد» في ثقة وقال:

- «لا تعرف ما تتحدث عنه.. انظر إلى الشباب من حولك.. إنهم يحاولون

obeikandl.com

أن يرتدوا مثل ثياب الغربيين.. يسمعون موسيقاهم ويشاهدون أفلامهم مبهورين.. انظر إلى كل شيء.. تحاول أن تصنع مثل ألحانهم وتسرق أفلامهم.. تراقب ما يفعلونه بانبهار.. الواقع أنك تريد أن تكون مثلهم في كل شيء.. لكن الأعراف الحمقاء تجعلك تكتفي بالمشاهدة العاجزة والحذر من المجاراة.. تشاهد الحياة من الخارج».

- «تعتقد أن هذا يجعل الأمور أفضل؟ تظن أن علينا أن نتعرى أولا كي نصل إلى الفضاء؟!».

قال «أحمد» في عصبية:

- «الحرية لا تتجزأ.. عليك أن تكون بلا قيود كي تمنحنا الإبداع.. فرد حر يعني: مجتمع حر.. دولة حرة».

- «أستاذ أحمد.. لا أظن أن تجربة المجتمعات الغربية هي الأفضل كي تغريني بها.. هي مجتمعات مفككة لم يعد فيها ما يسمى الأب أو الأم أو الشقيق.. شباب مراهق يخوضون تجارب الحياة بحمق وسيدة في الأربعين لم يعد يرغبها الرجال فصارت وحيدة.. رجل يجرب النساء ولا يكاد يعرف شيئا عن أولاده.. هي تجربة إنسانية فاشلة لم تكن أبدا هدفا أو غاية، لكنها كغيرها مجرد أثر جانبي لنظام رأسمالي لا يعرف الرحمة.. دائرة الحياة المجنونة تجعلك دائما أشد قسوة.. هذا هو الفرق الذي يفهمه من عاش بالقرى الدافئة؛ حيث لا تصير أبدا وحيدا، ثم يرحل فجأة إلى المدينة

الغارقة في الحياة؛ حيث لا مجال للمشاعر.. فقط عليك أن تفكر في ديون الغد وكوارث المجهول».

- «يريدون أن يصيروا مثلك؟».

قالها «أحمد» في سخرية عصبية، فأجابه «رأفت»:

obeikandl.com

- «لا أدري.. فقط أعلم أن حياتهم المتفسخة هي عرض جانبي لا نتيجة سوية.. هم صنعوا نظاما رأسماليا جعلهم الأقوى، لكنهم دفعوا ثمن ذلك من سلامة مجتمعهم.. هل تريدني أن أبدأ بالعيب وأنتظر أن يوصلني إلى الميزة؟! من المنطقي أن أكون أذكى.. من المنطقي أن أبحث عن تجربة جديدة توصلني للغاية ولا تلقي بي للفخ نفسه».

- «أي فخ؟ حتما تمزح.. هم يحبون الحياة.. هم يتمتعون بكل لحظة».

- «وكذلك نحن.. ربما لو صارت ظروفنا أفضل لتمتعنا بها أكثر مما يفعلون.. هم صنعوا القوة ففسد المجتمع، بينما أملك أنا مجتمعا يستطيع أن يصنع القوة.. وهو آخر ما تبقى لنا فليس عليهم أن يفسدوه.. لا تحاول أن تتبع أحدهم فلن تكون الأصل أبدا يا صديقي.. هل تريد أن تلهث خلف حياتهم الفاسدة وترى النتيجة؟ لا ترهق نفسك؛ فهي موجودة في معظم دول أفريقيا المجهولة؛ حيث اتبعوا الغرب في شهواته ومفاسده.. لكنهم لم يصيروا أفضل للأسف».

مطَّ «أحمد» شفتيه بلهجة غير راضية.. قال بلهجة جافة:

- «للأسف بدا لي عقلك أكثر رقيا وأوسع آفاقا في بداية الحديث.. الآن لا أرى اختلافا بعقول الناس في هذا البلد».

- «كذلك أنا.. تتحدث باسم الحرية بينما يتبدل وجهك حين تسمع رأيا يخالفك.. تماما كهؤلاء القوم الذين تظنهم أفضل.. هي حرية أن تخلع ملابسك لا أن ترتديها.. أن تشتهي لا أن تستعفف.. حرية أن تفعل ما تريد

كي تصير مسخا في القطيع.. حرية ما يقولون لا ما تقول أنت.. يمنحونك ويمنحون شعبك ما ينسيهم كل المرادفات المعقدة.. فقط يعيشون في حرية الشهوة حتى تنسى جلودهم معنى الكرامة.. سيبقى الاستعمار في

دمهم.. لكنهم اليوم لا يفضلون قوة السلاح؛ فهي دائما تخسر في يوم ما.. اليوم يستعمرك بأن يجعلك تابعا له.. مؤمنا به».

أراد «أحمد» أن يتكلم فتناول «رأفت» ورقة من أوراق اللعب أمامه ليرفعها في وجهه.. هي ورقة الملك..

- «أستاذ أحمد.. هل تظن أننا في مجتمع ذكوري؟».

رمقه «أحمد» بنظرة لم تبدُ كما يرام.. كان المنزل قد سار أيسر إليه.. هكذا لم يعد الحديث شائقا ولم تخرج إجابته عن هزة رأس وكلمة قصيرة:

- «قطعا».

- «هو كذلك.. وكذلك أمريكا.. نتشارك هذا المجتمع الذكوري البغيض».

هز «أحمد» رأسه ساخرا وقد قرر أن الحديث قد انتهى.. لكن «رأفت» بدا وكأنه لم يرَه.. يقول في صلابة:

- «في مجتمعنا تعلمنا أن نقهر النساء.. تغير الموقف مع الوقت وقد صارت الأمور أفضل.. هذا يعطي الإحساس بالأمل.. المجتمعات الغربية تمارس الذكورية بشكل أكثر ذكاء يا أستاذ أحمد.. كل شيء مرسوم للرجل كي يصير أفضل.. كي ينجح.. يحصل على ما يريد باسم الحب حتى يكتفي.. كلما ملَّ أو زهد صار بمقدوره أن ينسحب.. كلما فقدت الزهرة رحيقها صار إلى زهرة أخرى أكثر شبابا.. ويبقى في الأحوال كلها حرّا بلا قيود.. لا التزام تجاه حبيبته سوى الكلمات.. يمكنك أن تمحو صفحة الماضي في أي وقت وتبدأ من جديد».

ينظر إليه «أحمد» متعجبا، لكنه يواصل:

- «هكذا يعيش الرجل.. لا يشغله سوى نجاحه وطموحه، بينما تبقى المتعة دائما خيارا لا يؤخره.. لا مسئولية.. بينما تظن الفتاة أنها هي الحرة المسيطرة.. أنها تمسك بكل مقاليد الحياة في مجتمع يتاجر بها على زجاج

المتاجر وأغلفة المطبوعات.. حتى يتقدم بها العمر فتدرك أنها قد صارت وحيدة لا أحد يمنحها الحب.. لا زوج ولا أبناء.. أو ربما أبناء يهجرونها.. هكذا تعاني البائسة، بينما يستمر كل من عرفتهم من رجال في حياتهم لا يعطلهم شيء.. لكل عملة وجهان، لكن الوجه الأقوى دائما ما يكون إلى السماء».

ابتسم «أحمد» ساخرا وهز رأسه وكأنما اعتاد هذا النوع من الحديث.. قال:

- «لا تعرف شيئا عن المجتمع الغربي.. فقط تصفه كما يقرؤه المصريون في الصحف والروايات.. ما تحكي عنه مجرد قشور.. هذه المجتمعات تحمي الحرية.. وعلى كل شخص أن يتحمل مسئولية قراراته».

هز «رأفت» كتفيه وقال:

- «حقا.. لكن حين تسيل الحريات فتغرق كل تفاصيل حياتي: يأتيني الفساد في التلفاز.. يأتيني تطرف الفكر والانحلال في الشوارع وكل مكان.. حيث لا تجد لنفسك ولا لأولادك مكانا آمنا يحميهم من سيطرة عرف هذا المجتمع الأحمق عليهم.. ثم يصير عليك لزاما أن تحترم هذه الحريات؛ لأنها - نظريا - تخص الآخر.. الإعلام الأمريكي بكل وسائله يتبنى فكر الحرية المطلقة.. حرية السخرية.. فيصير الأفارقة قرودا ويصير العرب هوام الصحراء.. الآسيويات عاهرات والمكسيكيون مجموعة من اللصوص.. المسلمون همج واليهود لئام.. لا يهم ما تصم به البشر ما دام الناس يحبون ذلك.. وما داموا هم الأرقى في تلك الصورة.. عليك أنت أن تقبل..

لا شيء يحمي كرامتك في هذا النوع من الحريات».

- «هراء.. ينقدون أنفسهم كما ينقدون الآخر.. فكر متطرف كعادة الناس

obeikandl.com

هنا.. يؤسفني أن تكون تلك هي طريقة تفكيرك.. قد لا يعجبك هذا لكنه خيار المجتمع.. لو أراد المجتمع أن يعيش بصورة مختلفة لفرض إرادته.. تلك هي الحرية».

أجاب «رأفت»:

- «خيارات ظاهرة.. بينما تبقى الحياة بلا قيود هي الخيار السهل».

رفع «أحمد» شفتيه كتعبير عن الاستنكار.. هز يده مستخفا لكنه لم يكمل حديثه.. لاح «وسيم» في ظهر «أحمد» فاقتطع «رأفت» حديثه وقال في برود:

- «اذهب لصديقك المجنون.. قبل أن يصل إليك ويلقي عليَّ بلعناته المسرحية كعادته».

رفع «أحمد» رأسه واستدار لـ«وسيم» وكان قد أشار إليه.. وقبل أن يصله كان الأخير قد زفر من صدره لهيبا من الانفعال وقال:

- «لا أدري ماذا فعلت بالضبط، لكنني لا أبالي.. اصعد معي فقد أنهيت كل شيء مع الرجل.. فقط أرجوك لا تفعلها ثانية.. قد تموت على هذه الأرض.. لا مزاح في ذلك».

لم يجد «أحمد» ما يقول.. فقط هز رأسه كما اعتاد أن يفعل ثم ربت على كتفه شاكرا فابتسم له «وسيم» ابتسامة مرهقة وأشار له كي يتبعه..

- «لا أبغي مزيدا من المتاعب لك.. سأرحل إلى أي فندق».

- «بل ستصعد معي الآن.. كفاك سُخْفًا».

ثم جذبه من ذراعه بلهجة لا تقبل بعدها نقاشا..

بدا وكأن «أحمد» يقابل شخصا آخر.. تعجب مما يخفيه هذا الشاب من جمال تحت جلده القاسي وشعر وكأنه يريد أن يعرفه أكثر..

تأخر كثيرا..

أم أنها الأحداث تسير في هذا النسق؟!

* * *

أفاقت «ماري» من دموعها مذعورة حين تعالى صوت صدام الباب.. رفعت رأسها وأمها التي لم تتوقف عن ربتها الدءوب على كتف الفتاة لتنظرا القادم المتوقع.. كان «جورج» كاظم الوجه غارقا في الأفكار، لكن وجهه ما زال منتفخا بالغضب..

- «خيرا يا جورج؟».

يشير لها بالصمت.. يتحرك نحو الفتاة الغارقة في النحيب ويقول بصوت حاول أن يجعله هادئا:

- «ستنسين كل ما حدث يا ماري.. الأمر معقد لكنه ليس كما ظننا.. هذا الفتى الأرعن شاب ملحد».

ترفع «ماري» رأسها ليظهر وجهها الذابل من بين دموعها بينما يتعالى شهيق أمها:

- «ملحد؟».

يقول «جورج» في حزم:

- «تربى في بلد أجنبي وصار ما هو عليه.. هذا لا يعنينا على كل حال.. فقط ما يعنيني أنه لم يقصد الخداع.. لكنه كذلك قد يقصد العبث والتسلية.. في كل الأحوال تتساوى كل الأوجه.. ملحد أو مسلم.. هو شخص علينا أن ننساه».

تردد «ماري» غير واعية:

- «ملحد؟».

obeikandl.com

شيء في عيني ابنته جعل «جورج» يرد في صرامة:
- «ليكن ما يكون.. انتهى الأمر.. ستنسين ما حدث يا ماري ولن ننطق بشيء حتى ينصرف هذا الشاب.. وقد صار ذلك وشيكا».
سألته زوجته بصوت مبحوح:
- «ومتى يفعل؟».
تنهد «جورج» ليعلن فصل المعركة ويقول بلا انفعال:
- «سيسافر غدا أو بعد غد.. وإلى هذا الحين أفضل ألا تغادر ماري البيت مطلقا.. هذا شيء أحب أن يطاع».
تنهدت الأم بينما بقيت «ماري» في نحيبها الهزيل بلا حراك.. لم يحب «جورج» أن يسمع نحيبها ولم يجد قدرة على نهرها فاكتفى بنظرة طويلة لزوجته التي هزت رأسها متفهمة..
عادت الأم إلى الاحتوار بينما استدار هو إلى غرفته.. ثم سار إليها وقد غاص في بركة من الهم..

* * *

obeikandl.com

وحين غادر «وسيم» غرفته لم يجد سوى ابتسامة تحتويه..
كان «أحمد» كعادته غارقا في قطعه التي لا تنتهي.. كان شكلا شديد التعقيد، حتى إن «وسيم» لم يتبين كنه هذا الشيء لكنه لم يسأل.. اقترب من «أحمد» وجلس بجواره قائلا:
- «يبهرني ما تفعل».
رفع «أحمد» رأسه إليه وقال:
- «هذه ألعاب يا وسيم.. أشياء أحقق بها أحلاما لا أقدر عليها».
لم يبدُ «وسيم» مهتما بما يقول.. دنا منه وتنحنح حتى جف حلقه:
- «أحمد.. أيمكنني أن أحدثك كأخ ولو لدقيقة واحدة؟».
تسمَّر «أحمد» لبرهة وترك ما يفعل.. رفع رأسه ببطء وقال:
- «شيء يسعدني.. أسمعك».
مال عليه «وسيم» وكأنه يسعى لمزيد من الإقناع.. لم يكن يجد يسرا فيما يقول، لكنه كان مصرا:
- «أحمد.. حدثتني عن قصة إلحادك أو ما تسميه حريتك.. قبلت ما قلت ولم أعلق.. لكنني فقط أسألك: ما دمت قد عشت لهذا العمر على الإسلام.. واليوم تقرر أن تقضي ما بقي من عمرك بلا دين.. لماذا لا تتأنى أكثر؟ هذا قرار أكبر من أن يُتخذ في يوم أو يومين».
- «ماذا تقصد؟».
- «أقصد أن تعطيني فرصة كي أريك شيئا لم ترَه.. أن أقربك من نور الرب.. لربما وجدت أنك قد تسرعت في قرارك.. ولربما وجدت السكينة في محبته».
ابتسم «أحمد».. شيء لم يفاجئه:
- «تدعوني لدينك؟».

obeikandl.com

يرد «وسيم» في حماس:

- «بالأحرى أساعدك أن تتخذ قرارا صائبا.. أنت لا تعرف ما يكفي عن المسيحية.. وقرارك جاء من معرفتك بالإسلام فقط.. العقل يدعوك لأن ترى الحقيقة كاملة قبل أن تحكم.. لا أدعوك لديني، لكنني أدعوك كي ترى كل شيء قبل أن تقرر ما تريده لنفسك ما تبقى من العمر».

- «كلام منطقي».

يقولها راضيا.. ثم يبتسم:

- «لكنني لم أقرر عن جهل يا وسيم.. لقد رأيت ما تفعله الأديان بكم.. جميعا.. لا أرى فضلا لأحدكم على الآخر.. حتى اليهود.. أفكارهم المخبولة كلها خرجت من جعبة ما علَّمهم إياه أحبارهم.. فقط الجيدون منهم هم من نبذ تلك الأفكار».

قال «وسيم» في صبر:

- «لن تخسر شيئا يا صديقي.. ستسمع.. عقلك كفيل بالحكم».

- «وما الجديد يا وسيم؟ كل الأديان تردد الأقوال نفسها.. حتى البوذية.. كلام عن الخير والمحبة والرحمة.. وكأن أبي أو رجلك المجنون هذا لم يكادا يفتكان بي.. أو كأن صور القتلى في شقتك لا تسوِّد الحياة في وجهك كل مساء».

- «أحمد.. هي أخطاء بشرية.. لكن الحق ظاهر.. ولربما وجدت السكينة فيما أدعوك له.. أعطِ نفسك هذه الفرصة.. حتما لن تخسر شيئا».

تنهد «أحمد» قائلا:

- «هذا شرطك؟».

- «لا.. لا شروط.. أنت ضيفي في الأحوال كلها».

هزَّ «أحمد» رأسه ثم عاد لما يفعل.. قال وكأنه يخاطب القطع:

obeikandl.com

- «حسنا وسيم.. سأفكر.. أعدك بهذا».
أدرك «وسيم» أنها نهاية الحديث فلم يشأ أن يبدو ملهوفا.. نهض من مقعده وقال ليهرب لحديث جديد:
- «سأصنع كوبا من الشاي.. ما رأيك؟».
أشار له «أحمد» أن نعم فاستدار إلى المطبخ..
عقله يعمل في سرعة.. متوتر الأعصاب لكنه يتظاهر بالتماسك.. وعيناه على الضيف من حين لآخر وكأنه يخشى أن يختفي أو يهرب..
حتما.. لن يتركه..
وقد قرر..

* * *

وبعد أن تيقن أن جميع الحاضرين قد غادروا المسجد البعيد قام هو من جلسته كي يدنو من الشيخ..
وحين رفع الشيخ رأسه إليه ابتسم.. ملامح وجهه تخطت الخمسين لكنها بقيت على قدر كبير من الوسامة وبراءة الطلة.. قد عرف أن «حسين» يريده فتفاءل خيرا.. أشار إليه أن يقبل فتهلل الشاب واندفع إليه ثم انحنى إلى يده يقبلها في اشتياق.. لم يشعر أن بالمسجد غيرهما على الرغم من أن شقيق الشيخ كان بجواره..
يقول الشيخ «سيد واصل» وقد علت وجهه ابتسامة تحوي الكثير من العطف:
- «كيف حالك يا حسين؟».
- «على خير حال يا مولانا.. يكفيني رؤيتك ورضاك».

obeikandl.com

ربت الشيخ على كتفه فارتجف الشاب فرحا.. لم يصدق أنه قد صار في دائرة الشيخ ومحل ثقته.. انتظر ملهوفا كلمات الشيخ التي خرجت بطيئة ثابتة:

- «وكيف حال المهمة؟».

قال «حسين» ملهوفا:

- «كما أمرت يا مولانا.. قمنا بتخزين السلاح كما أمرت.. وسنحمِّل عربات النقل لتتحرك بها عند الفجر بمشيئة الله».

هز الرجل رأسه راضيا وقال:

- «هذه الأسلحة ستذهب لإخواننا في الأراضي المحتلة وفي بلاد فاسدة يجاهد شرفاؤها لتطهيرها.. ما تقوم به هو عمل عظيم فاحرص على إتمامه».

- «أعرف يا مولانا.. يكفيني أن أطيعك».

- «حسنا».

ثم مد يده إلى جيب جلبابه فأخرج ألفا من الجنيهات وناولها لـ«حسين» مردفا:

- «بارك الله فيك يا حسين.. خذ مني أيها الولد الصالح».

رفع «حسين» رأسه إليه وطلت منه نظرة منكسرة.. قال بصوت مبحوح:

- «لماذا يا مولانا؟ لماذا تريد أن تحرمني من أجري؟ أنا والله أفعل ذلك من أجل الله ورسوله ومن أجل نصرة الإسلام».

مد الشيخ يده أكثر وقال بصوت رفيق:

- «وهذا المال لن يوفيك حقك أبدا.. قليلون هم من ينصرون الدين ويفعلون ما تفعله حتى بأضعاف هذا المال.. هذا مجرد مكافأة ومحبة لا أكثر.. لكن الأجر الحقيقي في جنات النعيم إن شاء الله».

obeikandl.com

أطرق «حسين» رأسه.. شعور بالإحباط جعله يردد:
- «لكن يا مولانا...».
هنا ارتفع صوت الشيخ بحنجرة صارمة وقال وهو يدس له المال في يده:
- «لا تجعلني أغضب منك يا حسين».
تناول «حسين» المال ووضعه في جيبه وعيناه تهتزان.. لم يكن يتحمل أن تتغير لهجته الحانية فآثر الطاعة..
ثم إنه قد قال بصوت منخفض متوسل:
- «أشكرك يا مولانا.. لكن المال لا يعنيني.. وقد قبلته من أجل كلمتك فقط.. لكن.. بقي رجاء أسألك بالله ألا تمنعه عني».
صمت الشيخ لوهلة أطرق فيها في الأرض وهو يداعب مسبحته فصمت «حسين» ولم يكمل.. يعرف أن الشيخ قد قرأ ما في رأسه بنور بصيرته..
- «مجددا تسألني السؤال ذاته.. أعرف يا حسين أنك تريد قطعة سلاح لنفسك، لكني لم أمنع هذا عنك إلا خوفا عليك.. قطعة السلاح تلك تهمة جاهزة في بيتك.. كما أنك شاب غيور متحمس.. وأخشى عليك مما نحن فيه أن تندفع تارة تحت تأثير الغضب الأعمى فتجلب لذاتك ولنا الوبال.. تذكر دائما أن السلاح هو الورقة الأخيرة.. فمن يلقي ورقته الأخيرة أولا فقد حرق كل أوراقه واستعجل نهايته.. فإن سقطت ورقتك تلك ولم تربح لم يعد هناك ما يمكنك أن تفعله.. كما أن السلاح إذا ارتفع لن يرحم أحدا؛ لذا يكون السلاح دائما في أيدي أشخاص بعينهم».
لكن نظرات «حسين» بقيت متوسلة راجية.. خرجت كلماته ضعيفة لكن مؤلمة:
- «أرجوك يا مولانا.. سيكون طلبي الأخير ثم طاعة عمياء».
صمت الشيخ لوهلة.. أطرق ثم عاد برأسه يتأمل نظرات «حسين»

المستعطفة.. ثم هز رأسه أن نعم وإن لم يبدُ راضيا فانحنى عليه «حسين» يقبل يده غير مصدق:

- «أشكرك يا مولانا.. أشكرك.. جزاك الله خيرا يا مولانا».

أشار له الشيخ أن انصرف، فهب الشاب واقفا بلا تأخير وحياه منصرفا ووجهه يشع بشرا..

- «في رعاية الله يا حسين».

وما إن انصرف الفتى خارج المسجد حتى مال شقيق الشيخ عليه.. كان وجهه متجهما:

- «يا شيخ سيد.. لماذا أعطيته المال عنوة؟ هذا شأنه».

ابتسم الشيخ ابتسامة باهتة ثم أدار رأسه إليه وقال بلا تفكير:

- «يا شيخ علي.. لو لم ينَل مثل هذا الشاب ما يكفيه من وراء هذا العمل فربما يرضى اليوم لكنه لن يرضى غدا.. ستأتي لحظة يضطر فيها للانصراف عنك من أجل لقمة العيش ولن تستعيده مرة أخرى.. الفقر يهد العزيمة».

أدار أخوه الكلمات ببطء في رأسه.. ثم قال مستفهما:

- «لكنك لم تعطِه سوى مبلغ متواضع جدا!».

قال الرجل في حزم:

- «ليكفي معيشته.. لو أعطيته أجره الحقيقي كما تقتضي تلك التجارة لأفسدت فطرته وغايته.. سيغتني حتى يعرف حياة الترف.. وسيتعلم أن يطمع.. وأن يفعل ذلك من أجل المزيد من المال.. لكنني أريده أن يفعلها دائما من أجل طاعة الله ورسوله».

صمت «علي» ولم يعقب.. هنا استند الشيخ إلى كتف أخيه ونهض وهو يقول:

- «دعك من هذا الحديث الآن.. قد أوشك الليل على الانتصاف.. عليك أن

obeikandl.com

تتابع الأمر بنفسك».
تبعه أخوه في صمت وسار خلفه بينما يتحرك الشيخ نحو باب المسجد.. يلقي نظرة على ظلام الحياة الذي ينتظرهما في لهفة..

* * *

ابتسم القس حين دنا منه «رأفت»..
لم يكن «رأفت» - على الرغم من مداومته على الكنيسة - كثير الحديث مع القس «بولس»، لكن القس كان يعرفه.. لم يكن هذا حديثه الأول وقد اعتاد القس أن يأتي «رأفت» من حين لآخر يسأله المشورة في أمر من أمور حياته التي لا تستقر.. كان الفتى شديد التدين والعقل وكان القس يحبه..
- «أبونا».
- «تفضل يا رأفت.. كيف حالك يا بني؟».
ابتسم «رأفت» في مرارة فأدرك القس ما قد يسمع..
- «لا أدري يا أبانا.. لكنني لا أستطيع أن أتحمل أكثر».
- «إيمانك قوي يا رأفت.. فماذا حل بك؟».
تنهد «رأفت».. يفرغ آلامه بين يدي الرجل:
- «تعلم ما حل بي يا أبانا؟ سئمت نظرات الآخرين لي وكأنني عاصٍ أو مقصر.. سئمت تسللي من بيتي لهذه الكنيسة وكأنني أسرق.. أخفي من نفسي شيئا لا أخجل منه.. فلماذا أفعل؟».
ابتسم القس وقال:
- «تتذكر.. نصحت والدك في أول مرة حدثني فيها ألا يخفي أمرا كهذا..

obeikandl.com

لكنه - وله العذر - لم يستطِع وألحَّ في كتمانه.. لقد عاد من الولايات من أجل أهله وأقربائه وما كان أحد ليقبل أن أعترف لهم.. أفضل الاحتمالات كانت هي القطيعة».

قال «رأفت»:

- «لقد مللت هذا كله.. أكره الأكاذيب.. أحذر المسلمين تارة وأحذر أبناء ديني تارة.. متى أحيا كسائر البشر؟!».

هز القس رأسه في عطف.. قال بكلمات هادئة:

- «رأفت.. بل أنت شخص مرهف شديد الحس.. كثيرون في الدنيا يعيشون معاناتك أو أكثر.. من ماضينا السحيق وإلى الآن.. انظر لهؤلاء الإخوة والأخوات في قلب الكنيسة.. كلهم من البروتستانت لم يخفوا هذا عن أحد.. اسألهم عمَّا يفعلون في الحياة.. كلهم قوم ناجحون.. سعداء وراضون.. علَّمهم ربهم كيف يتعاملون مع الآخر.. افتح قلبك للصالح ستجده من بين كل الناس.. فقط لا تسأله من أنت.. ستجده بقلبك.. واعلم أن الأذى من أجل الرب خير.. كل الخير».

لم يحرك «رأفت» عينيه عن عيني القس.. يحاول أن يتشرب كلماته.. لكن شيئا من الهم لم يزل بداخله.. تمنى أن يسمع أكثر..

- «لا تخشَ من شيء قد فعلته من أجل الرب.. تشجع.. ولا تجعل هاجس السفر يؤرقك.. أعطِ نفسك الفرصة كاملة ولا تُعِر مخاوفك اهتماما كي لا تسجنك.. فكر فقط في مستقبلك ولا تنتظر شيئا من الناس.. حتما ستنجح».

- «أصمت؟».

- «هو أمر يحكيه قلبك.. والرب لا يريد منك سوى هذا القلب النقي في الأحوال كلها.. لا تغضب أباك فهذا سيئ.. وابحث عن سكينتك في روحك

obeikandl.com

حتى لا تتألم أكثر».
رفع «رأفت» رأسه للسماء وترك نفسه وسط دائرة من أفكار تتلقفه.. صمت القس وقد وجد أن دوره قد انتهى..
فكر.. نظرات القس كانت رفيقة بما لا يقاس.. كأصابع على سطح الماء تخشى أن تشتت الصورة الشفافة عليه..
يتنهد:
- «أشكرك يا أبتاه».

* * *

لم يكن مدهشا لـ«مصطفى» أن تقابله نظرات «وسيم» بالدهشة ثم بقدر من البرود حين فتح له باب شقته..
لم يكن «مصطفى» يطيق هذا الموقف، لكن هواجسه حول «أحمد» لم تتوقف لحظة.. وقد كان لكلمات «حسين» عليه وقع أسوأ فلم يعد هناك بد من المواجهة.. تجاهل نظرات «وسيم» المتشككة وقال وكأنه لا يراه:
- «الأستاذ أحمد.. أسأل عن الأستاذ أحمد».
يهز «وسيم» رأسه متعجبا بلا فهم.. يستدير لـ«أحمد» الذي اشرأب بعنقه مستفهما فور أن سمع اسمه:
- «مصطفى؟».
ثم قام إليه مصافحا ودعاه للدخول.. انسحب «وسيم» تاركا لـ«مصطفى» نظرات متعجبة بلا مودة، لكن «مصطفى» لم يكن ينوي الاستجابة للإلحاح.. فقط أمسك يده وقال:
- «آسف على إزعاجك.. هي دقيقة واحدة من وقتك.. أحتاجك لموضوع

obeikandl.com

عاجل».

- «خيرا؟».

توجس «أحمد»، لكن «مصطفى» كان مصمما بلا منطق.. هكذا أغلق «أحمد» الباب خلفه ليرافق رفيقه إلى السلم:

- «ما الأمر يا مصطفى؟».

- «موضوع مهم.. اعذرني، لكنني لم أستطع أن أنتظر للصباح».

قال «أحمد»:

- «أمر واضح.. قد تجاوز الوقت منتصف الليل».

- «اعذرني».

ضحك «أحمد» ضحكة قصيرة:

- «لم أجد شيئا بعدُ كي أعذرك عليه.. وإني لأنتظر شيئا أسمعه».

كانا قد بلغا مدخل المنزل إلى بطن الحارة التي انحسر عنها الزحام في هذا الوقت المتأخر.. قال «مصطفى»:

- «أريد أن أسألك يا أستاذ أحمد، وأرجو أن تصارحني إن كان للحق أن يقال».

- «أسمعك».

- «لماذا تأوي إلى منزل وسيم؟».

استدار إليه «أحمد».. أوشك أن ينفعل، لكن «مصطفى» تلقفه مستدركا:

- «اعذرني يا أستاذ أحمد.. لا أريد أن أتدخل في أشياء لا تعنيني.. فقط أسأل.. لماذا وسيم تحديدا؟».

زفر «أحمد» حمم غضبه في أنفاس الهواء ليهدأ.. قال في تأنٍّ بينما يدعوه «مصطفى» كي يواصل السير:

- «أسباب خاصة.. هل يرضيك هذا الرد؟».

obeikandl.com

- «لا أريد أن أثير حفيظتك، لكنني أتعشم أن أفهم أكثر.. إن كان الأمر بالمأوى فكلنا إخوتك.. بيتي مفتوح لك.. لا يسكنه سواي وأمي العجوز

وسأسعد حقا بوجودك.. أؤكد لك أنك سترتاح بصحبتي».

قال «أحمد» وقد بلغا المقهى:

- «أشكرك يا مصطفى.. لكنني أرى في هذا كله مبالغة غير مفهومة.. لا أعاني شيئا من بقائي في بيت وسيم، فلماذا...؟».

ثم توقف بغتة فأوقف «مصطفى» واستدرك:

- «أم أنه حديثك عن وسيم وجماعات التنصير؟».

ابتلع «مصطفى» ريقه وهو يدعوه لمزيد من السير:

- «أخشى عليك.. وسيم جارنا منذ أدركت هذه الدنيا وإني لأعرفه.. سيفعل كل شيء كي يفتنك.. قد وهب حياته لمثل تلك الأشياء».

كانا قد بلغا نهاية الطريق.. الظلام الكاحل.. ولا أنفاس..

- «مصطفى.. لا تجعلني أندم على ثقة أعطيتها لك.. هذا شأني ولا يحق لك أن تتدخل فيه.. نصيحتك قد وصلت وإني لشاكر، لكنك لن تشملني بالحماية كطفل صغير.. وهذا هو أكثر ما استطيع أن أقول بتهذيب قبل أن أصير شخصا آخر».

لكن «مصطفى» لم يرد.. تحول لتمثال من حجر وتسمرت عيناه على الظلمة فكتم «أحمد» أنفاسه واستدار..

ظلان يخرجان من خلف الأبنية المهدومة.. «حسين» وشاب في مثل عمره وقد تقدما في اتجاه «أحمد» الذي أجفل ثم هز رأسه غير فاهم.. استدار لـ«مصطفى» الذي تراجع خطوة ثم عاود النظر لـ«حسين» متوجسا..

- «مرحبا أستاذ أحمد».

obeikandl.com

- «ما معنى هذا؟».

ثم التفت إلى «مصطفى» الذي أشاح بوجهه..

- «لا تخشَ شيئا يا أستاذ أحمد.. لسنا هنا في شر يؤذيك.. هي نصيحة سأكررها على مسامعك كما نصحك بها مصطفى».

رددها «أحمد» محنقا:

- «مصطفى؟».

لم يجب الأخير وآثر الصمت..

- «أستاذ أحمد.. نرجوك أن تستجيب.. لا نبغي سوى حمايتك وما نحسبك إلا فريسة جديدة لوسيم وأمثاله.. لا أدري إلى أين صار الأمر معك ولا بما أغراك أو يغريك، لكنه حتما سيفعل؛ لذا نرجو أن تعود إلينا إن احتجت لمأوى».

- «جميل.. وقد أرسلتم مصطفى كي يستدرجني إلى هنا.. هذا خبال».

- «لا تسئ الظن بمصطفى.. قد فعل ذلك خوفا عليك».

رفع «أحمد» سبابته غاضبا في وجه «حسين» وقال:

- «هذا أمر لا يعني أحدا غيري.. هل جننتم؟ يمكنني أن أستدعي الشرطة من أجل ذلك.. ستحتفي بأمثالكم قطعا».

قال «حسين» كاظما غيظه:

- «لا أفهم ثورتك بينما ندعوك بالحسنى لأمر فيه صالحك».

صاح «أحمد» في هياج:

- «لا حسنى فيما فعلتم.. وصالحي أنا أعلم به.. أنت شاب في مثل سني، فمن ولّاك على إرادتي؟».

- «فقط ننصحك بالحسنى».

- «لا تعنيني نصائحكم».

obeikandl.com

ثم أدار رأسه للجميع ورفع رأسه يهتف:
- «فلتعلموا جميعا يا رجال الجهل أنني حر.. سأبقى مع وسيم وإن كان الشيطان نفسه.. أكون في دينكم أو دينه أو بلا دين أصلا، هذا شأني.. لا توجد قوة في الكون لتأمرني أو تنهاني.. إن أردت شيئا فلا توجد قوة في الكون لتوقفني.. موتوا بخرافاتكم.. هل يكفيكم هذا؟».
ردد «مصطفى» استغفارا مذعورا، بينما انتفض «حسين» ووثب يمسك «أحمد» من قميصه وقد تملَّكه الغضب:
- «لا تجعلني أقتلك ها هنا.. أنت لا ترعى في كلامك حرمة وإني لمرجعك لعقلك وإن قسمت رأسك».
- «أنت مجنون».
لكن «مصطفى» اندفع مفرقا.. قال من بين مقلتين دامعتين من فرط الانفعال:
- «أرجوك يا حسين.. لقد أطعتك حين وعدتني بأنك لن تلجأ لهذا.. فقط الحسنى.. هكذا قلت».
صاح «حسين» كالمجنون:
- «ألم تسمع ما قال؟».
رد «مصطفى» في جرأة من فرط ما وقع على أعصابه:
- «وقد سمعت أنا ما قلت.. فليذهب حيث يشاء.. هذه دعوتنا إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة».
رمق «حسين» «مصطفى» بنظرة غاضبة، لكن «مصطفى» لم يكن مستعدا للمجاملة.. أشار لـ«أحمد» أن انصرف وكفه لم تبرح صدر «حسين» الذي صمت وصدره يعج بمشاعر شتى.. حدق في وجه «أحمد» الذي انسحب وسبابته تشير إلى الواقفين في غضب:

obeikandl.com

- «ستدفعون ثمن هذه الحماقة غاليا».
حرَّك «حسين» قبضته، لكن «مصطفى» استمسك به أكثر حتى رأى ظل «أحمد» يختفي تدريجيا إلى بطن الحارة.. وجهه محتقن بانفعال وعيناه ترتعشان كمجنون..
يلتقط أنفاسا مهمومة..
ويوقن أن الأمر لن ينتهي إلى هذا الحد..

* * *

نظر «وسيم» إلى الساعة متوجسا..
الدقات بطيئة بينما يفكر هو في قلق حقيقي.. سر تلك الزيارة المتأخرة.. وملامح «مصطفى» الملهوفة..
لا يجد علاقة تجمعهما.. ينظر للساعة مجددا ثم يظن أنه يبالغ.. يقينا سيعرف كل شيء في دقائق.. إن كان هناك شيء يقال..
تحرك ليصنع لنفسه كوبا من أي شيء.. حين مر بغرفة «أحمد» وكان الأخير قد غادرها مسرعا.. لمح الألوان ربما للمرة الأولى فاستدار في فضول.. كان عملا ما تركه فجأة حين جاء «مصطفى»..
دلف «وسيم» إلى الغرفة ثم مد يده إلى اللوحة المثبتة على خشب خزانة الملابس يتأملها.. كانت صورة سريالية لم يفهمها، لكنها كانت شديدة البراعة.. الجمال حين لا تعرف ما هو مصدره.. فقط تختلط الألوان فتجعله شيئا ينطق بالحب والبهجة.. ساعتها لا يكون للعقل دور كي يفهم أو يحلل.. تأملها الشاب وقد اعترف لرفيقه بالموهبة.. قرر أن ذلك الاعتراف ربما يصير مدخلا لمزيد من الحديث معه.. المزيد من التقارب..

obeikandl.com

في ركن خفي يلمح أوراقا ملفوفة.. لوحات يبدو أنه قد انتهى من رسمها.. ينتابه الفضول لرؤية الروح التي ترسم فيتناول واحدة منها.. كانت

نقيضه.. انقلبت ملامحه بنفور الألوان.. اللون الأحمر الساخن كالدم الطازج وتمتزج الألوان حولها بالخوف كصرخات العذارى.. شيء كريه، لكنك لا تستطيع أن ترفضه.. مزيج غريب يجعلك تريد أن تحملق في اللوحة بلا توقف.. لكنك لا تتمنى أن تراها معلقة في وجهك.. يضمها في حرص ثم يعيدها حيث كانت.. يتناول أخرى وقد شده ما يرى..

فض اللوحة الأخيرة فانتفض.. لم يكن شيء من تلك اللوحة ينتمي إلى ما رآه للآن.. بل كانت صورة عارية لأنثى شابة.. ارتعدت أوصال الشاب بالشيء المنكر حتى إن كفاه قد تسمَّرتا.. تاهت عيناه بين التفاصيل المغرية للحظة.. لم يستطع أن يقنع نفسه بأنه لم يتدارك ما رأى بعدُ فانتابه الذنب وقرر أن يطوي ما رآه.. صورة بارعة تضاهي الحقيقة، حتى إنها قد كشفت له عمَّا لم يتمنَّ أن يراه.. كانت شديدة الحسن، حتى إنه أنكر نظرة أخرى كان يشتهيها قبل أن يطوي اللوحة..

ذلك حين انزاحت يده عن الوجه الجميل.. ساعتها لم يطوِ اللوحة..

ابتلع ريقه بصعوبة.. ارتجفت شفتاه.. كذَّب نفسه، لكنه لم يجد منطقا.. كان وجه «ماري» الجميل هو صاحب تلك الصورة.. ذات النظرة البريئة كأنها تنكر هذا الذي صارت له..

انقبضت كفه على الورق الهش ما بين شعور بالفزع وطاقة عارمة من الغضب.. ليست «ماري».. بل هي صورتها كما رآها الشيطان.. كما رسمتها تلك الأنامل في شهوة.. «ماري» البريئة وقد انتهكها خيال وقح..

كان «أحمد» قد أوشك على العودة.. يضم «وسيم» اللوحة بين كفيه.. لا

يدري.. للحظة فكر أن يمزقها.. أن يحرق «أحمد» حيا لكنه لم يستطع.. فكر.. دارت بعقله أفكار كالموج فتردد لحظة.. هذا أمر لا منتصف فيه.. إما أن يحرقه حيا وإما أن ينسى كل شيء.. أن يعيد ما أخذ.. لم يعد يجد في هذا الشاب شيئا إنسانيا يغريه بإبقائه.. قد تحمل إلحاده وأفكاره المسمومة ثم ما فعله بـ«ماري».. تحمل كلمات العم «جورج» وقرر أن يؤويه.. كان الشاب بالنسبة له مجرد أجر يقربه من الرب..

مجرد أجر.. مجرد خطوة تجعل الرب يرضى عنه.. تجعله يرضى عن نفسه.. هو هذا الشاب..

لن يخسره.. سيضحي التضحية الكبرى من أجل الرب.. سيكتم ما رأى.. حتى العزيزة «ماري» لن تكون أعظم التضحيات إن اهتدى هذا الشاب.. الغضب الهادر ما زال هناك.. لكنه قد بدأ ينزوي.. هل هو مجنون؟ سيظنه كثيرون كذلك، لكنه هو الرابح في النهاية.. هو يختلف لأنه دائما ما يختار الصواب.. ما يختار التضحية..

قرر أن ما سال على خده ليس دمع عجز وربما ليس عجزا عن الصدام.. أعاد اللوحة حيث كانت.. ما زال عقله المكدود لا يقبل، لكن صوت الباب المفتوح لم يمنحه فرصة للتفكير..

سار مسرعا إلى غرفته.. لم يشأ أن يرى «أحمد» وقد عاد من الخارج..

ظن أن الأخير سيحكي أمرا، لكن «أحمد» لم يُبدِ نيةً للكلام.. بدا وكأنه هو الآخر لم يشأ أن يراه فانصرف إلى غرفته وانساب إلى الفراش..

في غرفته.. يفكر.. لم يشعر «وسيم» للحظة بغرابة مبدئه.. بالأحرى عادت له روحه القديمة بمرور الوقت.. كلما زادت التضحية زاد الألم.. كلما زاد الألم زاد الشعور بالانتشاء..

لكنه لن يضحي بلا ثمن.. وقد حان الوقت كي يعرف ثمن تضحيته.. انسحب

الشاب إلى الغرفة المجاورة - غرفة «أحمد» - ولم يكن قد أغلق الباب بعدُ..

رآه «أحمد»، لكنه لم يشأ أن يتكلم.. تظاهر بأن شيئا لم يكن وقرر ألا يحكي ما حدث لـ«وسيم».. أن يترك ساعاته الأخيرة قبل الرحيل تمر بأي طريقة.. لكن إلحاح «وسيم» لم يعد قابلا للمجاملة.. كان يخشى أن يفر الشاب قبل أن يعطيه الفرصة.. كان ملهوفا فلم يلاحظ الاضطراب على وجه «أحمد» وقرر أن يجالسه في غرفته مجددا..

يقول «أحمد» في ضجر:

- «وسيم.. هذا حديث مللت من سماعه».

- «أرجوك يا أحمد».

ثم مال على فراشه وقال في مودة زائفة:

- «أعطني نصف ساعة لا أكثر.. الأب حنا يريد أن يراك.. نصف ساعة يعرفك بعالم لم تعرفه يوما.. لا أحد يملك إرادتك سواك.. ولك أن تختار».

استدار إليه «أحمد» وقال في ضجر:

- «طلبت منك أن تتركني لبرهة من التفكير».

- «ستسافر بين الحين والآخر.. أريد أن أمنحك تلك الفرصة قبل أن تفعل».

تنهد «أحمد» قائلا:

- «هذا لا يحرمني الحق في التفكير».

- «دع التفكير لما بعد هذا اللقاء.. لا يحتاج لقاؤك الأب حنا إلى قرار صعب.. سمِّه زيارة للكنيسة.. ستسمع منه لما تستمع ثم تنصرف».

مطَّ «أحمد» شفتيه ولم يجب.. كرر «وسيم»:

- «اعتبره طلبا أخيرا من أخ فتح لك بابه في محنتك».

- «وقد وعدتك بالتفكير».

obeikandl.com

ثم فرك «أحمد» وجهه وقد زادته كلمات «وسيم» ضجرا.. لكن «وسيم» لم يكن ينوي أن ينصرف.. دار إلى طرف الفراش ليواجه «أحمد».. خرجت الكلمات صعبة كحلق يُنتزع.. قال ببطء:

- «أحمد.. هل تحب ماري؟».

حدق فيه «أحمد» غير فاهم.. يستفيق.. ضاقت عيناه وهو يرد في حذر:

- «ماذا تريد أن تقول؟».

اقترب منه «وسيم» هامسا ثم أجاب في تردد:

- «أحمد.. سمِّ نفسك ما شئت، لكن ماري لن تكون لملحد».

- «لا أفهم.. إذًا؟».

- «من يدري؟ ربما تقرب تلك الزيارة روحك من نور الرب.. ساعتها ستزول كل الحواجز.. أعدك أن ماري سوف تكون لك».

- «هل تمزح؟ وهل ستقبل ماري أن ترتبط بي لهذا السبب؟ وهل يقبل أهل ماري بشاب مجهول لمجرد أنه قد آمن بالمسيح؟».

يقول «وسيم» في لهفة:

- «فقط افعلها ولن يحول شيء بينك وبين ماري.. أقسم لك».

يهز «أحمد» رأسه ساخرا:

- «لا أدري من أين جئت بهذه الثقة المجنونة؟».

يمسك «وسيم» يده ملهوفا ويقول:

- «فقط.. افعلها.. وثق بي يا صديقي.. سأفعل كل شيء من أجل هذا».

- «ليست ملكك».

- «لكنها مخلصة.. ستحب ما فعلت ولسوف تساندك.. ماري فتاة رائعة لا كغيرها من الفتيات.. ماري ملاك».

حدق «أحمد» فيه بنظرات مرتابة فأشاح «وسيم» بوجهه بلا معنى.. كتم

obeikandl.com

ما استطاع بداخله، لكن نظرات الأول كانت قاسية..

- «لنفكر في قسك أولا».

ثم أراح رأسه على الوسادة وغطى وجهه بكفيه وقد أهلكه الدوار.. لم يعر الجالس بجواره اهتماما وأغلق عينيه ليترك الأسود ينساب في رأسه فيمنحه بعض الهدنة من بين دقات الساعة..

أراد «وسيم» أن يقول شيئا، لكن إشارة «أحمد» أمرته بالتوقف.. أشار له ببعض الصبر ثم أغلق عينيه مجددا.. هز «وسيم» كتفيه عاجزا ثم استدار لينصرف.. تحرق الحقيقة قلبه، لكنه يتظاهر بالقوة.. يلعن هذا الذي يعرض عليه كل شيء رائع في الدنيا فيطلب فرصة ليفكر.. يتأفف.. ألقى نظرة أخيرة على «أحمد» الذي بدا وكأنه قد غرق في النوم فعلا ثم أطفأ الأنوار من خلفه..

جنون..

وأشياء أخرى..

هكذا فكر «أحمد»..

* * *

أغلق «مصطفى» الباب خلفه.. حمد الله أن أمه لم تكن هناك.. كانت نائمة كما يبدو..

يلتصق بالباب وينتفض.. كقاتل يجرب الدم لمرة أولى ثم هرول نحو النافذة.. ينظر إلى الطريق كي يطمئن ثم يستدير إلى غرفته.. يتسلل في خفة كي لا تسمعه أمه.. يلقي جسده على الفراش وهو يواصل الارتجاف.. تبدو وكأنها أحداث تليفزيونية.. كشيء يشاهده من خلف النافذة

obeikandi.com

المكسورة.. يتذكر ما حدث مذعورا ليتأكد - مجددا - أنه كان جزءا مما حدث.. أي جنون ذاك الذي أصابه كي يلقي بذاته في تلك المجازفة الحمقاء؟ ماذا لو أبلغ «أحمد» الشرطة؟ بل ماذا لو صار الموقف لما هو أسوأ؟ ماذا لو تعدى «حسين» حدود ما حدث؟ ماذا لو اعتدى عليه بسلاح - قطعا - يحمله؟ ماذا لو قتله؟

يرتعد أكثر.. يتمتم بكلمات ساخطة عن العقل الأحمق الذي يدفعه للتهلكة.. يرسم ذهنه صورة مرتعشة له في قسم شرطة وقد تكتلت عليه الوجوه.. يرى والدته المريضة.. يرى لجنة امتحان خالية من اسمه.. ينتفض.. يشعر بنفسه الهزيلة في مكان آخر.. حيث يدفع الثمن غاليا كما لم يتخيل..

ماذا فعلت؟

يحاول السيطرة على أنفاسه ويستند حيث يتمدد جسده المبهوت بالصدمة.. يفكر.. هل هو مخطئ حقا، أم أنه فقط أجبن من أن يفعل ما يعرف يقينا أن عليه أن يفعله؟ هل سيطر «حسين» على عقله، أم أنه قد أرشده إلى حق أحق أن يُتَّبع؟ لم يكن على يقين وكانت الحقيقة كنقطة من الألوان تهوي على سطح النهر..

هذا الذي اسمه «أحمد» حتما متورط.. لم تكذب مخاوفه ولم تكن من وحي خيال أو وساوس.. كلامه ولهجته وإصراره المريب على البقاء مع «وسيم».. رفضه الغاضب للإفصاح عن أسبابه.. شاب سقط وصار من الصعب أن يعود.. يهمس من بين أفكاره أن لا شأن له وأن الفتى الفاسد قد اختار لنفسه طريق النار كما أراد.. يعاوده الشعور بالخزي.. هذا الفتى حتما مضحوك عليه.. جاهل لا يعرف شيئا عن دينه وقد أغروه بدلائل مدروسة وكلمات نافذة.. ربما بالمال أو أشياء أخرى.. هل «حسين» هو

الأرعن، أم أنه - ذاته - هو الجبان المتخاذل؟ هي أشياء لا يفصل فيها القانون ولا تمنعها أعراف.. فهل هو مخطئ، أم هو مسلم ضعيف؟
يتذكر والده ويتمنى لو سمع منه شيئا يسعفه.. والدته المريضة.. يصير الأمر صعبا أكثر.. تختنق أنفاسه بأفكاره السوداء فيسعل.. يحدق في المرآة وكأن نفسه تزوره فيها لأول مرة.. صورة الأم العجوز على الحائط.. نظراتها الحانية تملؤه حيرة.. ويقرر أن عليه أن يفكر بشيء من الرحمة.. تعود الكلمات الحمقاء من فم «أحمد» فتجعله يرتجف.. يفكر.. يلقي برأسه على الوسادة ويعتصر جسده في حضن الفراش ويستغفر بصوت محروق.. يغلق عينيه.. بقوة.. لعل هذا أقوى من فكر لا يتوقف في رأسه..
وأقوى من أشياء.. لا بد أن تحدث..

* * *

غادر «مصطفى» المسجد شاردا وكأن يوما لم يمر.. كان خارجا من ساحة المسجد وقد أفقده الشرود توازنه فبدا كالطفل التائه.. يد قوية تمسك ساعده الهزيل فينتفض ثم يلتفت في بطء:
- «حسين؟».
قالها ثم قرر ألا يتكلم.. استدار منصرفا وقد ضاق صدره، لكن «حسين» اقترب أكثر حتى سار بجواره..
- «مصطفى.. لا أرى سببا لغضبك، بينما تعلم أنت عن يقين ما أصابني بالجنون ليلة أمس.. مع هذا لم أخُن كلمتي معك.. ولولاها لفتكت به».
تنهد «مصطفى» ولم يرد..
- «عليك أن تعي الأمر يا مصطفى.. الأمر جد خطير.. هذا الشاب رقيع

أحمق.. كما أنني لم أرَه يوما يصلي حتى صلاة الجمعة منذ جاء إلى هنا.. حديثه عن الشيطان وكل ما قال.. هذا الشاب ينجرف إلى الهاوية».

- «هذا شأنه».

قال «حسين» في حزم:

- «بل هي فتنة يا أخي.. هذا الشاب جاهل لا يعرف عن دينه شيئا ولا يبدو له أصل أو أهل يحكمونه.. هؤلاء هم الأسهل والأقرب للقنص.. لا يمكن أن نتركه.. قد صار علينا أن نمد له يدا قبل أن نفقده إلى الأبد».

استدار إليه «مصطفى» وقال:

- «ربما.. لكننا لا نملك له شيئا».

كان قد بلغ المكتبة فانحنى كي يفتح بابها الحديدي..

- «بل نفعل.. من أجله ومن أجل دين الله.. لن نتركه يضيع لأنه فقط جاهل مضحوك عليه.. سيظل ذنبه في رقبتنا إلى أن نلاقي المولى».

رفع «مصطفى» الباب وهبَّ معه واقفا وهو يقول بلا التفات:

- «أفهم، لكنني لا أعرف.. ماذا علينا أن نفعل؟».

فرك «حسين» لحيته مفكرا وقال:

- «هو سباق قاسٍ مع الزمن.. لكنني لن أُعدَم وسيلة».

ثم ربت على كتف «مصطفى» واستدار منصرفا، بينما استند الأخير على الحائط وقد أعياه الهم..

تمنى أن يُزاح الكابوس قريبا..

تمنى لو لم يرَ هذا الغريب يوما..

* * *

obeikandi.com

ارتعشت زاوية فمه بلا إرادة.. حدق في وجه «وسيم» الجالس في بيته غير مصدق ثم قام من مقعده وهو يقول:

- «هل جُننت يا وسيم؟ ألهذا جئتنا في هذا الوقت المتأخر من الليل؟ لتمزح؟».

كان غاضبا، لكن «وسيم» لم يتراجع.. قال بينما يواجهه «جورج» بعينين متسعتين وغيظ مكتوم:

- «عم جورج.. أرجوك».

- «كفاك يا وسيم.. ماذا أصابك؟».

قالها ثم عاد لجلسته الأولى في صالة منزله.. مذهولا لا تترك مقلتاه وجه «وسيم» الذي انغمر بالعرق..

- «هذه ماري.. ابنتي الوحيدة.. كما أنها ذاتها تلك الفتاة التي اخترت - أنت - لنفسك.. كيف تطلب مني اليوم أن أتركها لفتى رقيع من الشارع؟».

لم يكن «وسيم» واثقا جدا.. كانت ملامحه مهتزة، لكنه أجاب في توسل:

- «أستاذ جورج.. نعم.. تعرف كم تمنيت أن تكون ماري لي.. لكنني أتحدث عن أحمد.. شاب تائه في الظلام.. يحتاجنا كي نحتويه ونقربه إلى نور الرب.. هذا أعظم من كل شيء.. هذه تضحية من أجل هذا الشاب.. تضحية من أجل الرب يا عماه».

التقط «جورج» نفسا طويلا كي يهدأ.. لكن نبراته ظلت عصبية متوترة:

- «وسيم.. أفهم ما ترمي إليه.. تعلم يقينا أنني لست أقل منك إخلاصا للرب.. لكنني أرفض أن أدفع ابنتي لهذا الأمر أو أجعلها طرفا فيه.. أضحي بحياتي لكنني لن أفعل ذلك بابنتي».

- «لكنه لن يتزوجها قبل أن يؤمن بالمسيح.. شأنه كشأن أي مسيحي عادي».

obeikandi.com

رد «جورج» في حزم:

- «كما قلت.. لو نظرت إليه كمسيحي لرفضته.. شاب رقيع بلا عمل.. رأسه ممتلئ بالأفكار الكريهة التي ربما تمتلكه من جديد.. لا يا وسيم.. لن أقبل أن أفعل ذلك بماري».

- «ماري فتاة صالحة.. ستحتويه.. ستقوِّي إيمانه بإيمانها العميق».

قال «جورج» في عصبية:

- «لن أراهن عليه.. لن أدفعها للتجربة».

- «لا شيء في الدنيا قيد الضمان، فلماذا لا تعطيه الفرصة؟ لربما صار مخلصا أكثر مني ومنك.. لطالما شجعتني أن أهدي الناس إلى طريق الرب، فلماذا لا تعطي لهذا الشاب فرصته؟».

تلقف «جورج» أنفاسا سريعة وقد أرهقه الحديث.. قلبه يرتجف بالحيرة فيصمت ليلتقط حبالا من السكينة..

تقول الأم في قلق:

- «لكن يا وسيم.. هل ترضى أن نلقي بابنتنا الوحيدة لشخص لا نعرف عنه شيئا؟».

- «وماذا يعنينا من هذا؟ إن أعلن نفسه من أتباع المسيح فقد حرره الرب وجاء إلى حياة جديدة.. لم يعد له أهل سوانا.. ولا بيت سوى الكنيسة.. فماذا نريد أكثر؟».

- «قد يكون مخادعا يا ولدي».

هز «وسيم» رأسه نافيا في توتر:

- «لا يا عمتي.. إنه شاب شديد المراس ولا يبدو مخادعا.. قد صارحني بأنه لن ينصاع إلا لو صار قلبه مشبعا بحب المسيح.. لا يبدو مخادعا أبدا.. ما زال يقاوم، لكنني واثق من قلبه».

obeikandl.com

أرادت أن ترد، لكن الأب قد أشار لها في صرامة فصمتت ثم أخذ نفسا ملأ به صدره وقال في جفاء:

- «حسنا يا وسيم».

ثم استدار إلى ابنته.. مختبئة خلف باب غرفتها، لكن النظرة في عينيها تفضح ما يحرق أعصابه أكثر.. هكذا استدار لـ«وسيم» وأكمل:

- «دعني أفكر.. لا أرى داعيا للعجلة.. فلنرَ أولا إلى أين سيقود قلب هذا الشاب مصيره.. اليوم أجلس مع الأب حنا بعد أن ينهي جلسته مع الشاب».

ابتلع «وسيم» ريقه وقد تلاعبت به المشاعر.. كتم ما في صدره ورسم ابتسامة ما على وجهه وهو يقول:

- «تفكير سديد يا عماه.. ولسوف يكون الشاب الصالح الذي تريد.. أعدك بهذا».

- «لنترك ذلك للحظته».

هز «وسيم» رأسه وتنهد.. ثم ندت منه نظرة لم يعتدها ليكشف الوجه الساحر من وراء الباب.. يقرأ عينيها فيطمئن أكثر.. ويتألم أكثر.. قد صار على يقين أن تضحيته قد لاقت هوى في نفس الطفلة البريئة..

شعور يتمايل ما بين جنات الرضا وحرقة قلبه على ما خسر.. لكنه لم يكن ينتوي رجوعا..

تضحية كبرى..

ما أعظم التضحيات الكبرى..

دقت الساعة لتعلن يوما جديدا..

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الخامس

كُتب في أوراق ما وقد ضاعت منه إلى الأبد:

- «هي لحظات أكره أن أراها مجددا.. أنا مصري مسلم ممن شاء القدر أن يعيشوا حادث الزاوية الحمراء عن قرب.. أيام سوداء.. لحظات طويلة كحروب الشوارع وأشياء نسمعها في صراعات أهلية.. علّي أعرف حقا كيف صار ما صار ومتى كانت البداية.. مشاجرات ثم طلقات نارية وأسلحة وضرب لا ملامح له.. ترى صبية يعدون في مكان ويرددون بأن النصارى قد هاجموا مسجدكم.. وأصواتا أخرى بأن المسلمين يحرقون بيوت النصارى.. لا تميز الأصل فيهم من التابع.. أشياء تحدث في لحظات ثم يصير من المستحيل أن تعرف ما حدث.. فقط مأساة لا منتصر فيها.. وأيام من الذعر.. كنا مختبئين كأيام الحرب.. لكن أحدا لم ينجدنا».

obeikandl.com

حوار بين مجموعة من الشباب على صفحة قبطية - صفحة المناقشات
- «يؤلمنا هجوم الأنبا بيشوي»..

التعليق الأول (كاتب الموضوع): أنا واحد من المنتمين لدير القديس سمعان الخراز بالمقطم، وقد آلمني بشدة وصف الأنبا بيشوي في مؤتمر الفيوم لهذا الدير المبارك بأنه وكر.. وأنه جزء من مؤامرة إنجيلية لتحويل الأقباط الأرثوذكس إلى بروتستانت.. كما آلمني اتهامه للدير بأنه تغلغل داخلي خبيث وأن لديه تسجيلات تؤكد أن المصلين في الدير يهاجمون البابا «شنودة» في صلواتهم وأنهم يرفضون أن يتبعوا أحدا سوى المسيح.. وأنهم سوف يتصدون للفخ الإنجيلي ومن يرسمونه بكل حزم وقسوة..
أشعر بالحزن ولا أعرف ما رأيكم..

التعليق الثاني: أقدر حزنك وأشاركك الحزن نفسه، لكننا، أبناء دير المقطم وأبناء يسوع، تعلمنا أن نسامح وألا نجزع.. الرب يعرف الحقيقة، لكنه الامتحان الذي لا مفر منه والذي نتعلم منه الإخلاص والثقة أكثر فأكثر في رب الأرباب.. نحن نعاني كما عانى يسوع وتلاميذه من حوله.. ونحن ندعو للخاطئ أن ربنا يحميه من الشر ويرجعه للصواب.

التعليق الثالث: ربنا يبارك حياتك.. صلوا من أجل الدير ومن أجلنا كلنا.. نحن بحاجة إلى المحبة.. نحن في حاجة إلى سماحة المسيح.. لا أقول بأن نسكت على حقوقنا، لكن أن نثق في عدالة ملك الكون..

«٥»

متلهفا تراقبه عينا «وسيم» بينما يغلق «أحمد» أزرار قميصه المزركش ويتحرك إلى الصالة، لكن النظرات الملهوفة المحدقة فيه لم تفته.. ابتسم ابتسامة خافتة وأخرج سيجارة يشعلها ثم أمسك يد «وسيم» يجذبه إلى المقعد المقابل للأريكة وجلس في مواجهته فأوجس خيفة..

أطال النظر إليه وقال:

- «تبدو سعيدا».

- «يسعدني أن أجبت دعوتي».

نفث «أحمد» دخان سيجارته وقال في برود:

- «عليك أن تفهم يا وسيم.. هو أمر لا يعنيني.. أجبت دعوتك لأنني مدين لك.. مدين بنصف ساعة من وقتي لا أكثر.. لكنني لا أعدك بما هو أكثر.. فقط سأسمعه كما وعدت».

رد «وسيم» ملهوفا:

- «أقدر لك هذا.. فقط عدني أن تسمعه بإخلاص ولك بعدها ما تريد».

ينفث «أحمد» دخانا أكثر:

- «ليكن.. سأقبل ما قلت، لكنني أصر على أن تفهم.. هي مجاملة لك لا

obeikandl.com

أكثر.. قناعتي بعبث أفكاركم وتحكُّم الوهم بمصائركم ثابتة.. هي بالنسبة لي مناظرة مع رجل أفنى عمره في هذا الذي أراه خرافة وأزعم أنني قطعا سأنتصر.. في كل الأحوال لا بأس من تجربة جديدة.. الأهم من ذلك هو ماري».

- «ماري؟».

واصل «وسيم»:

- «لا تظن أنني سأخدعك أو أخدعها ولن أتبع القس من أجل الوصول إليها.. لست أفاكا.. ماري تريد رفيقا من دينها نفسه، وهذا حقها».

- «ربما يمكن أن...».

قاطعه «أحمد» في حزم:

- «حتى إن حدث.. فلن يكون من أجل ماري».

ثم مال عليه وقال بصوت صارم:

- «شيء آخر عليك أن تعرفه يا وسيم».

رفع رأسه إليه وقد أقلقته لهجته..

- «إن انتهت جلستي مع رجلك بلا اقتناع فقد انتهى الأمر.. وسيكون عليك أن تسمعني.. سآخذ فرصتي كاملة في إقناعك بمبدئي.. وسوف يكون عليك أن تستمع.. قد حاولت من قبل لكن حواجزك منعتني.. اليوم تسمعني عن رضا».

ثم أخرج له مجموعة من الكتب ورفعها إلى عينيه.. كانت كتبا بالإنجليزية، لكن العنوان والرسم على الغلاف كان سافرا كالشيطان.. ثمة اختلاج في عضلات وجه «وسيم» وقد هاله ما رأى.. أشياء «أحمد» كانت جاهزة.. الطعم المقزز في فمه وصوته المذهول يهمس:

- «لست ملحدا فقط.. أنت تبشر بالإلحاد أيضا؟».

obeikandl.com

نظر «أحمد» إليه وقال بلهجة منفعلة:
- «كلمة غبية.. قلت لك لا تكررها.. تسميه إلحادا بينما نسميه نحن الحرية.. الخلاص.. نتمتع بطلاقة الفكر والروح ونعيش بلا قيود».
- «تعيشون؟».
- «تسميه تبشيرا وهي كلمة لا تروقني.. نحن نؤمن بأن الحرية لن تكون إلا حين تغمر الجميع.. مصباح يجب أن ينير للكل الطريق.. تسميه تبشيرا؟ ليكن.. كنت عضوا في عدد من الحركات التي تنادي بالحرية في إنجلترا.. تحدثت إلى الكثير من العرب.. نحاول أن نهزم الفكر الديني في رؤوسهم وقد استجاب البعض.. لكن المؤمنين بالخرافات ظلوا كثيرين.. هي حرب بكل ما تحمله الكلمة من معنى.. تحاربهم بالمقالات والصور ولقاءات التلفاز.. نسخر من خرافاتهم ونكشفها للناس.. شعور غارق في النشوة كلما أحرقنا كتابا مقدسا في حفلاتنا.. النار تحرقه فتحرق معه كل الحواجز النفسية والتابوهات التي تعمي أبصاركم.. يحترق فتصيرون أحرارا».
ابتلع «وسيم» ريقه غير مصدق.. أشياء تبدو كأخبار من صحف أو برامج لا كحدث يسمعه من صاحبه.. ينظر إليه مذهولا:
- «تحرقونها؟».
- «لا تكن أحمقَ.. ما تشعر به هو الحاجز النفسي ذاته الذي أتحدث عنه.. نحرركم منه ونتحدى كل المتشدقين بالخرافات.. نسخر من أفكارهم البالية ونهزم عقولهم ومبادئهم».
ثم أشار إلى جهازه وقال:
- «يمكنك أن ترى الكثير هنا.. أنا موهوب بالرسم الكاريكاتيري.. هناك الآلاف من الصور التي تكشف كل الأديان.. نحن نوزعها في كل مكان».
قال «وسيم» بصوت مذهول:

- «هذا.. مقزز».

نظر إليه «أحمد» ثم أمسكه من ذراعه وقال في غضب:

- «بل المقزز هو أغلالك التي تمنعك عن التمتع بالحياة.. تحب الخمر؟ اشربه.. لماذا لا؟ تشتهي هذه الفتاة وتعلم أنها تشتهيك؟ لماذا تكبح نيران حبك بلا سبب؟ الدنيا كتفاحة طازجة فلماذا أتحسسها طويلا خوفا من العقاب؟ لماذا أعاقَب على المتعة؟».

- «هل ستعاقر الخمر فقط أم ستقتل؟ ستسرق.. ستكذب بقلب ميت».

- «الكل يفعل.. هل منع الدين هذا؟ ما يمنعك هو إنسانيتك».

- «تلاعب بالألفاظ».

ثم أخذ نفسا طويلا.. لأول مرة لم يبدُ مترددا.. نظر لـ«أحمد» وكان قادرا:

- «تتحدثون عن الحرية؟».

- «قطعا».

- «قطعا لا أفهم.. عن أي حرية تتحدث؟».

ثم نهض وأردف في حدة:

- «شأنك شأن جميع الحمقى المنادين بالانفلات.. تتحدثون عن الحرية كما تحلو لكم.. حرية طمس العقل وتشتيت الهوية.. تنزلقون نحو أفكار أكبر من حجم رؤوسكم الصغيرة.. لتنتهوا إلى حقيقة واحدة.. أنكم تهينون الآخر.. تسخرون من معتقداته المسالمة بلا جريرة.. ما دمت تنادي بحرية الإنسان فلماذا لا تتركه لما يعتقد؟ لماذا يتحول نداؤك بالحرية إلى قمة التعصب حين يصدمك فكر لا تؤمن به؟ دعنا لِما نؤمن به وعُد من حيث أتيت.. هناك فقط يسمون هذه الأشياء حرية».

بقيت ملامح «أحمد» صلبة لا تتغير.. ملامح قبيحة كارهة بدا لـ«وسيم» وكأنه يراها للمرة الأولى.. يحدق في وجه «وسيم» المرتجف بانفعال لم

obeikandl.com

يعهده.. يقول:

- «تعني أنك تؤمن باحترام الآخر.. تؤمن بالحرية».

- «يبقى أمرا لا يعنيك.. لم يعيّنك أحد وصيا على روحي.. روحي حرة مع الرب.. وهو أمر يجب أن تحترمه ما دمت تؤمن بالحرية.. أو أن تدعنا لما نعتقد دون إهانة أو قسوة.. لن نكون صورة مشوهة.. أنت صنيعة فكر يتلاعب بالجميع.. يصنع التابعين كأجساد مشبعة بالشهوة.. شهوة يملكون مفاتيحها.. أجساد بلا روح».

ابتسم «أحمد» ساخرا في حين أتبع هو:

- «هذا هو العالم الجديد».

قرأ «أحمد» عينيه بسهولة وقرر أن يتظاهر بالهدوء.. قطع على مضيفه أفكاره وضرب على فخذه وهو ينهض:

- «لن نتفق.. لكنني أُبقي على كلمتي معك.. فلنستمع إلى قسك هذا الآن.. انهض فقد تأخرت عن حزم حقيبتي».

قام «وسيم» ورأسه يدور في نواحٍ شتى.. سبقه «أحمد» إلى الباب يفتحه بينما أغلق «وسيم» آخر فتيل الأنوار ثم تبع ضيفه وقد اهتز قلبه بما سمع.. بقي في قلبه أمل أخير قرر أن يستسلم له..

يغلق الباب خلفه في حزم..

* * *

obeikandl.com

وعلى مقربة منهما كان «رأفت»..

يضع حافظته في جيب بنطاله ثم يربط حذاءه في عجل.. في عينيه نظرات مجنونة.. يدخل عليه والده فيراه وقد ذاب وجهه في العرق فيتوجس خيفة:

- «رأفت.. ماذا ستفعل؟».

- «ما تأخر كثيرا يا أبي».

اقترب منه الرجل أكثر.. قال بصوت مخنوق:

- «ماذا تعني؟».

أجابه «رأفت» في حزم:

- «سأخبرهم جميعا أنني لم أعد أرثوذكسيا.. لم أعد كذلك منذ كنا في الولايات.. لهذا لا أصلي معهم ولا أدخل كنيستهم.. سأخبرهم أنني عبد صالح وخادم مخلص لكنيستي لكنهم لا يعرفون.. أتسلل لها وأعود منها في الظلام حتى لا يعلم أهلنا بهذا.. سأقول كل شيء».

- «جننت؟ ولماذا هذا كله؟ لم يؤذك أحد لأنك لا تذهب للكنيسة».

- «هي كذبة قد جاء الوقت كي تحترق.. لا تخشَ شيئا يا أبي فسأزعم أنني وحدي من فعل.. فعلتها في الخفاء دون علم منكم.. فإن قبلوا فهو ذلك وإن رفضوا فإن الحارة لم تعد بيتي.. صدقني لن أخسر شيئا.. أهلي يحبون شابا أرثوذكسيا اسمه رأفت لكنني لست هو.. فلماذا أُبقي على حب يدفعونه لشخص آخر؟».

- «تظن أن هذا سيحل أزمتك يا ولدي؟ ما زلت مسيحيا في بلد يسكن معظمه المسلمون».

قال «رأفت» في حزم:

- «لكنني لست مسلما يا والدي.. أنا بروتستانتي.. وإني لأقبل أي شيء بعد

obeikandl.com

ذلك في سبيل الرب».
ثم استدار منصرفا فصاح والده من خلفه:
- «إلى أين تذهب؟».
- «إلى الكنيسة.. سيسمعون صوتي هناك».
يهتف والده مذعورا:
- «هل جُننت؟».
لكن صرخته لم تدرك الشاب الذي أعياه الفكر.. كان قد بلغ درجات السلم فأسرع فيها هبوطا حتى بلغ الشارع في دقيقة.. الشارع المظلم الغارق في الغم..
يعدو من أمامه - «رأفت» - صبي مذعور..
صبي صغير يعدو إلى متجر في ناصية الشارع المطموسة.. يمسك طرف جلبابه الصغير في كفه وينادي في ذعر:
- «عم حنفي.. عم حنفي».
يترك الرجل ما بيده متوجسا ثم يرفع رأسه للصبي المذعور:
- «ماذا بك يا ولد؟».
يقفز الصبي إلى داخل المتجر ويقول من بين أنفاسه المتلاحقة:
- «وسيم.. رأيته ممسكا بذلك الغريب الذي اسمه أحمد ودخلا معا إلى الكنيسة».
- «كنيسة؟!».
قالها الضخم مذعورا وقد هاله ما سمع.. أشار للصبي كي يحمي المتجر ثم سار إلى المتجر المقابل.. أمسك صاحبه من كُم جلبابه فأجفل الرجل مذعورا.. همَّ بالاعتراض لكن الرجل أخبره بما لديه.. قال له في غضب:
- «هذا الشاب الرقيع قد سقط.. لقد عرفنا أنه مسلم وقد حدث ما

obeikandl.com

نخشاه.. لا أدري بما أغروه، لكن شيئا ما يقال حول ماري، ابنة جورج.. والآن قد رآهما الصبي يدخلان الكنيسة.. فعلها الكلب وسيم.. حتما هي لحظة تنصيره».

- «يظنون أن الحارة قد صارت لهم ولأفعالهم الملعونة».

ثم أمسك الأول وسارا معا إلى المتجر المقابل.. قابلا شابا من الطريق فحدّثاه.. يعدو الشاب ليخبر «حسين» الذي قام مذعورا.. يعدو الناس بين المتاجر وتسري النار بجنون في الحارة الفقيرة.. يسترق فتى القهوة قولا مما يقال فيرتجف وقد سمع شيئا من مسلمين عن كنيسته.. يعدو الشاب النحيف إلى سيده ويقول ما عنده بصوت مرتجف.. الحذر.. إنهم ينوون غدرا..

«ماري» خلف النافذة.. تتأمل الشارع في شرود وقد ذاب عقلها في قسوة قصتها المزعومة.. تكتم دموعا قررت أن تنتهي وتحاول أن تصنع لعقلها بيتا آخر وأحلاما أخرى تداوي قلبها المكدود..

ذلك حين صار الزحام جليا لا ريب فيه.. لاحظت «ماري» ما يحدث فانتفضت لكنها لم تفهم.. تتعالى أصوات غاضبة فيصير الأمر أوضح.. تجري على والدها مذعورة وقد قررت أنه ربما يفهم كنه ما يحدث.. تنادي بصوت مبحوح.. صوت خائف.. تتعثر وتصطدم بالباب فيقوم والدها مذعورا:

- «ماري؟».

وبالأسفل..

تتكتل الوجوه.. أكثر فأكثر.. يزداد الزحام ويصير الكلام واضحا لا يحتاج إلى إنصات.. يقابل «حسين» وجه «مصطفى» المتوجس على مدخل مكتبته ويقول في صرامة:

- «قد جاءت لحظة الاختيار يا مصطفى.. أتمنى ألا تخطئها».

يهز «مصطفى» رأسه مشدوها وهو يحدق في جموع لا يعرف من أين أتت ولا كيف اجتمعت.. نظرات «حسين» ومن معه تمنحه الإجابة بلا سؤال.. غضب لم يعد ممكنا أن تطفئه الكلمات.. عيونهم تقول:

- «معك سلاح؟».

«حسين» يشاهد الجموع المتحركة.. لكنه يتذكر أمرا.. يتذكر أن معه شيئا سيحتاجه الآن.. شيئا خبَّأه بعناية في منزله ولكنه لم يكن ينوي - مطيعا - أن يستخدمه أبدا..

يفكر.. ثم إنه يعدو إلى منزله مهرولا عكس اتجاه الجموع..

- «سامحني يا شيخ سيد!».

لكنهم - في الكنيسة - لم يكن شيء قد بلغهم بعدُ..

الناس جالسون في سكون ينصتون للأصوات المجموعة.. في ركن بعيد يقف القس بهامته العريضة وعيناه تتأملان الشاب القادم من الولايات باهتمام.. جواره «وسيم» وقد أرهبه الموقف..

- «يسعدني أن استجبت لدعوتي يا بني».

- «أشكر دعوتك أيها الأب.. لولا وسيم ما جئت إلى هنا على أي حال».

ابتسم القس وقال:

- «وسيم ابن مخلص للكنيسة.. وهو يحبك ويحب لك الخير».

هز «أحمد» رأسه بلا معنى..

- «وأنا أثق أنك ستعرف عن دين المحبة ما يريح صدرك.. هنا يا بني لن تسمع المزيد عن الدم والكراهية.. عن العدو والقوة والبطش والأمر والنهي.. فقط الحب.. ما يريده الرب منك هو الحب».

حك «أحمد» جانب فمه بلا انفعال.. نظر لـ«وسيم» بينما أشار القس لهما

obeikandl.com

أن يقدما إلى غرفته:

- «تفضلا».

كان ذلك حين لمح «وسيم» - بطرف بصره - وجه «رأفت» وكان قد اندفع مسرعا من باب القاعة.. كذلك «أحمد».. لاحظ سيره الحثيث ونظراته العجيبة فتأنى وراقب دخلته..

- «رأفت؟».

كان الأخير متهالكا يلتقط الأنفاس بصعوبة.. اندفاعه وصوت أنفاسه العاتية قد أدارا رؤوس الموجودين له.. توقعوا أن يجلس لكنه كان يريد ما هو أكثر..

- «استمعوا إليَّ».

هكذا صاح بصوت مبحوح فتوقف القس ومعه توقف ضيفاه واستداروا للقادم وقد أذهلهم الموقف.. يهمس «وسيم» متعجبا:

- «ماذا يريد هذا الأحمق؟».

بينما تحرك القس تحسبا لحماقة تخرج من فم الشاب المجهول.. لم يكن وحيدا بل تحرك معه آخرون تحسبا للأسوأ.. لكنه رفع كفه المنقوشة برسمة الصليب كي يعرِّف نفسه وقال:

- «أنتم أهلي.. منكم من يعرفني ومنك من لا يعرف.. فقط أردت أن أعلن أمرا على مسمع من الكنيسة ها هنا كي يعرفه الناس جميعا وكي أحمل ثقله عن نفسي».

قام بعض الناس له.. كان معظمهم يعرفه وقد أرادوا أن يوقفوا الشاب الغاضب.. كان القس لحظتها قد بلغه بالفعل فأمسكه وقال بلهجة حازمة:

- «اخفض صوتك يا بني.. هذه كنيسة.. ماذا بك؟».

لكن «رأفت» أصر أن يعلو صوته أكثر.. رفع عقيرته وقال في حزم:

obeikandl.com

- «لست أرثوذكسيا.. لم أعد كذلك.. أنا من البروتستانت».

تراجع القس من دهشته بينما اختلفت نظرات القوم من حوله.. لكن أحدا لم يقدم ردا أكبر من هذا.. كان صوت الارتطام الأول قد حدث بالفعل وتبعثر الزجاج في كل مكان..

لحظات ذاهلة ثم علت الصرخات المذعورة من كل مكان.. أدركوا للوهلة الأولى أن حجرا قد هشَّم الزجاج ثم لم يلبث أن تعالى صوت الأحجار المرتطمة بالجدران.. زجاج جديد يتهشم.. حالة ذعر تشمل الجميع بينما يحاول القس أن يُحكم سيطرته على أي شيء..

- «اهدأوا.. اهدأوا حتى لا تسببوا الأذى لأنفسكم.. فقط انبطحوا تحت مقاعدكم».

لكن الأمر لم يبدُ مقصورا على حجارة يلقيها الأشقياء.. كان ضوء المشاعل قد صار واضحا من خلف الزجاج المهشم وأصوات القوم الغاضبة الهاتفة بكل شيء تشي بأعدادهم الكبيرة.. يرسم القس صليبا على صدره ثم يعدو إلى هاتفه من أجل النجدة راجيا أن يسعفه الوقت..

ينزوي «وسيم» خلف مقعد له وبجواره صار «أحمد».. يهمس الأخير مضطربا:

- «ماذا يحدث؟».

يجيبه «وسيم» وقد انتابه صراخ هستيري:

- «هؤلاء - حتما - هم السفاحون المسلمون.. هل ترى؟ يظنوننا نعاجا تُذبح.. لكن شيئا كهذا لن يصير.. لن يصير».

يعلو صراخه فيعلو صوت الزجاج المهشم في عنف.. يزداد الذعر الأحمق بينما يحاول القس أن يطلب رقما ما.. لكن الأمور كانت أسرع.. ألسنة من اللهب تطير إلى خارج القاعة فيبعث نورها ذعرا مجنونا.. الأصوات الغاضبة

obeikandi.com

تعلو أكثر بينما تبدو ظلال المهاجمين من خلف السور وقد أوشكت على العبور إلى ساحة الكنيسة.. صار هذا قريبا.. وصارت حمم النار أقرب..

تسود الفوضى.. صراخ لا يتوقف وأجساد تعدو نحو لا شيء وقد أدرك المحبوسون داخل جدران القاعة أنهم محاصَرون بلا مخرج.. ينتظرون هذا الجيش الموشك على الاقتحام بينما الرشق وألسنة النيران تحيطهم من كل صوب..

- «أنت من جاء بنا إلى هذا الجحيم.. جحيم الحمقى.. هذه أديانكم التي تحبون.. أديان المحبة».

ثم يخرج «أحمد» من خلف مقعده:

- «لن أختبئ هنا كفأر حبيس».

لكن «وسيم» أمسكه وكان ثائرا:

- «بل هو دينك.. هؤلاء مسلمون مثلما كنت.. كلكم صنيعة الكراهية والفوضى».

دفعه «أحمد» عنه وقال:

- «بل هي عقولكم الحمقاء.. تقتلون من أجل أي شيء.. ربما تثأرون لأبقاركم ونعاجكم كذلك.. كلكم حمقى.. حمقى».

يعلو صراخه أكثر، بينما تعبر النيران القاعة لتبدأ في الاشتعال.. الدخان الحارق يحتوي كل شيء، بينما الأجساد تتساقط من فرط الفزع.. صراخ أكثر.. وأصوات تطالب بالنجدة..

- «أنتم من لوَّث هذه الأرض حين أتيتم.. دين المحبة لم يعرف أبدا كراهية».

- «بل كنتم تتقاتلون كما يتقاتل كل أصحاب الأديان.. لا فارق.. هذه الرغبة البشرية في سحق الآخر.. في فرض الذات بالقوة.. التاريخ يقول ذلك».

obeikandi.com

صوت الأقدام والظلال المقتحمة وقد عبر بعضها السور بالفعل.. تتعالى الصلوات الخائفة المذعورة بينما الصيحات الغاضبة تقترب..

لكن حشدا من الشباب كان قد بلغ الكنيسة في تلك اللحظات..

أعداد كبيرة من النصارى تتدفق نحو الكنيسة وساحتها كي توقف الزحف الهادر.. تعدو أعداد منهم نحو مسجد قريب وقد انتابهم غضب مجنون فتقابلهم مجموعة من المهاجمين للذود عنه.. تنتفض الحارة الصغيرة بالنور والصخب في منتصف الليل فيعدو أهلها مذعورين ليحتموا ببيوتهم الهزيلة بينما النار والأجساد الملقاة تفترش التراب كمعركة حربية..

كانت قاعة الكنيسة غارقة في النار والرماد والدخان الأسود..

محاولات يائسة كي تطفئ ألسنة اللهب من داخل الكنيسة.. لكن المياه لا تكاد تطفئ نارا حتى تشتعل أخرى.. الضباب القاتل يغشى الأنظار والأصوات المذعورة تفقد القدرة على حسن التصرف..

بكاء ونحيب.. لكن «أحمد» لم يُفِق من غفلته ليدرك ما صار إليه الأمر إلا حين سقط «وسيم» وقد أصاب رأسه جسم سقط من السقف.. ينحني فيُصدم بجسد «رأفت» الذي بالكاد يعرف.. كان وجهه يوحي بالاختناق ولم يكن يدري إن كان فاقد الوعي أو أنه فارق الحياة..

فارق الحياة!!

يذهله الهاجس المخيف وتشله الصدمة.. يزحف بين الأنقاض وقد شعر بالاختناق.. يسمع تمتمة المصلين من حوله لا تكف ولا تتوقف.. تقطعها صرخات مذعورة لكنها تستمر.. راجية.. آملة.. وجدانه الهزيل يدرك للمرة الأولى حقيقة الأمر.. ليس مشهدا يوشك على الانتهاء.. إنه الموت حقا.. لم يكن يحسبه قريبا إلى هذا الحد مفاجئا بهذه القسوة..

يسعل أكثر فأكثر.. يشعر بالوعي ينسحب منه تدريجيا.. لا يسمع أصواتا

أعلى.. فقط تمتمة وصلاة.. أصوات قادمة من بعيد كأنغام.. يصلون ويأملون بينما لا يأمل هو شيئا ولا ينتظر المعجزة.. كان أضعف من أن يفعل شيئا..

- «أنت غبي يا وسيم شأن كل هؤلاء الهاربين خلف وهم الدين من أجل اختلاق الحلول.. كلما فشلت أو عجزت عن شيء ترفع رأسك للسماء بحثا عن فانوس سحري يحل مشكلاتك.. لا تقدر على رد الظلم عنك فترفع رأسك أملا في أن هناك من سيرفعه عنك كي تداري عجزك».

صوت الصراخ من جديد.. تمتمة.. ألسنة ملتهبة تراه مغلق الجفنين..

- «تعرف أنني أعشق عقلي ولا أعيش تحت الأقنعة.. دائما أفعل ما ينبع من رأسي ولا أنتظر الأوامر».

دقات مذعورة.. أقدام تعدو.. لكن.. لا مفر..

- «مجتمع مختل يصنع التابوهات لنفسه وعلى استعداد تام للقتل من أجل رمز تلقنه منذ الصغر ولا يملك دليلا ماديا واحدا لوجوده، لكنه مستعد للتضحية بأي شيء من أجله.. يحب ويكره.. يأمل ويبأس.. يتحرك ويمتنع.. هذا جنون أرفضه».

تسودّ الصورة أمام عينيه.. يحاول أن يحرك شفتيه.. الكل يصلي.. فقط هو صامت كالحجر..

يهمس بينما أنفاسه تنسحب من صدره وكأنها لا تنوي أن تعود.. يهمس فلا يبدو صوته واضحا لكنه يحاول مجددا.. يهمس عاجزا فلا يكاد صوته يغادر شفتيه الملطختين بالأسود.. يدرك أنه - حتما - أضعف مما كان يظن.. يدرك أن العون لن يصل.. لن يصل في الوقت المناسب.. يرى الأشلاء من حوله فيعرف أنه سوف يصير واحدا منها.. يرى أشياء لم يكن يراها.. يتذكر أشياء كثيرة.. الآن يموتون جميعا.. لكنهم يموتون من أجل شيء لا يملكه هو.. يشعر بنظراتهم للسماء.. بصلاتهم.. ظن أنه بحريته يصير

obeikandl.com

أقوى من هؤلاء الذين يعيشون طوعا في سجون الدين.. الآن يدرك أنهم في تلك اللحظة بالذات قد صاروا أقوى منه أكثر من أي شيء.. ينهار جسده الضعيف وقد بدا وكأنها أنفاس أخيرة.. ينظر إلى السماء.. يتساءل إلى أي حد قد تأخر؟ هل فارق الحياة أم أن هناك فرصة؟

يرفع رأسه ربما لمرة أخيرة..

يهمس.. متوسلا:

- «يا رب».

يغيب المشهد عن عينيه تدريجيا فلا يسمع صوت سرينة سيارات الشرطة..

* * *

وحين جاء النهار كانت الحارة المنسية قد صارت عاصمة لمصر.. وما بين سيارات الإسعاف ورجال الشرطة والإعلام ينزوي الناس غاضبين أو مذعورين أو شاعرين بأهمية.. بينما يعدو الصبية في كل مكان يحتفلون بكاميرات التصوير.. زحام أخرق وأصوات متداخلة..

- «لن ينال من وحدتنا أحد.. هذه أيادٍ أجنبية تود المساس باستقرار مصر».

- «أؤكد لك أن من هاجم الكنيسة وجوه لا نعرفها.. غرباء مدسوسون».

- «نحن في هذه المنطقة إخوة منذ عرفنا الحياة.. نتشاطر الأعياد والزيارة والرزق».

- «هذه مؤامرة.. لن ننخدع».

ثم يتعالى الهتاف بلا توقف بينما تلتقطه الكاميرات..

obeikandl.com

لكن.. بعيدا عن كاميرات التصوير.. أو ربما في خلفية المشهد.. تسيل دموع «جورج» كالحمض حتى أحرقت وجهه..

«ماري» تنتفض.. تنتحب.. تحتمي بظهر أبيها الغارق في الألم..

يتعالى الهتاف أعلى..

ينتفض «عزيز».. يصرخ.. يضرب الأرض بكفيه في انهيار.. يصرخ باسم «رأفت» كأم ثكلى..

يتعالى الهتاف أعلى..

ينزوي «مصطفى» خلف الحائط دون أن يراه أحد.. ينتحب.. يرتجف بلا انقطاع.. يرى كل ما حوله وكأنه أسير حلم لا ينتهي.. لا يريد أن يتذكر.. لا يريد أن يصدق أنه كان جزءا مما يرى.. يرتجف أكثر وقد شعر أنه قد مات بالفعل.. لا مزيد من الأحلام.. لا مزيد من الأمل.. فقط كوابيس ستظل تلاحقه إلى أن يموت في قلب تلك الحارة فلا يتذكره أحد..

يختفي «حسين» خلف قضبان من الفولاذ في سيارة تنقله.. يتذكر لوحة الحائط المنقوشة بالدعوات في ألم.. يتذكر أنها لم تكتمل.. يرفع رأسه للسماء ويحاول أن يكون أقوى.. لن تسيل دموعه أبدا.. حتما سيمنحه ربه الفرج والعطية الكبرى..

يتعالى الهتاف أعلى..

الأجساد الهامدة تختفي خلف أبواب سيارات الإسعاف..

تتعالى الهتافات من جديد:

- «يعيش الهلال مع الصليب!».

لكن «أحمد» لم يظهر من جديد..

ربما كان جسدا من هؤلاء الذين ماتوا أو ربما قد فر هاربا.. ربما فر خارج البلاد وربما استجار بحارة لا تعرفه..

«يعيش الهلال مع الصليب!».

ربما..

لكن مصيره لم يعد مهما..

كشأن كثير من الأشياء.. التي لا تحدث..

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

الخاتمة

من بين كلمات كُتبت لكن أحدا لم يقرأها سواها:

- «أنا فتاة مصرية مسيحية.. كنت شاهدة منذ سنين على ما حدث في حي الدرديري.. لكنني ما زلت أعاني صدمة ما رأيت.. والدي رجل عظيم.. يطيع الرب ويحب الكنيسة وقد علمني الأشياء ذاتها.. أنا أيضا أحب الرب.. وقد تعلمت منه أن أحذر أشياء عدة.. تعلمت أن ما بداخلنا من حب ومودة هو - للأسف - حكر علينا.. وأننا ينبغي أن نعي أن الآخر لم يُخلق مثلنا وأن قلبه وأفكاره غارقة في الكراهية.. هم يريدون بنا السوء وعلينا أن نحذرهم.. كانت الأشياء من حولي تؤكد ما يقول أبي.. وقد تعلمت ذلك مذعورة.. شاء القدر أن أشهد الكراهية في أسوأ صورة في مساء هذا اليوم.. رأيت الدماء السائلة بلا ثمن.. أصاب قلبي الصغير ذعر لن أنساه.. ساعتها رأيت أشياء لم يعلمني إياها أبي.. قد سالت دماء منا ومنهم من أجل شاب ملحد!! كل هؤلاء الذين ثاروا في قلب الحي ورفعوا السلاح لم يعلموا أن كل ما حدث كان من أجل شاب لا دين له ولم يكن ينتوي.. فقط لو كانوا يسمعون.. لكن الدماء رخيصة.. والغوغاء بلا عقل.. وقد صارت المأساة وستبقى ذريعة للمزيد من المجازر.. نضج عقلي مع التجربة الأليمة وقررت ألا أحرم عقلي من الفهم والحوار وألا أتلقى الحقائق من الآخر.. ولن أخشى أن أنخدع ما دام قلبي نقيا.. سأحب الآخر وإن كرهني.. وإن قتلني.. حتما سيصدق يوما أنني لا أكرهه.. ولن يستطيع أن يبرر كراهيته بكراهيتي.. وإن متُّ فإن الرب - حتما - راضٍ عني.. ما دامت كفاي طاهرتين.. بلا دم».

«ماري».

المحتويات

٩ الفصل الأول
٣١ الفصل الثاني
٧٩ الفصل الثالث
١٣٣ الفصل الرابع
٢١٣ الفصل الخامس
٢٣٣ الخاتمة

obeikandl.com